نرمين جمعة

لا شَيْءَ يقيدُ أنُوثتِي

رواية

نرمين جمعة

لا شيء يقيدُ أنُوثتِي

رواية

عصير الكتب للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة©

لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا

لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

او زيارة موقعنا

sa7eralkutub.com

إلى نفسٍ..

أشتاق لنفسٍ كانت نفسي، كانت تحمل ذات الاسم، وضياع النفسِ من النفسِ، هو أقسى أنواع الإثم.

«يقول دفتر يومياتي أنني أنثى حالمة ذات أحاسيس المعية، لها بريق الماس وشفافية الزجاجِ، ومذاق الأحلام، لكنها ما زالت مشاعر ورقية، أمزقها في لحظة غضب، أو أتركها لتمضي أدراج الرياح».

إلى من بث بقلمي الروح والثقة بالنفس فمضى يخط أفكارًا ومشاعر فأحال صمته إلى صخب وكلمات ..إلى أستاذي ومعلمي..

محمد عناني

قبل عشرين عامًا..

دخلت (وفيّة) غرفتها وتبعها حامد كعادته منكس الرأس، تتعلق حدقتاه بنقوش البلاط الرمادي المعرق باللون الأسود، ترتبط في ذهنه دائمًا صورة البلاط بالحية، أو ربما يذكره بحية أخرى تعيش معه تحت سقف واحد، حية اسمها وفية.

ضحكت بدلالٍ مصطنعٍ تعرف تأثيره الشيطاني عليه وقالت:

— حامد، سأذهب لزيارة أختي بدر، وسأبيت الليلة هناك.

وكعادته رفع عينيه إليها بطيئًا دون أن ينظر بعينيها وكأنما يخشى أن تحرقه بنظرةٍ، أو ربما يخرج من عينيها سهم يستقر برأسه. أطرق متسائلًا بنغمة ساخرة لم تخل من تبرم..

— هل هي الزيارات الأسبوعية المعتادة أم هناك سبب آخر للزيارة؟

ورغم تبرمه قالها بضعف وارتباك، هو أضعف من أن يناقشها أو أن يسمح بخروج ألسنة النار، التي تلتهم بشراسة كل قطعة من جسده النحيل كلما قررت وفية أن تبتعد عنه بضع سنتيمترات.

لن تخرج النار من نوافذه وشرفاته مطلقة دخان وشرار برائحة الخيانة، أجدر به أن يموت محروقًا فيموت معه سرِّه من أن تنتفي عنه صفة الرجولة ببطاقة هويته، لن يفتضح أمرها كي لا تموت رجولته وتُذبح كرامته كرجل.

لحظات مرت عليه بطيئة قبل أن تجيبه وفية، رافعة مؤشر دلالها لمئة درجة مئوية فقالت:

— اتفقنا على الذهاب غدًا لزيارة خالتي (إنشراح)؛ لأنها مريضة للغاية، سأقضي الليلة مع بدر ونسافر طنطا مبكرًا لنعود قبل الليل.

ابتسمت وسألته وهي على يقين من رفضه:

— هل تأتِ معنا؟ تعرف أن خالتي وحيدة منذ سافر ابنها عماد للعمل بالسعودية، هي تحبك كثيرًا؛ لأنك بمثل عمره وإلى حد ما تشبهه.

حقًّا حامد يشبهه، فهو ابن خالته وابن خالتها الكبيرة زينب، لعل هذا هو سبب صبره عليها.

تنبه لسؤالها الجُهنّمي فأطرق يهز رأسه أن « لا »دون أن ينبس.

كانت وفية تكذب في حقيقة الأمر، لا لشيء عدا معرفتها بضيق صدر حامد بهذه الزيارات الأسبوعية المتكررة لشقيقتها بدر، فأرادت أن تضفي عليها شكلًا رسميًا لعله

يمتص بعضًا من غضبه.

كان حامد منشغلًا بفكرة أخرى.. كثيرًا ما سيطرت عليه.

عبقري من اسماها وفية؛ أكثر الأسماء بريقًا تلك التي لا تكن «اسمًا على مسمى». فأمين ليس بأمينٍ، وسامي هو أكثر البشر دناءة، وخسة وخالد أقصرهم عمرًا، وعابد لا ملّة له، وحامد ما هو إلا بساخطٍ على كل شيء من حوله.

عشق حامد زوجته وابنة خالته الحسناء عشقًا لن يستطع أعتى علماء النفس وأكثرهم نبوغًا عن فك رموزه، كيف يشتم رجل رائحة الخيانة بزوجته فيغض طرفه ويرخي جفنيه فلا تنعكس صورتها بهما؟ أي مخدرٍ هذا الذي يحقن به كرامته فتخمد وتفتر ولا تقوم لها قائمة؟! تعجز وفية عن فك شفرة حامد ولوغاريتمات ذكورته، فرغم أنه يقبض على الجمر كي لا يجذب وهجه الأنظار إلا أن لشظايا الجمر جمهور لا يعرفون سياسة غض الطرف وتنقية الهواء من روائح النساء الحسناوات، كانت وفية فتاة أحلام صباه المدللة، لم يكن يجرؤ على مصارحتها بحبه فهي وفية الحسناء المتعلمة بمدارس الراهبات تعليمًا فرنسيًا، التحقت بعدها بالجامعة حيث تخرجت في كلية الإعلام، وهو الشاب الحاصل على القدر الضئيل من التعليم؛ نظرًا لإدارته تجارة أبيه في سنٍ صغيرٍ، مات أبوه قبل أن يبلغ

السابعة عشر، ترك له تجارة لا بأس بها فهجر لأجلها التعليم ليدير محلات «المنى فاتورة»؛ التي ورثها عن أبيه فصارت بمثابة أغلالًا بعنقه، هو الأخ الوحيد لثلاثة شقيقات بائسات تزوجن وصارت كل منهن برقبة رجل لكن ما زلن ينتظرن من مال أبيهن ما قد يسمن أو يغني من جوعٍ، ولم يخذلهن حامد فقد أبلى بلاءً حسنًا وشهدت محلات أبيه في كنفه ازدهارًا لم تشهده من قبل.

كان من الصعب، بل من المستحيل أن تقبله وفية زوجًا وهي الحسناء المتعلمة المتطلعة لمن يأتيها بقطعة من السماء، هي هرة عنيدة تثق تمامًا بمقومات أنوثتها، أنوثة بنكهة ذكاء له ألمعية شيطانية، ذكاء يمسك بزمامها، وليس أخطر وأشد ضراوة على قلب رجل من أنوثة يُمسك خيوطها عقل لا قلب، كانت تطلق خصلات أنوثتها الملساء أو تعقصها وتسمح لنبرات صوتها الحانية أن تتسلل من بين شفتيها الورديتين، بعملية حسابية دقيقة لا تتعدى جزء من الثانية، أي شيطان كانت! ليست هي من نسل حواء بل هي فصيل نادر من الزواحف يشبه الحية في نعومتها والحرباء في تعدد ألوانها.

هكذا كانت صورة وفيّة بعينِ حامد، بغض النظر عن كونه صائبًا أو حائدًا عن الصواب، هي صورة رسمتها فرشاته

فعكف دائمًا على صبغها بكافة الألوان التي قد تظهرها وتضفي عليها طابعٌ واقعيٌ فينخدع بها لا محالة، كل من وقع بصره عليها وليكن هو أول المنخدعين.

أما حامد فهو يتصور نفسه أحد ذكور النحل الذي لم تعد ملكة النحل العذراء بحاجة إليه فتخلصت منه عقب أداء مهمته المقدسة، وبهذا المنطق عاش حامد سنوات طويلة مع الحسناء، عاش ذكر نحل ميتًا من وجهة نظره، وهي ملكة تُطبق قوانين الخلية بحذافيرها لكن ثمة فكرة تطارده من آنٍ لآخر.

لماذا يموت ذكر النحل ولا تموت الأنثى؟ فلتمت الأنثى ويبقى هو.. هل عهدت إليه الطبيعة بمهمة مخلص أمثاله من الكائنات والموت تكفيرًا عن ذنوب الذكور جميعًا؟ لم ترق له يومًا فكرة الخلاص ومخلص البشرية من ذنوبهم فلماذا يلعب دورًا لا يقتنع به؟ لن يلعب دور مخلص الرجال ولن يمت تكفيرًا عن ذنب لم يقترفه، تقنعه أكثر فكرة« لا تذر وازرة وزر أخرى».

هكذا هي طبيعة حامد، الرجل الذي زجَّ ببذرة (يحيى) بأحشاء وفية فسقى البذرة خلطًا منه ومنها؛ فأخرجت نبت هجين شِبه مشوّه.

•••

وفية.. بدر.. سلوى

فتحت سلوى النافذة وأطلت برأسها منحنية للأمام بعض الشيء، وكأنما تتابع شخصًا بعينيها.

لحظة مرور وفية أمام البناية حيث تعيش بدر وسلوى، ابتسمت سلوى ابتسامة عريضة حين رأت وفية تمر بفناء البناية برشاقة بثوبها الحرير القرمزي بلون الدماء، وكانت سلوى قد انتقته لها في أحد جولاتهن في وسط البلد.

بدت وفية فيه أكثر إشراقًا وجاذبية، أحست سلوى أنها تشتم عطر وفية، كان يملأ صدرها رغم المسافة الكبيرة التي تفصلها عنها، هكذا عهدتها سلوى دومًا زهرة باريسية يشي عطرها بمرورها بمكان لم تطئه قدماها بعد، وبخفة ورشاقة أغلقت سلوى النافذة وقفزت بلهفة لا يخفيها بريق عيناها الكحيلتين، كانت تستعد للقاء وفية وبدر بالشقة المجاورة، هما صديقات طفولتها، فهنا بيت العائلة حيث عاشا بدر ووفية فيه سنواتٍ طويلةٍ مع والداهما هو وزوجته العاهرة بعد أن طلّق أم بدر.

كانت الأيام تمرّ بهما ثقيلة بائسة مع أبٍ لا غاية له في الحياة عدا إرضاء العاهرة؛ فبسببها لم يهتم بتعليم بدر وساعده في هذا أيضًا تكاسلها وعزوفها عن التعليم، أما وفية فقد أتمت المرحلة الثانوية والتحقت بالجامعة فكان

جمالها يشفع لها عنده، كان هو وزوجته يعدّونها بمثابة مشروعهما الذي ينبغي لهما أن يستثمرا فيه ليعود عليهما بالربح الكثير.

هكذا حرص الأب على تعليمها بمدارس فرنسية وإلحاقها بالجامعة، وفي النهاية لم يذهب هذا لأدراج الريح، فقد زوجها لحامد حينما كان يمر بضائقة مالية بسبب العاهرة التي تزوجها، والتي أثقلته بالديون إشباعًا لرغباتها، هكذا دعمه حامد بالمال وأنقذه من الإفلاس نظير زواجه بوفية، دام الحال لسنواتٍ عديدةٍ حتى تُوفي والدها ورحلت العاهرة عن البيت ربما باحثة عن صيدٍ جديدٍ، عادت أم بدر البيت الذي طُردت منه قبل سنوات طويلة لتعيش مع بدر ما تبقى من عمرها حتى لاقت ربها قبل سبع سنواتٍ، فبقيت بدر وحيدة تجتر ذكريات طفولة بائسة حين تقتلها الوحدة وتنتظر أن تطرق بابها أي من الاثنتين، شقيقتها وسلوى.

كان لقاء ثلاثتهن لقاءً شبه أسبوعيًا، عادة ما يكون ليلة الخميس هو أشبه بلقاء مقدس له طقوس ثابتة.

رحبت بدر بوفية وسلوى.. ثم جلسن بغرفة الجلوس، وكما تقول نظرية متناقضات الأسماء، لم تكن بدر «اسمًا على مسمى»، فليست بمثل جمال ورشاقة وفية، هي على

قدرٍ متواضعٍ من الجمال مقارنةً بوفية.

لم تتزوج بدر حتى بلغت الثامنة والثلاثين، حصلت على قدر ضئيل من التعليم فلم تكن بذكاء والمعية وفية، وربما كانت بليدة كسولة - إن جاز التعبير- هي نظرية أخرى كنظرية المتناقضات، نظرية «كل شيء» أو «لا شيء»، إحدى النظريات الجائرة لحياة قد تتخير من تعطيه كل شيء ومن تمنع عنه عطاياها، وفية وبدر هما أصدق تطبيق لتلك النظرية، ورغم هذا كان لبدر سحرها الخاص، سحر الجوهر وليس سحر المظهر، فقد أحبتها السماء بقلبٍ ذهبي وهذا هو سرّ جاذبيتها وعذوبتها.

لم تكن بدر تغار من وفية، ورغم كل شي كانت تشعر بنشوة غريبة وهي برفقتها فيتبدد حزنها ووحدتها، كانت تعدها طفلتها لا شقيقتها رغم أن فارق السن لم يكن ليسمح بهذا.

جلست بدر وسلوى فوق أريكة بيضاء مريحة أسفل النافذة؛ اعتادا الجلوس عليها بينما ألقت وفية بنفسها بين ذراعا كرسيها الهزاز المفضل، وأخذت تتحرك فوقه مرخية جفنيها بأريحية لا تستشعرها إلا هنا بين ذراعا المقعد الهزاز، كان مقعد أبيها المفضل فهو ما زال يحمل رائحته رغم مرور السنين، رائحة دفءٍ وأمانٍ رغم أنها لم تستشعر

أحدهما يومًا، لكن هكذا يتراءى لنا ما يطل علينا من ذكريات الماضي، فمهما ظنناه وقتها قاتمًا، حزينًا، تكن لذكراه رونقها وجاذبيتها الخاصة.

كانت وفية تتنفس بشراهة كأنما للهواء هنا نكهة خاصة، ظلت تسحب الهواء وتدفع به خارج صدرها فقال لسان حالها؛ «أنه هنا فقط تتنفس.»

تظل رئتيها محرومة من دفقة هواء نقية حتى يحين الوقت وتعود لمحيطها فتتنفس وتسبح بحرية وأريحية.

اقترحت عليها بدر أن تُبدل ثيابها بجلباب قطني فضفاض فلم ترق لها الفكرة، وهي الأنثى التي لا تسمح لأنوثتها بغفوة وجيزة تتحرر فيها من قيود الحسن والجاذبية فقالت:

— وهل تعرفين أني أفعلها فأرتدي جلبابًا؟ افتحي حقيبة أغراضي ففيها قميص حريري، وروب وردي، هكذا تلبس الحسنوات.

قالتها وهي تضحك بسخرية، فَهِم مقصدها بدر وسلوى فضحكا مثلها، بينما نهضت بدر لتستعرض أغراض وفية التي رتبتها بعناية بحقيبة أنيقة صغيرة قائلة:

— أنتظر زيارتك الأسبوعية بشغف؛ فقط لأرى متطلبات أنوثتكِ هذه التي لا آخر لها.

كان بها كل ما تحتاجه أنثى بحقٍ، كل شيء محسوب مسبّقًا، هي معطيات عملية حسابية صعبة ناتجها أنثى، شأنها شأن قطع لعبة «بازيل» لا يجب أن تنتقص أحدها فلا تكتمل الصورة.

ضمت حقيبتها كعادتها.. العطر، المساحيق، الثياب الجذابة، بعضها خُصّص للخروج والبعض الآخر للبيت، لم تترك شيئًا للصدفة حتى الحلي الذي يناسب كل ثوب خصيصًا، والحذاء ذو الكعب العالي، كلها أشياء قد لا تفهمها امرأة أو أمّ.. وحدها الأنثى من تفهمها و تقدّرها.

كفت بدر عن العبث بالحقيبة التي تدل على أنوثة وفية تاركة الأغراض متناثرة بصورة عشوائية، فقط بين هذه المفردات الأنثوية تشعر وفية أنها امرأة، فلعلها تنسى هذه الحقيقة وهي بقبضة حامد.

كان للقاء الأسبوعي - الخاص بهم- من التقاليد التي لا يحدن عنها، لعل شرب القهوة وقراءة الفنجان كانا أهم طقوسهن.

تلك كانت مهمة سلوى فقد علمتها جدتها الصعيدية قراءة الفنجان وتفسير الأحلام، التقطت سلوى فنجانها الخاص مقلبة إياه بين أصابعها يمينًا ويسارًا وقالت موجهة كلامها لبدر:

— هيا يا بدر ركزي أفكارك مع كل رشفة بما تريدين معرفته، استرخي وركزي أكثر.

التقطت فنجانها بعد أن انتهت منه وجفت نقوشه، أمعنت النظر به ممسكة بالفنجان من يديه اليمنى ومحركة إياه بحركة تلقائية عكس عقارب الساعة، دققت النظر مضيفة:

— واضح أن تركيزكِ عالٍ اليوم، يبدو كذلك أنكِ واظبتِ على الشهيق والزفير بانتظام في الفنجان فاختلطت أنفاسكِ بالبن كما ينبغي، فقد أتت خطوطكِ على غير العادة واضحة وصريحة.

قاطعتها بدر قائلة:

— ماذا ترين بالفنجان يا سلوى؟

— لون فنجانكِ فاتحٌ كالعادة دليل على طيبة قلبكِ.

عادت تقاطعها قائلة:

— لا تعنيني طيبة القلب الآن، أكملي.

أردفت سلوى قائلة:

— خطوطكِ ثعبانية عشبية تعني الإحباط والحيرة.

علقت بدر:

— ما الجديد؟

أضافت سلوى بتجهّم:

— نفس الخط المعتاد، عندكِ خط منحنيًا عن مساره

وهذا دليل على حدوث مشكلة ما.

— كل مرة نفس الخطأ!

قالتها بدر بيأس، فقاطعتها سلوى:

— عندكِ زهرة بعد خمس نقاط.

قطبت بدر جبينها، وقالت:

— بمعنى؟

فسرت سلوى:

— الزهرة تعني الخطبة أو الزواج، والخمس نقاط هي وحدات زمنية قد تكون خمس سنوات، خمس شهور، أو خمس دقائق.

قالتها مازحة بينما قابلت بدر كلماتها بابتسامة عريضة لم تخل من خيبة أمل، دق جرس الباب فضحكت ثلاثتهن، وقالت بدر:

— الخمس نقاط تعني خمس دقائق.

كان حارس العمارة يحمل بعض المشتريات.

أمسكت سلوى بفنجان وفية وهمت بقراءته، أشارت الأخيرة لها بيديها لتثنيها عن هذا وهي ما زالت تتحرك فوق كرسيها الهزاز بأريحيةٍ واسترخاءٍ، وقالت:

— لا داعي، فأعرف حاضري ولا يعنيني طالعي في شيء.. المرأة الذكية هي من تحفر خطوط طالعها

بأظافرها في الصخر لا من ترسمهم بيضع أنفاس فوق جدران فنجان بائسٍ. كما أنكِ لن تفلحي في قراءة فنجاني فقد تعمدت شرب الفنجان للنهاية.

قالتها مطلقة ضحكة تحدي.

لم تعلق سلوى، وكأنها لم تسمع شيئًا ثم واصلت قراءة فنجان وفية مدققة النظر كثيرًا دون تعليق، ثم أضافت:

— عندكِ حصان جامح بالفنجان دليلٌ على هروبكِ من مشكلة ما، وعندكِ امرأة عجوز تهمس بشيء في أذنيكِ.

نهضت وفية بلا مبالاة من كرسيها الهزاز تاركة إياه يترنح بقوة متجهة نحو جهاز التسجيل، حيث أدخلت فيه شريط لتفعّل نغمات أغنية فرنسية تعشقها ،كانت أغنية Coupable، كان هذا الطقس الثالث من طقوس لقائهن الأسبوعي.

قامت سلوى بعدها وبدلت الشريط بآخرٍ لأم كلثوم، فكانت أغنية ألف ليلة وليلة؛ هي أغنيتهن المفضلة التي اعتدن الرقص على أنغامها، بدأت سلوى ترقص على موسيقى الأغنية الساحرة وانضمت لها وفية ثم بدر، فكان الرقص هو الطقس الثالث من طقوسهن المعتادة، لم يكن رقصًا بالمعنى المألوف، بل كان بالأحرى طقسًا هستيريًا أو لغة جسدية يتحدثونها، فهكذا كن يثرثرن ويصخبن

فيخمد بهن كل مشتعلٍ ويسكن كل ثائرٍ، أما الطقس الرابع فكان طقس الحديث عن ذكريات الطفولة وأطرف المواقف التي لا تُنسى أبدًا، ومنها بداية صداقة وفية وسلوى ثم دخول بدر دائرة الصداقة لتتحول الدائرة لمثلث برمودا الشهير، تحدثن عن الشارع والجيران، وعن زوجة أبيهما العاهرة وكيف كانت تغار من وفية وتسرق عطورها وتخفي ثيابها مدعية أنها مهملة لا تحتفظ بشيء، تحدثن كذلك عن محلات الحلوى ومسيو موريس المصور وصاحب الأستوديو المعروف بالمنطقة، كان دائمًا الإلحاح على وفية princess - كما كان يناديها- بينما كان يكتفي أن يطلق على بدر وسلوى demoiselle ليلتقط لها الصور ويعلقهم في نافذة المحل الزجاجية.

قالت سلوى مازحة:

— هل تذكرا لمياء ابنة جارتنا ماجدة؟ هذه الشقراء باهتة الملامح! كانت تشعر بالغيرة تأكلها حين يضع مسيو موريس صورة جديدة لوفية بالأستوديو.

قالتها ضاحكة، وأضافت:

— أذكر أنها مزقت صورتها وألقتها بوجه مسيو موريس، رغم أنها لم تكن بهذا السوء حين رأت صورة وفية بالمونتو الأسود والشابو الفرو.

ضحكن كثيرًا وضحكت وفية بخجلٍ، وكست وجنتها حمرة مستشعرة بعضًا من الحرج والخوف في آنٍ واحدٍ. اعتادت هذا النوع من الحوار حتى كادت تمله وتخشاه؛ فهي تحب بدر وسلوى ولا يروق لها تفضيل البعض لها عليهما ولا تحب أن تجرح مشاعرهما، تكره أي شيء قد يغضبهما، رغم يقينها أنهما يعشقونها وهيهات أن يشعرا بغيرة أو ضغينة نحوها، هي طفلتهما المدللة رغم صغر الفارق العمري فهو لا يتعدى الكثير من السنوات لكنهما يحبونها حقًا بصدقٍ، هي ابنتهما التي لم ينجباها، وكذا هي أمٌ لهما فبها من الحنان والعذوبة ما يؤهلها لذلك بجدارة.

صمتت وفية لحظات وبدت كمن خطر له خاطرة، وسألت بتردد:

— ألم تسمعا شيئًا عن وليد؟

أجابت سلوى في عُجالة:

— علمت أنه رجع من الإسكندرية ليعيش بشقة أمه بعد انفصاله عن زوجته سامية.

أضافت سلوى متسائلة كما لو كان اسم وليد ارتبط لدى الجميع بالأطفال، أو لعلها أرادت أن تذكر وفية أنها صارت أم، فقالت:

— أين يحيى يا وفية؟ لماذا تركتيه؟ اشتقت له، لم

أره قرابة الشهرين.

أطرقت وفية وأجابت بصوت خفيضٍ وكأنما تخشى أن تُسمع وليد بمكانٍ ما فتجرح مشاعره:

— تركته عند أم حامد، هو متعلقٌ بها كثيرًا وكذلك هي.

لم تكن وفية صادقة فيحيى يكاد لا يطيق البقاء مع جدته أكثر من بضع لحظات يتحول بعدها لشيطان صغير أهوج، لكن حامد يكره بدر وسلوى، شأنه شأن الطفل الصغير يكره من يسلبه لعبته المفضلة، وهما يختطفا منه وفية ويحرماه وجودها في نهاية كل أسبوع فيشتعل قلبه شوقًا وغيرة.

قاطعتها بدر هي الأخرى، قائلة:

— أحلم برؤية يحيى كل أسبوع، وتأتي كل مرة بدونه بحجة تعلقه بجدته، هو متعلق بي أكثر منها ولو سألتيه بدر أم هي، لقال لكِ بدر طبعًا، لن أسمح لكِ بالدخول المرة القادمة بدونه.

ابتسمت وفية معتذرة دون أن تعلق بشيء، وبقيت شاردة تفكر في وليد، ما زالت تشعر بوخز الضمير كلما ذُكر اسمه وكلما ذُكرت سيرة الأطفال، لا تعرف السبب فهي لم تتخل عنه بإرادتها كما إنها ليست مسئولة عن عدم قدرته

على الإنجاب، لكنها تأسف لحرمانه من أي متعة تمتلكها فتود لو أنه شاركها فيها.

سرحت وفية بعينيها بعيدًا عائدة بذاكرتها للوراء عدة سنوات، وهي في السنة الأخيرة بالمدرسة حين التقته للمرة الأولى أمام بيتها، وكان قد انتقل حديثًا هو وأسرته للعيش بالبناية ذاتها التي تسكن فيها.

لاحظا شرودها، فسألتها سلوى بحذرٍ:

— أما زلتِ تذكرينه يا وفية؟ كم أعشق قصتكما الرومانسية رغم أنها انتهت نهاية حزينة شبه مأسوية لكنها ما زالت تحرك بي ألف ساكنٍ حين أسمعكِ تتحدثين عنه وكل ما بكِ ينتفض احترامًا وتبجيلًا ولعله أيضًا حدادًا.

عاودت وفية شرودها، وقالت وهي تحملق في الفراغ:

— ليس الأمر كما تظنيه، وليد هو ابن الجيران، هو أول ما فتح قلبي كان من أجله. الحب الأول، حب المراهقة الذي يأتينا بسنٍ صغيرٍ فيأتِ على الأخضر واليابس بنا، هكذا هي البدايات تأخذ أجمل ما فينا وتتركنا صفحة بيضاء خاوية لكنها رغم خوائها غير قابلة للكتابة وكأنما كَستها طبقة شيطانية لا تتشرب حبر دون أول حبر لامسها وخط كلماته عليها، بدايات لعينة

لكنها لذيذة تبقى نكهتها بقلوبنا مدى الحياة فتكون هي «الأركيتيب»، أو النموذج الأصلي للأشياء الذي يشوه ما يأتِ بعده وإن كان الأفضل.

قاطعتها سلوى قائلة:

— تعنين أن يكون وليد هو نموذج الرجل عندكِ؟ لكن حامد زوجكِ بعيد كل البعد عن وليد، هو لا يشبهه في شيء من قريب أو من بعيد.

أفاقت وفية من شرودها، وأجابتها:

— لم أقصد هذا تحديدًا، أعني أن تجربة المشاعر الأولى والرجل الأول والحب الأول مهما كان ينقصها الكمال لكنها الأولى، وكونها الأولى يصبغها بصبغة خاصة يصعب محوها.

انضمت بدر للحوار، وقالت:

— لكني أرى أن حامد ملأ سطور صفحتكِ الملعونة، ورسم فوقها أجمل شجرة أتتكِ بثمرةٍ رائعةٍ اسمها يحيى، هو إذًا من كتبكِ وصاغكِ وشكّلكِ وليس وليد.

أجابتها وفية موضحة:

— لم أقصد غير ما قلته «الأركيتيب» يدمر أشباهًا كثيرة، فأول المألوف هو آخره بالنسبة لنا، ألفت الحب مع وليد وأنا صغيرة وكذلك رأيت في صورته معنى

الرجولة، لكن ليس معنى هذا أني ما زلت أحبه، فقط أحب حالة الحب التي عشتها معه، وليس معنى هذا أنه الرجل المثالي لكني ظللت أتطلع لما يشبهه ويشبه هذه الحالة، وكون حامد لا يشبهه لا يعني أني لا أحبه، بل أحبه ولكن بصورة أخرى، فأضعه في سياقٍ آخرٍ يسمح لي أن أحبه، سياق يشبه فيه أركيتيب آخر ربما أركيتيب الصديق أو ابن الخالة.

قاطعتها سلوى:

— لم أفهم تحديدًا.

أردفت وفية قائلة:

— أضعه في سياق الأخوة فهو يشبههُ أكثر، من وجهة نظري هو الأخ، وليس لديَّ مانعٌ أن أحبه من هذا المنطلق، لكن لا أستطيع أن أحبه كرجل أو زوج، هل فهمتِ؟

سألتها بدر:

— وماذا ينقصه بنظركِ كزوج أو كرجل؟

أجابتها:

— ينقصه إحساسي - أنا - بهذا، فأنا لم أتصوره أبدًا غير ابن خالة، لا يصلح أن أكتمل به كامرأة.

سرحت بعينيها في الفراغ، وأضافت:

— لا أنكر أنه يتظاهر بحبي ويوفر لي رفاهيات لم أكن أحلم بها لكني لست سعيدة، أحيانًا تصير الرفاهية حين نعتادها كطاغية يستعبدنا فلا نستطيع الإفلات من قبضتها ونبذها، فالاعتياد لعنة تحرمنا أشياء أخرى كثيرة؛ لعلها أكثر قيمة وأهمية.

زفرت سلوى بقوةٍ، وقالت:

— لا أفهمكِ يا وفية، ظننتكِ سعيدة مع حامد وظننتكِ نسيتي وليد تمامًا، لكنكِ كعادتكِ غامضة كتومة مثل مرآة لا تعكس الصور بل تكتفي بأن تحفظها بداخلها.

ابتسمت وفية وقالت:

— تذكريني بسؤالٍ قد يبدو لكِ أحمق، كثيرًا ما يلح عليَّ دون أن أفهم سببًا لهذا.

سألتها بدر بلهفةٍ:

— أي سؤال؟

أجابت وفية وهي تنقل بصرها بين بدر وسلوى:

— كثيرًا ما أنشغل بحكمة وجود المرآة، فأتساءل عن فائدتها وهل هي نقمة أم نعمة، أقصد ماذا لو لم نكن نعرف صورنا؟ أظن أمورًا كثيرة كانت ستتغير، أقصد مثلًا أكان البعض يشعرون بالغرور والبعض الآخر

بالدونية وانعدام الثقة بالنفس؟ هل المرآة تعكس جزءًا منا فنعرف صورنا؟ ماذا لو لم تعرف الجميلة أنها جميلة والقبيحة أنها مُنفرة؟ أكان الأمر سيختلف؟

أجابتها سلوى:

— كنا سنرى صورنا بأعين الآخرين. وحتمًا ستجد الجميلة من يحدثها عن جمالها البرَّاق وستعرفه أيضًا من ملاحقة الرجال، وستعرف القبيحة قبحها بالطريقة ذاتها.

أضافت وفية وما زالت شفتيها تحمل الابتسامة نفسها:

— لكن معنى هذا أننا سنرى أنفسنا كما يرانا الآخرين ليس كما نرى نحن أنفسنا، وهو أمر صعب للغاية فآراء الآخرين تتباين وتختلف.

تدخلت بدر في الحوار، قائلة:

— لمَ كل هذه المهاترات والفلسفة يا وفية؟

قطبت وفية جبينها وأجابت بشيء من الحزن:

— لأني أراني بعين حامد صورة أخرى غير التي تظهر لي في المرآة، فلا أعرف أيهما الأصدق.

سألتها بدر:

— وكيف يراكِ حامد؟ يكفي أنه يراكِ وحدكِ فلا يرى امرأة غيركِ.

أضافت سلوى:

— فعلًا هو يراكِ أجمل نساء الكون فلا يرى نساء بعدكِ. بل إنه يكاد يُقبّل التراب الذي تطئينه.

ابتسمت وفية وأضافت:

— فعلًا هكذا يراني حامد رؤى العين، لكن مرآته الداخلية تعكس له صورة أخرى، صورة تطل من عينيه فتطاردني كالأشباح المخيفة، أشباح أحاول أن أنال منها فتختفي في لمح البصر لكني أحسها أحيانًا بأنها اختفت بداخلي فأشعر بها تتحرك وتسود المكان، توسوس بأذني مرددة في كل مرة الكلام ذاته.

سألتها سلوى:

— أي كلام يا وفية؟

أجابتها بأسى:

— إنني خائنة، نعم هكذا يراني حامد، أراها دائمًا بعينيه وأسمعها بانكساره ورفة جفنيه وارتباكه. أكاد أصدق أنني خائنة، رغم أنني لم أخنه أبدًا بل إني أكاد أخون بالفعل، فأحيانًا حين يرمينا البعض بما ليس فينا يدفعنا لارتكابه لعله عندًا أو لعله تنفيسًا عن الشعور بالظلم، أحيانًا أشعر أن حامد يشبه مرآة تمسخ من ينظر إليها حجرًا، هل مسخني حامد حجرًا فصرت متبلدة الحس لا أحس وجوده فظنني خائنة؟

علقت بدر:

— لا أظن حامد يراكِ هكذا، لا دليل على كلامكِ. أنتِ متجنية عليه.

شاركتها سلوى الرأي، فقالت:

— لم أر رجلًا يحب امرأة كحب حامد لكِ. اطردي من رأسكِ هذه الأفكار السوداء فعندما يظن الرجل زوجته خائنة لا يبقيها على ذمته أبدًا، ثم إنكِ لا تفارقيه تقريبًا إلا حينما تكونين معنا، لا يوجد هناك سبب؛ ليظن بكِ هذا وإن كان فدوركِ أن تذيبي شكوكه فتمضي بغير رجعة.

أضافت بدر متسائلة:

— هل حاولتِ مواجهته بهذا الأمر؟ حامد رجل عاقل لا أظنه يسيء الظن بالبشر وخصوصًا زوجته وابنة خالته.

وجمت وفية وقالت:

— لم أحاول، لكن كل نظرة من نظراته وكل نفس يخرج حاملًا إلى إحساس واحد وكلمة واحدة.. الشك.

صمتت برهة، وأردفت قائلة بعد أن سرحت بعينيها بعيدًا:

— تركته اليوم يشاهد فيلم نهر الحب فبدا كالمنوم مغناطيسيًا، رأيت النشوة بعينيه وهو يسمع كلمات ذكي

رستم الشهيرة، «تركت لكِ الحبل على الغارب لتشنقي به نفسك.»، أحسه يفعل الشيء ذاته معي، يترك لي مساحة من الحرية لأثبت له أنني خائنةٌ.

أضافت بعينين شاردتين مترددة بعض الشيء:

— هل سمعتما عن من ينام مخفيًا تحت وسادته سكينًا؟

صرختا في صوتٍ واحدٍ:

— لماذا؟

أجابت وفية بخيبة أمل:

— لا أعرف، هو يفعلها دون تقديم مبررات، فقط يفعلها، وما هو أكثر.. أنه يضع ألغامًا من أحذية وخلافه لدى باب الغرفة فربما أتعثر بهم إن هممت أن أغافله بالخروج لجلب كوب ماء وهو يغط بنوم عميق، فإن فعلتها.. تعثرت قدمي في الظلام وربما سقطت محدثة جلبة كبيرة يصحو على إثرها مزهوًا بنفسه كمثل زهو من أمسك بعوضة أقلقت منامه بلدغها وطنينها ليلة كاملة.

بقيا صامتين مشدوهين لا يستوعبا شيئًا مما يُقال.

تلك المرة الأولى التي تُسقط فيها أقنعة حامد الزائفة على مرأي ومسمعٍ منهما.

هو يتوهم أشياء غريبة لا أساس لها من الصحة، بناها ونسج خيوطها على أساس واحد فقط أنوثتها، شعرها الناعم المسترسل، عيناها الواسعتين الأشبه بقمرين مستديرين بمنتصف الشهر العربي، علاوة على عقدة النقص بداخله التي أخذت تتغذى وتقتات على قبحه، رغم أنه ليس بالقبيح، لكن هكذا تصور له مرآته مقارنة بها.

حامد شخصية غير سوية، تفتقر كثيرًا للثقة بالنفس، انعدام ثقته بنفسه هو الوحش الكاسر الذي يلتهمه حيًا فيسحق عظامه ويمتص دماؤه تاركًا إياه جسدًا باليًا مهترءً، لم يكن حامد بهذا الضعف غير أن متى رُوت البذور نبتت وتفرعت، وقد دأب على ري بذور انعدام الثقة بنفسه فلبت وانعدمت.

بلغت عدم ثقته بنفسه منه مبلغها فصار يخاف أعين الناس وانتقاداتها له في أتفه الأشياء، تذكر وفية مثلًا أنها بُهتت ذات يوم إذ رأته يتحاشى الوضوء أو الصلاة أمام الآخرين فمن بينهم من سيترصده ويتصيد له الأخطاء، فهو ليس مهتمًا كثيرًا بشؤون الدين، فقط يصلي ويصوم ويزكي، لكنه لا يعرف تفاصيلهم، لم تشغله يومًا التفاصيل، يخاف إن شرع يتوضأ لكان هناك من هو أكثر فقهًا منه فيلومه أو ينتقضه.

هكذا كان يترقب، إذا اضطر للصلاة بمكانٍ عام، وقت خلو دورات المياه من المترددين عليها لكي يسارع بوضوءٍ سريعٍ خاطفٍ يكاد يخلو من ماء ومن بلل فإن تباطؤ أحد الرواد في الخروج واضطر للوضوء احتمى بإحدى الحمامات حيث يقضي حاجته وأوصد بابها وأخذ يجتر الماء من هنا وهناك؛ حتى ينتهي من ما ظنه هو وضوء، وظنته هي أي شيء آخر، هكذا كان في أداء كل الفروض يتحاشى نظرات الآخرين ويعمل لها ألف حساب.

تكرر الأمر كثيرًا ليس فقط في أمور الوضوء والصلاة وإنما تفاقم الأمر فصار يتلعثم في الحديث وتخرج الحروف هوجاء سخيفة لا معنى لها، شعرت وفية بالخجل في كل مرة اضطرتها فيها الظروف لمصاحبته، أرادت أركيتيب الرجولة فأتتها الأيام بأركيتيب آخر مختلف تمامًا، أركيتيب الخذلان، أو ربما ما أطلقت هي عليه أركيتيب «ابن الأم».

ترى وفية نفسها أنثى جميلة تحتاج لرجل ذو موهبة خاصة، يعرف كيف يدلل أنوثتها ويهدهدها ويدغدغ أعصاب صباها وعنفوان جمالها، هكذا عرفت وفية كل نقائصه وتحملتها، لم تكن نزوات جنونه تقف بحدٍّ معينٍ، كانت جامحة تفوق ما قد يخطر ببال، لم تخل من حيل

مبتكرة كأن يتركها مرة مع ابن خالهما ويتابع من وراء حجاب كيف تتصرف مع رجل آخر؟

وقد بلغ الحصار الذي يفرضه عليها أن وضع قفلًا على قرص الهاتف، كان شائعًا الاستخدام بهذا الوقت، لكنه منعها من استخدامه، لكن وفية أنثى متمردة لا تقبل أن يقيدها أحدهم وإن كان زوجها، فقد تعلمت حيلة دق الرقم الذي تود الاتصال به على الزر الحامل للسماعة، فإن أرادت مثلًا رقم خمسة دقت على الزر خمسًا وهكذا، وهي حيلة قديمة لا يعرفها إلا من كان يملك هذا النوع العتيق من الهاتف ذو القرص الرقمي ومن يملك من التمرد ما تملكه وفية.

انتفضت وفية محاولة التخلص من بعض الأفكار العالقة بذهنها مثيرة بها مشاعر متضاربة ليس لها موقف محدد حيالها، وقالت بيأس:

— أحيانًا أفكر أن خالتي - أم حامد- تستخدم السحر والأعمال؛ لتبعد حامد عني، لقد حذرتني منها عزيزة المغربية كثيرًا، لعلي ألتقي المغربية يومًا فأسألها في هذا الأمر.

صمتت لحظات كمن تسترجع ذكرى ما ثم أردفت قائلة:

— أذكر أني شكوت لها يومًا من ضيقٍ بصدري يداهمني كلما زارتنا خالتي زينب، فأعطتني ورقة بها

أيات قرآنية وطلبت مني أن أقرأ كل منها سبع مراتٍ على كوبٍ من الماء ثم أشرب من الكوب وأوزع ما تبقى منه في أركان الغرف، ونصحتني كذلك أن أنثر بعض الملح الخشن بأركان الغرف.

سألتها بدر بلهفة:

— وهل فعلتي؟

أومأت وفية برأسها أن نعم.

سألتها بدر:

— وماذا حدث بعدها؟

— تحسّن الوضع بعض الشيء، لكنه كان إحساسًا غريبًا.

تدخلت سلوى في الحوار فسألت:

— أي إحساس؟

أجابت وفية:

— أحسست أن الماء شيء حي، أهمس بأذنه بعض الآيات القرآنية فيسمعني ويستوعب ما أقول وربما يرفق بحالي، كنت أهمس بالآيات وعيناي تتابعان حركة طفيفة بالماء ربما تحدثها أنفاسي، لكن الأمر كله بدا لي مهيبًا.

ابتسمت وفية ابتسامة طفولية ولمعت عينيها كطفلة

توهجت بداخلها على حين غرة فكرة شيطانية، وقالت:

— ما رأيكما لو دعونا المغربية على الشاي بعد ظهر غد؛ فقد اشتقت كثيرًا لها ولحكاياتها الغريبة.

أردفت بدر قائلة:

— وندعو معها بعض الجيران من سكان العمارة، ونطلب من حسن أن يأتي بالعود ليعزف لنا أغنيات عبد الوهاب وأم كلثوم، ستكون أمسية رائعة.

قاطعتها وفية مُعلقة وعيناها تداعبان وجه سلوى الشاحب:

— لا داعٍ لدعوة حسن فقد يضايق وجوده سلوى.

ارتبكت الأخيرة قائلة:

— لا لن يضايقني، هو موضوع وانتهى، ما عاد هناك ما يضايقني إطلاقًا، لقد التقيته مصادفة أكثر من مرة وألقى عليّ التحية دون أن يثير هذا بداخلي أي شيء، لكني أخشى فقط أن يُسبب له هذا إحراجًا، أسمع أن زوجته «سُمية» تُغار عليه كثيرًا وأظنها تعرف بعلاقتنا فلن تسترح لوجوده معي بالمكان ذاته.

سألتها بدر بمكر:

— لكني رغم ما تقولين أثق أنه ما زال هناك شيء بداخلكما لا يعرف الخلاص، ما زالت قسمات وجهه

تختلج بشدة حين يقع بصره عليكِ معلنة العصيان على عهدٍ أخذه على نفسه مع امرأة أخرى، وما زالت أنفاسكِ تكاد تُمزق صدركِ حين تستمعين لعزفه العذب على العود، فأحس كل ما بكِ يتمايل شجنًا.

علقت سلوى جاذبة نفسًا عميقًا من سيجارة معلقة بين إصبعيها:

— عندكِ حق يا بدر، حين تنتهي العلاقات ثمة شيء دائمًا يبقى بداخلنا يذكرنا أنه كان لهذا الشخص أو ذاك مكانًا بنا، لا أؤمن مثل وفية بفكرة الأركيتيب، فلم يكن حسن أول حب ليرسم لي أركيتيب الرجل، لكنه أقوى بكثير من هذا؛ فهو رجل هزمني وكسر أنف أنوثتي حين لبى نداء امرأة أخرى ليس حبًا فيها وإنما لكونها من وجهة نظر أمه مثال الزوجة الصالحة، فهي «ست بيت» على حد قولها، ليست مثلي متفرنجة في ثيابها، تغطي رأسها مما لا يعصمها من أعين الرجال قدر ما يعصمها من ألسنة الناس اللاذعة، التي تصب حممها على النساء عاريات الرؤس فتحرمهن حق الزواج بأبنائهن.

صمتت لحظة، وعادت تبتسم بسخرية قائلة:

— أشياء كثيرة حرمتني أعز إنسان، ليست ثيابى وحدها.

أطفأت السيجارة بعنف، فكادت تسحقها حتى تختفي تمامًا وأضافت:

— الثياب والسيجارة وعملي بشركة خاصة إنترناشيونال، وحياتي بمفردي بعد وفاة أبي ولحاق أمي به، علاوة على كل ما يشذ عن أحلام الرجل الشرقي بالمرأة.

اعترضتها وفية معلقة:

— جميعهم على نفس الشاكلة، يدعون أنهم عاشقون ويتحججون بإرضاء الأم والخوف من عقوق الوالدين وغضب الله إن تزوجوا من تراها الأم سافرة وربما ترقى لمرتبة العهر، وهم في الأصل أكثر صلابة من أمهاتهم.

صمتت لحظة ثم أردفت قائلة:

— كثيرًا ما طالبني حامد بتغيير شكل ثيابي لأرتدي العباءة الفضفاض، وتغطية شعري وكثيرًا ما أصر لكني رفضت بقوة فأنا أكره القيود، أكرهها بعنف. لا شيء يقيدني، لا شيء يفرض عليّ هيمنته، فأنا أحب حريتي وأعتز بأنوثتي مهما كلفني إظهارها غير عابئة بكم الألقاب التي ستنصب فوق رأسي جراء هذا على شاكلة السافرة أو حتى العاهرة.

تدخلت بدر في الحوار، قائلة بحماس:

— دعنا من تلك الأمور الآن، سنعد كل شيء وندعو الجيران وأولهم حسن. سأطلب منه أن يصحب سُمية رغم أني أعرف الرد مسبقًا، سيعتذر قائلًا إنها تفضل البقاء بالبيت وسيأتي وحيدًا أو ربما أرسلت معه أحد أبنائهما ليعود إليها بموجز الأنباء، لنبدأ الآن في الاتصال بالجميع لدعوتهم، سأبدأ بالدور الأول مارة بالأدوار العليا، وسأستثني طنط ثريا وبناتها فلن أحتمل وجودهم، وكذلك من الدور الرابع سأستثني طنط مرفت لأنها تمر بظروف صحية صعبة لا أظنها تستطيع أن تأتي.

قاطعتها وفية قائلة بلهجة جادة، آمرة بنبرات مرتعشة:

— لا تنسي دعوة وليد.

اندهشت بدر لهذا المطلب وقالت:

— وما ضرورة وجود وليد؟ شكوت لتوك من حامد وشكه بكِ، فلا داع لإثارته برجلٍ جمعتكِ به علاقة يومًا ما.

أجابتها وفية:

— لا أعرف السبب، لكن ثمة شيء بداخلي يُلح عليّ في هذا، ربما رغبتي في اختبار تأثيره عليّ؛ لعل الأنثى بداخلي تود أن تُرضي غرورها حين تراه، كما تخاله حطام رجلٍ لمجرد فقدانها. أو ربما لأخرجه من الحالة

النفسية السيئة التي يمر بها أو...

راقبتها سلوى وبدر بحيرةٍ. صمتت وفية لحظات وأردفت قائلة:

— لم أعتد إخفاء ما يدور بنفسي عنكما، لن أخجل أن أقول أنني أريد أن أتحدث لرجل أجرى مياهي الراكدة وغاص بها فاستقر بقاعي للأبد، أحسه بداخلي حتى أكاد أسمع صوته تارة يعلق على ثيابي وأخرى يُثني على عودي الملفوف، وثالثة يوبخني بعنف حين يضمني حامد إليه حتى أكاد أشعر بذراعيه تدفعاني بعيدًا عنه بشدة وعنفوان عشر رجال، أعلم أنه الجنون بعينه أن أفكر هكذا ولكنني لا أستطيع السيطرة على هذا الإحساس الأرعن، وأثق في الوقت ذاته أنه ليس بحب لرجل، فسوف اسميه حب لحالة، جميعنا بداخله عشق لحالة عاشها وتملكت منه ذات يوم ثم رحلت رحيل مادي زائف ليس بجوهري، أصعب شيء هو رحيل الصورة وبقاء الجوهر، وها قد رحل عني وليد بشحمه ولحمه وبقي الإحساس يذكرني بوجود شيء كهذا على وجه الأرض فصرت باختصار كمن تذوق نكهة رائعة لفاكهة ما فأدرك وجودها، فكيف له أن يجرؤ على نكرانها؟! وكيف لا يشتاق جوفه.. المذاق ذاته عشرات

المرات؟! هكذا أشتاق المذاق ولا أشتاق وليد.

بدتا مشدوهتان، يحدقان في فراغٍ بعيدٍ لا ينتهي بهما لشيءٍ عدا ضوء خافت هو ضوء مصباح صغير يتدلى مهتزًا بمنتصف الغرفة، وسرعان ما أفاق الجميع من شرودهن وقررت وفية البدء في ممارسة طقسًا آخر من طقوس لقائتهن وهو التدخين، فأخرجت من حقيبة يديها علبة سجائر فضية وقداحة تحمل النقوش ذاتها وزجت بسيجارة بين شفتيها، لم يكن التدخين بالنسبة لهن عادة بل مجرد رغبة في الخروج عن السياق، طالما كان هذا في حدود لا ضرر منها.

لم تكن السجائر أكثر الطقوس شذوذًا وخروجًا عن المألوف، فنافسها أحيانًا شرب البيرة في بعض المواسم والأعياد، كن كثلاثة أطفال ما زلن بجدائل تحلم بمن يحلها، فتزوجت من تزوجت وعزفت من عزفت وبقي إحساس واحدٍ يجمعهن، إحساس طفولة لا تنضج لتبلغ مرحلة المراهقة. كن أطفالًا شغوفات بتجربة الحياة فلا يعرفن منها ولا يستهويهن فيها إلا كل ما يندرج تحت كلمة تابوهات، لكنها هي الأخرى تابوهات طفولية لم تبلغ مراهقتها ولم تتعد ما قد يدركه خيال الأطفال.

هكذا اعتدن طقوس تمرد وجنون، طقوس طفولية بحتة

لا عقل لها ولا قيد ولا انتماء.

انتهت ليلتهن ببصيص من الأمل دبت أوصاله وتغلغلت بصدر اثنين منهما وفية، وسلوى.

أما عن بدر فعلى عكس ما يوحي به اسمها من كمال، بقيت كيانًا منتقصًا يتطلع للكمال غير أنه قد حلت به لعنة الاسم؛ فبات يخضع لدورات ومدارات فلكية وشمسية لا تعد بأكثر من كمالٍ لحظيّ وبمجرد بلوغه يبدأ في الانتقاص.

كانت تحلم باكتمال دائرتها التي لم تتعدَّ يومًا هيئة الهلال، لم تنجذب يومًا، كمثل وفية وسلوى، انجذاب أنثى لرجل، ظل هذا دائمًا ما ينقصها ويمنع بدرها من الكمال، ربما أحست لمراتٍ قليلةٍ بانجذاب أحدهم إليها لكن لم يكن هذا كفيلًا للزج بها لمنطقة محرمة لديها، منطقة تفقد فيها المرأة وقارها وتصير كيانًا أنثويًا تعبث به المشاعر ما شائت فتحل أجزاءها وتعيد ترتيبها من جديد كلعبة «البازيل».

لكنها ليست بلعبة بل كيان من لحم ودم لا يسمح بالعبث به، ربما كان تفكيرًا شاذًا بعض الشيء لكنه كان حقيقيًا لا زيف فيه، ربما كان هذا موروثها اللعين من زيجة أمها وأبيها الفاشلة. تعي تمامًا أنها أنثى مهما قلت درجة جمالها

لكن ما زال بها شيء أنثوي تستشعره، لكن ليست الأنوثة قضيتها، هي باختصار لا تنجذب لرجل مهما كانت جاذبيته ولا تتوق لقصة حب تعيشها كما تعيش بطلات الأفلام الرومانسية التي تشاهدها على مضضٍ، سألتها سلوى ذات يوم:

— ألم تشعري بحاجتكِ لرجلٍ يشعركِ بالانتماء؟

قطبت بدر جبينها، وقالت متعجبة:

— انتماء؟

أجابتها سلوى شاردة بعينيها بعيدًا:

— نعم هذا الانتماء الذي تستشعرينه حين تستمعين لأغنية عاطفية وأحدهم معلقًا بخيالكِ يجسد معانيها، حين يحدثونكِ عن الشوق فتفهمين، فثمة شخص بعيد يذيبك شوقًا له، عن الشغف فيقفز لذهنكِ من يثير شغفك، هذا هو الانتماء بعينه.

علقت بدر:

— فهمت قصدكِ لكني أشعر بالنقيض، أشعر بالخواء، الخواء من أي إحساس يمكن أن تثيره بي نغمات أغنية عاطفية فتستحضر شخصًا بعينه.

سرحت سلوى بعينيها في الفراغ، وقالت بعينين زائغتين:

— أحيانًا أشعر أنكِ على صوابٍ حين أتذكر هؤلاء من

مروا بحياتي مرور الكرام، فكثيرون منهم مروا بي هذا المرور الكريم الذي يرحل تاركًا بجدارها الهشّ صدعًا جديدًا، فالأجدر بي أن أطلق عليه «عزوف الكرام» لا مرور الكرام.

•••

وليد

عاد وليد للمكان ذاته الذي رحل عنه قبل سنواتٍ عقب زواجه، عاد بشيء في صدره لا يستوعبه، لكنه يدرك أن فيه هلاكه، لم يكن وليد قادرًا على الإنجاب مرة أخرى، نظرية متناقضات الأسماء.

هل كانت أمه تعلم حين شق بطنها وخرج للنور أنه عقيمٌ فاسمته وليد؟ حرمته الطبيعة من دوره كأحد ذكور النحل، على استعداد هو أن يبث الحياة بأحشاء نحلة عذراء مانحًا إياها بذور الحياة نظير حياته، لكن الحياة ضنت عليه بالموت وربما أيضًا بالحياة. هكذا عاش ساخطًا على كل من انتفخت بطنها أو كمش طرف ثوبها يد طفل صغير أو مضت تجرّ ورائها حنجرة طفل لا يرضى بأقل من أن تحمله أمه، كلها صور مستفذة لذكورته الجريحة تذكره بصدع في صدره يتسع يومًا بعد يوم، فسيأتي يوم ويبتلعه فلا يصبح له وجود.

لم يكن يسخط على أب، كل سخطه كان منصبًا على النساء فهن أكثر جرأة ووقاحة في إثارة جرحه، هن أكثر استفزازًا لعجزه، لما لا يبذلن جهدًا في التستر على بطونهن المنتفخة، أو يقرن في بيوتهن فلا يشققن صدره ويخنقن أنفاسه!

عاد وليد من الإسكندرية بعد انفصاله عن سامية، لم يتزوجها عن حب، لم تنبش بقلبه غير وفية، هي هرته الأليفة الوحيدة التي طالما داعبها ودللها حتى أفسدها دلاله وغرتها مداعبته، وحدها فقط من نبشت قلبه أما الأخريات هن قطط ضالة لا يسمح لهن بالاقتراب حتى زوجته سامية فقد ظلت بالنسبة له مُركب يختلف عنه في الخواص التي ربما تشابهت مع خواص الماء، فلا لون ولا طعم ولا رائحة، مُركبٌ غير قابل للذوبان فيه والاختفاء بين ذراته.

تُرى هل كانت وفية لتتحمل تبعات عجزه إن عاد إليها، أم ما زالت هرته المتمردة تألف قواعد العبث بقلوب الرجال؟! هل يكره فيها هذا التجويف الذي حملت به ثمرة فراقهما؟ ثمرة رجل آخر لم يأثرها بعهود ولم يأتها بقطعة من جسده؟ كم أقسمت أن لن تبتعد قيد أنمله عنه، لكن الغدر من أبرز سمات الهرة وأشرسها.

تلقَّى وليد نبأ دعوة وفية وبدر له بثباتٍ وهدوءٍ أخفى وراءه الكثير من المشاعر، هو بحاجة لما يخرجه من يأسه وتجربته الفاشلة، سيلبِّي الدعوة، وستفعلها وفية كعادتها، ستمنحه فرصة الحياة.

بخلاف وليد، فقد تركت الدعوة بصدر حسن أثر غير

طيب، فبات ليلته يفكر بعقباتها، تُرى هل سيجمعه بسلوى حديث عتاب؟ وهي التي لم تعاتبه بكلمة منذ تخلى عنها.

أما عزيزة المغربية، كما يلقبها كل سكان العقار لأصولها المغربية، فقابلت الدعوة بابتسامة عريضة غير أنها كعادتها لم تترك غموضها جانبًا، أصر ثلاثتهن على وجودها بهذه الأمسية فهي على انتمائها لفئة عمرية مختلفة تمامًا، حيث أوشكت آنذاك على بلوغ الستين، إلا أنها امرأة صاحبة كرمات - كما يطلقون عليها-، فهي تجيد كل ما يستهوى أمثالهن من النساء وينجذبن إليه كالمغيبين مثل تفسير الأحلام وقراءة الفنجان وحساب الأبراج وتوافقها، لعلها هي المسؤولة عن تعلق ثلاثتهن بهذه الأمور؛ كان من عادتها، إن التقت إحداهن مصادفة، أن تطيل النظر بثبات بعينيها ثم تهمهم بتلميحات غامضة لا تُفهم إلا بعد حين.

فلم تنس ثلاثتهن كلماتها لبدر إذ قالت حين رأتها ذات مرة:

«قدر الله وما شاء فعل، وإن شاء وهب، وإن شاء منع، وإنا على كلٍ شاكرون حامدون». كانت كلمات تنذر الأخيرة بسوءٍ، فلم يفهمن إلا حين تعثرت قدم بدر وسقطت على الدرج فكسرت قدمها اليمنى، كانت هي أيضًا من بشَّرت وفية بالحمل قبل معرفتها به، وكذلك بشَّرتها بنوع المولود

فقالت لها من دون مناسبة:

— «اسمعي يا وفية، حمل الصبي أصعب من حمل الصبية؛ فتحلي بالصبر ولا تسأمي. أعطاكِ الله من نعمه الكثير ومنع عنكِ كل شر.»

أما سلوى فقد أنذرتها بشقاقٍ بينها وبين حسن قبل أن يخطر الفراق ببال حسن نفسه، فاستوقفت سلوى ذات يوم أمام العقار، وقالت لها:

— «اطلبي من حسن أن يعزف لكِ لحنكِ المفضل فسينكسر العود عما قريب.»

كانت كلمات مبهمة، لكنها تراءت لسلوى نذير شؤم فظلت تبكي كل ليلة دون أن تعرف السبب إلى أن تحققت النبوءة لكن العود لم ينكسر وحده فانكسرت هي على أوتاره.»

عرف حامد هو الآخر بكرمات المغربية، فكان كلما التقاها يتعمد إطالة الحديث معها أملًا في أن تطلعه على بعض مما تخفيه عنه وفية، لكنها كانت دائمًا مقتضبة معه، قليلة الكلام، عدا مرة واحدة ربتت فيها على كتفه وقالت:

— لا تسع وراء ثمرة من شجرة المعرفة المحرمة، لم تُخرج حواء آدم من الجنة بل فعلها هو بنفسه.

أي شيء تقصد! وأي حكمة تلك؟! دفعته كلماتها ليقرأ كثيرًا عن خروج آدم وحواء من الجنة وعن ثمرة التفاح

التي زجت بهما خارج الجنة، لكنها لم تضئ بعقله وميض يُهتدى به، فحين تسيطر علينا الهواجس وتكمم أفواه بصيرتنا الوساوس الشيطانية؛ تُطمس كل شرارة هدى، ووميض فطنة.

أما وليد فلم ينج هو الآخر من تكهناتها الغوغاء، فذات يوم التقته ليلة عرسه مصادفة، فمثّل أمامها كتلميذ يخشى عقاب معلمته دون ذنب اقترفه، قالت له بثقة زعزعت كل ثوابته بجدارة:

— البعض يلقي بذور فلا تزهر، والبعض تأت ثماره بنبت شيطاني لا يُسمن ولا يغني من جوع، ولكل منا نصيب وأفضل الخلق الشاكرين، وليست الثمرات بالبطون المنتفخة فحسب، فقط أغرس غرسك وانتظر وسترى.

نالت كلمات المغربية من ثباته وهدوءه وأسقطته فريسة لحيرةٍ صامتةٍ ظاهرةٍ، لكنها في باطنها صاخبة لا تكف عن الصخب والضجيج.

لم تقف كرامات المغربية بأعتاب التكهنات المستترة بحنايا الكلمات التي تحتاج لبديهةٍ وفطنةٍ لتفسيرها بل كانت لها قدرة علاجية لا بأس بها، كثيرًا ما أصابت التشخيص والعلاج. لم ينس سكان العقار أول عهدهم

بقدرات المغربية الخارقة، ولم تنس وفية وسلوى وبدر أول لقاء لهن بها، كن أطفالًا آنذاك وكانت عزيزة امرأة سمراء فارهة الجاذبية، لها خصلات سوداء حريرية طويلة تخطف البصر.

كثيرة هي الحكايات التي نُسجت حول عزيزة المغربية لكن أحد لم يعرف تفسيرًا لما يحدث منها أو لها الجميع أحسوا أن لهم ثأر معها، فكل منهم يشعر أنها تركته يومًا ما يتخبط بغير هدى ككرة تنس بحجرة مظلمة على إثر بضع كلمات وتكهنات تفوهت بها فتركته فريسة ينهش بها الخوف من المجهول، غير أن الجميع أحبها ووثق بكلماتها، واعتبرها تملك الحاسة السادسة ونوعًا من الحدس لا يهبه المولى عز وجل إلا للأنقياء.

كان للمغربية صديقًا أربعينيًا عتيًا يُدعى عابد، تكاد تكمل به هالة الغرابة والغموض التي تحيط بها. كثيرًا ما خلفت علاقتهما علامات استفهام أكثر تعجبًا وأشد غرابة، فكان يقيم معها وتعيش معه دون أدنى علاقة معلنة تربطهما، فلعله الخادم الخاص بها، رغم أن هيئته لا تؤهله لذلك، أو لعله مساعدها، ثمة سؤال واحد تقرؤه بعين الجميع ممن يرونها تتحرك معه بأريحية وطلاقة لا يشوبهما حرج أو روية.

«أي شيء يجمعك بهذا الرجل؟» سؤال مُلحّ، لكنها أبدًا لم تجب عليه لأنه ببساطة لم يجرؤ أحدٌ على طرحه. هو يصغرها بقرابة العشرين عام لكن هذا الفارق العمري الكبير لم يكن يومًا عائقًا ليظن الناس بهما ما يظنه البشر برجل وامرأة حين يجتمعا فيكن الشيطان ثالثهما، لكن لم يعرف أحدٌ يومًا إن كان حقًا الشيطان ثالثهما.

شملت الدعوة أيضًا سكان الطابق الأرضي أو الخواجات كما عُرفوا بالمنطقة، رغم أنهم مصريون إلا أنهم هاجروا لكندا قبل سنواتٍ طوالٍ لكنهم داوموا على زيارات وجيزة للوطن كل عام أو ربما أكثر. وقد تصادف عودتهم لمصر قبل أيام قليلة، ورُبّ صدفة.

•••

حامد

منذ أن أذن حامد لوفية بالرحيل صار يتآكل كالحديد الصدأ، يكاد ينخر الشك عظامه حتى خال عموده الفقري المهترئ ينهار شيئًا فشيئًا فتسقط من فوقه أحماله، نال منه بُعدها فأيقظ به شتى الخيالات والصور التي قد تحيل اللحظات، لا محالة لموت بطئ. يتخيلها تحدث الآخر وتضحك بدلالٍ يعرف تأثيره جيدًا على الرجال، ثم يراها بين ذراعي الآخر ليضمها إليه ويقربها من شفتيه فيلتقمها دون مقاومة منها، ثم يشفق عليه خياله من قسوة المشاهد والصور فيظلم المشهد تمامًا ويرفض بث المزيد من الصور مشتتًا ذهنه بفكرة أو أخرى حتى يقتله التوتر والألم؛ فيسقط في ما يشبه غفوة وجيزة تبعث به بعض الطاقة التي لا تلبث إلا وتتبدد سريعًا فيمسك طرف الخيط من جديد ملقيًا بكرة الخيط بعيدًا كأنما يريد لخياله أن يطلعه على المزيد.

دق جرس الباب، كانت أمه زينب وفي قبضتها الغليظة يختبئ كف صغير لطفل في الخامسة من عمره، ممسكًا في كفه الآخر بكيس كبير ملئ بالحلوى. يحيى يشبه وفية كثيرًا، ربما لم يأخذ من ملامح حامد شيئًا غير أنه أخذ كثيرًا من طباعه، كانت وفية تتركه كثيرًا لحامد ولخالتها

زينب، لم تكن تعرف غير أنها تتخفف من بعض من أعباء أمومتها الملقاة على كاهل أنوثتها فتخالها حتى تكاد تضمر شأنها شأن العضلة التي لا تستعمل.

يحزنها أن تشعر بأنها صارت أنوثتها عضلة مهددة بالضمور، ستنقرض من أرضها فلا يبق منها غير أمومتها. هي عضلة مُهملة لا رجل يهدهدها أو يداعب أذنيها بكلمات غزل وإن كانت مفتعلة كاذبة، أحيانًا ينبغي للطبيب أن يكذب على الحالة المستعصية فيقول للمريض بفراش الموت أنت بأحسن حال، يومين ويعود كل شيء كما كان، فيموت المريض قبل مرور اليومين. لا يعنيها أن تموت أنوثتها لكن يعنيها أن تعيش قبل أن تموت فلا شيء يعيش إلا إن كان حيًا، قررت وفية أن تُحيي أنوثتها؛ أن تبقى بقيد الأنوثة لا بقيد الأمومة، صارت تردد بسريرتها عبارة واحدة هي شعار ثورتها الأنثوية ذات المطالب عالية السقف وكأنما تريد أن تحفظها عن ظهر قلب» لا شيء يقيد أنوثتي»...»لا شيء يقيد أنوثتي»...» لا شيء يقيد أنوثتي».. تكررها ليلًا ونهارًا، سرًا وجهرًا.

لم تكن طقوس ثورتها تقف عند الشعارات الشفهية والتخفف من أعباء أمومتها بجانب الزيارات الأسبوعية لبدر وسلوى، بل كانت ثورتها سرطان يلتهم كل يوم قطعة

من جسدها فيحيلها لقطعة أنثوية جذابة لا يشوبها طيف أمّ، أو غيمة زوجة قد تجعل صورة الأنثى باهتة.

قفز يحيى فارًا من قبضة جدته زينب؛ ليتعلق بعنق أبيه طابعًا قبلة صغيرة بجبينه. أبعده حامد برفق عنه وأجلسه بجواره ووجهه خالٍ تمامًا من أي تعبيرات لها صلة بالأبوة، لعله قرر هو الآخر أن لا شيء يقيد ذكورته.

دار حوار بين حامد وأمه لم يكن الأول من نوعه، فكثيرًا ما لوثا مسامع الصغير بحوارات مشابهة على شاكلة» ألم تعد وفية بعد؟» «لماذا لم تمنعها من الذهاب؟ لا يعجبني اختلاطها بسلوى، تعرف جيدًا ما يردده الناس عنها، حتى أم حسن، حين أراد حسن الزواج بها أقسمت أنها لو آخر بنت في الكون لن تكن زوجة ابنها تلك السافرة» وأحاديث على شاكلة:

— يجب أن تأمر زوجتك بالاحتشام، لم تعد صغيرة لتخرج مكشوفة الرأس والذراعين، مارس حقك كزوج وافرض سيطرتك عليها، لا تخضع لها هكذا فليست أول ولا آخر النساء. ما هذه الألوان التي تلبسها وفية؟ لم تعد تليق بها وقد صارت أمّ، أنت الرجل يا حامد وهي زوجتك، عليها أن تسير طوعك فتكن رهن إشارتك، ألا تذكر كيف كنت أطيع أبيك في كل صغيرة وكبيرة؟

كان حامد يسمع ما تقول بابتسامة طفل أبله قرر ألا يستوعب عقله شيئًا مما تقوله المعلمة، فظل يرمقها متظاهرًا بقمة الاستيعاب، يهز رأسه أن عُلم وينفّذ، غير أن شيء غريب بداخله كان يضحك بصوتٍ عالٍ لعله يصل حد القهقهة، كان يحسها ضحكة سخرية، لكنه لا يميز هل هي سخرية منه أم منها.

حفظ يحيى - ذو السنوات الخمس- هذه النصائح عن ظهر قلب فقد شب عليها شأنها شأن العبارات المدرسية التي لم ينج أحدنا منها وشكلت وجداننا قبل عقولنا، أخذت هذه العبارات تنتقص من صورة وفية بعينا صغيرها فتضائلت شيئًا فشيء؛ حتى تبددت تمامًا وحلت محلها صورة جديدة لم ير منها في طفولته غير شعرٍ منسدلٍ وذراعين عاريين، وفي صباه زادها أعين رجال تراقبها بشغف، وأعين نساء تغبطها تارةً، وأخرى تلعنها.

هكذا أخذت الأم بعينيها تتلاشى والأنثى تُزهر وتُثمر حتى كادت تلتهم الأم وتطمس معالمها. ورغم هذا بقيت وفية هي ملاذه الوحيد في طفولته، غير أن معالم هذا الملاذ أخذت في التلاشي حتى فقد هويته حين بلغ يحيى أعتاب الشباب، فكانت عوامل التعرية الذكورية قد نالت من صورة الأم فتمزقت واكتملت صورة أخرى لأمه رسمتها

فرشاة حامد، وألوان جدته، ودفتر يوميات الحسناء، هكذا عشقتها أعين طفولته وصباه ولفظتها ولعنتها أعين شبابه.

•••

المغربية

اليوم يوم الأمسية، أطلقن عليها فيما بينهن أمسية المغربية فكن يعرفن جيدًا أنها ستكون محور الأمسية. يعرفن جيدًا أن لكلماتها سحر وجاذبية، سحر الغموض وجاذبية العالم الموازي.

جاء حسن كما توقعن من دون زوجته واعتذر عن حضورها للسبب ذاته الذي توقعنه. لكنه لم يصطحب معه أي من أبناءه، كان وحيدًا عدا من العود الذي رافقه.

حضر وليد لكنه بدا رغم وسامته في غير هيئته المهندمة المعهودة، له ذقن طويل تحمل كل شعرة فيه حكاية ألم وصورة بطن منتفخة تؤرقه، تبعه الخواجات سكان الطابق الأرضي وهم التوأمان خالد وطارق وشقيقتهما الكبرى مرفت، والتي صار اسمها «ميريت» عقب هجرتهم لكندا. هي الأخت الصغرى ذات العشرين، فكانت تصغر شقيقاها بعشر سنواتٍ عجافٍ، كما اسمتهم وفية كنوع من المزاح، فكانت تتعجب كيف لأم بعد مضي فترة طويلة على تجربة الحمل والولادة وتبعاتهما من تربية الأطفال أن تفكر في تكرارها.

بقيت عزيزة المغربية كعادتها أهم الحاضرين ومحط أنظار الجميع بحضورها الطاغي وغرابة أطوارها، كانت

قبل وصولها قد أرسلت خادمتها ببعض أنواع البخور النادرة التي تنفرد بجلبها من المغرب، فقامت الخادمة بتبخرة المكان بمبخرة نحاسية، انطلق منها دخان الصندل والعود بكثافة شديدة يخاله من يتأمله؛ إنه يرسم صورة مارد ضخم يخرج الدخان من جسده من شتى الجوانب.

وحين انتهت الخادمة تركت المبخرة فوق الطاولة وانصرفت لتأتي المغربية. فتلك كانت طقوسها الخاصة قبل زيارة أي مكان لعلها كانت طريقتها في تحية عُمار المكان، أو لعله لطرد الشياطين وبث طاقة إيجابية بالمكان.

هكذا كان سكان البناية جميعهم يهتمون كثيرًا بالطقوس، كل له طقوسه الخاصة وربما الشاذة، فكما كان إطلاق البخور هو طقس من طقوس المغربية، كانت طقوس حسن العزف على العود، وطقوس الخواجات الثرثرة بالإنجليزية التي تشوبها أحيانًا بعض الألفاظ العربية، أما وليد فكان طقسه الأوحد هو الصمت المزمن وتدقيق النظر بكل ما حوله، فلا يرفع بصره عن شيء إلا وقد حفظ ملامحه عن ظهر قلبٍ، ربما أتعبته بعض الشيء الأضواء الخافتة التي غلبت على المكان، فكانت كلها إضاءة باهتة غير مباشرة لا تسمح بإظهار الصورة كاملة.

جلس الجميع وبادر حسن بالعزف على العود فكانت البداية أغنية «أنت عمري، وسيرة الحب لأم كلثوم». كان عزفه عذبًا رقيقًا يُذهب العقل. اختلطت الأنغام برائحة البخور فارتخت الأعصاب وسرى بها نوع من الخدر، وشعر الجميع بأريحيةٍ شديدةٍ واسترخاءٍ وسكونٍ سرمديّ عجيبٍ يطوق المكان.

عقب توقف حسن عن العزف بادر خالد بالحديث فقال:

— ما رأيكم أن نلعب لعبة اعتادنا بكندا أن نلعبها؟

سألته سلوى:

— أي لعبة؟

أجابها:

— نجلس في دائرةٍ، وكل واحد من الموجودين بدوره يقول أول كلمة أو جملة تخطر على باله دون تفكير ونكررها بسرعة، ويقوم أحدنا بتسجيل ما نقوله كتابة، وفي النهاية يقرأ على كل منا مجموعة الجمل التي قالها ونستنبط منها شخصيته.

راقت لهم اللعبة فبدأوها كالآتي:

بدر: لا شيء.

سلوى: سيجارة.

خالد: امرأة.

وفية: أنثى.

المغربية: جواهر.

وليد: بيت العائلة.

وكرروها...

بدر: وحدة.

سلوى: حرية.

خالد: حب.

وفية: مغامرة.

المغربية: برزخ.

وليد: غدًا.

كرروها عدة مراتٍ، وسجلوا ما قالوه جميعًا وعلقوا ضاحكين راسمين شخصية لكل منهم من مفرداته.

كانت عزيزة المغربية، كما توقع ثلاثتهن، محور الأمسية فأخذت تروي حكايات وغيبيات وتتندر ببعض الأمثال المغربية على شاكلة «امدح صاحبك مع الناس ولومو الراس فالراس، العشق المزروب، كله عيوب، وإذا لم تطع أمك فستطيع زوجة أبيك، والمندبة كبيرة والميت فار.

طالبتها بدر - على سبيل المزاح- أن تروي للحاضرين أشهر طرق جلب الحبيب بالمغرب، فقالت المغربية ضاحكة:

— اختاري أولًا الحبيب؛ لأدلك كيف تجلبينه؟
ضحك الجميع، وقال حسن بشغفٍ وربما أراد تغيير مسار الكلام:
— نسمع كثيرًا عن السحر الأسود بالمغرب، هل هذا حقيقي؟
أطرقت مفكرة، وبعد بضع لحظاتٍ من الصمت قالت:
— فعلًا تشتهر المغرب كثيرًا بالسحر حتى أنه صار هناك نوع من السياحة يُسمى سياحة السحر، فيأتي الكثيرون لزيارة المغرب بهذا الغرض.
عادت للصمت لحظاتٍ، وأضافت مبتسمة ابتسامة تأمل:
— أذكر أني في إحدى زياراتي للمغرب قبل سنواتٍ طويلةٍ فوجئت بشاب مظهره غريب، يرتدي عباءة مغربية مزركشة تشبه لحد كبير أزياء خامات اليهود، يعلوها الكثير من العقود الملونة ذات الأحجار النفيسة، اقترب مني الشاب على حين غرة وقال لي:
— هل تسمحين لي أن أحصل منكِ على شيء مقابل المبلغ الذي تحدديه؟
بدا طلبه غاية في الغرابة، فسألته باستنكار:
— أي شيء تقصد؟
فأجاب ببساطة وكأنه أمر مألوف:

— خصلة من شعركِ.
كان مطلبًا عجيبًا لم أستوعبه؛ فكنت صغيرة آنذاك وحين استفسرت عن السبب، أجاب:
— بصراحة أحتاج خصلة شعر امرأة مغربية بمواصفاتكِ؛ لعمل نوع خاص من السحر الأسود.
كان رده أكثر وقاحة من مطلبه، الذي ظنه هو مشروع وظننته أنا همجي. عندها هممت بالنهوض والابتعاد فجذبني من يدي قائلًا:
— من فضلكِ اطلبي ما شئتِ، لكن لا ترفضي فأنا بحاجة ماسّة لها.
فما كان مني إلا أن رمقته بنظرة حادة أبلغ من كلمات وجدتها عاجزة أن تحمل إليه مدى احتقاري ونفوري. بعدها اكتشفت أنه أمر متعارف عليه ومُسعرٌ أيضًا.
بقي وليد صامتًا كأنما لا يجد ما يثرثر به مثلهم، أحس بدوارٍ عجيب وبأسراب من الطيور تدور بحلقة مغلقة أعلى جمجمته التي سيطرت عليها فكرة واحدة» ماذا ساقني لهذا المجلس وهذه الأمسية؟» سؤال لم يجد له غير إجابة واحدة.. هذه الوفية التي لم يكن لها نصيبًا من اسمها.
جذبه بعنوة من بئر أفكاره المظلم لفظًا بدى له رنانًا «الإسقاط النجمي» تلفظت به سلوى ومعه سحابة دخان

كثيفة أضفت جوًا ملائمًا للكلمة. سألت سلوى المغربية:

— هل لديكِ فكرة عن ما يسمونه الإسقاط النجمي؟

سمعت عنه كثيرًا لكني لم أفهمه.

توقفت المغربية واجمة عند السؤال الذي بدا لها غير متوقعًا. شعرت ببرودة كأنما سقط عنها ثوبها على حين غرةٍ فانكشف جسدها للجميع، لم تكن تتوقع أن تخطر هذه الخاطرة بذهن أحدهم. هو عالمها الخاص الذي لا يدرك أحد أنها تعيش فيه وترتبط به أكثر من ارتباطها بعالمهم المحدود، عالم شاركتها فيه شقيقتها الأصغر جواهر قبل أن ترحل عن عالمنا المادي قاصدة هذا العالم الآخر.

أطرقت من دون كلمة باحثة عن طرف الخيط ثم أجابت بصوتٍ بدا للجميع رخيمًا عميقًا كأنما أتى من زمن بعيدٍ مكررة اللفظ ذاته:

— الإسقاط النجمي بالتأكيد.. قليلون من يعرفونه أو يؤمنون به ويجيدونه.. لكن ما حاجتكِ منه؟

ابتسمت سلوى مضيفة:

— لا شيء، فقط يستهويني الأمر فقد شاهدت عنه برنامجًا تلفزيونيًا بأحد القنوات الأجنبية أثناء رحلتي الأخيرة لفرنسا مع الشركة التي أعمل بها، بعدها قرأت رواية» هكذا تكلم زرادشت» للفيلسوف نيتشه وهي

رواية عن الإسقاط النجمي. استهوتني الفكرة جدًا وأردت أن أعرف عنها المزيد.

رمقتها المغربية بتحدٍ.. وقالت:

— وماذا فهمتِ عن الإسقاط؟

أجابتها سلوى بتلقائية:

— فهمت أنه شيء يشبه الحلم، له تدريبات ذهنية عالية ربما تشبه اليوجا، يستطيع أي شخص التدرب عليها وممارستها.

صمتت سلوى برهة كأنما لتذكر المزيد من التفاصيل، ثم شعرت بالعجز فعادت تسأل:

— قلتِ أن قليلون من يجيدونه، هل أنتِ من بين هؤلاء؟

فهمت المغربية مغزى السؤال وأجابت بشيء من القوة والتحدي:

— جميعنا كبشر نخلق بطاقات وقدرات خارقة، لكن إهمالنا لها ولتنميتها يجعلها تضمر وتتلاشى فنصير بشرًا شأننا شأن الكثيرين. أنا من النساء المغاربة القلائل اللائي يعرفن الإسقاط النجمي، فجرت العادة ألّا يطلعون النساء على أسرار كونية كهذه، يظنون المرأة هوجاء لا تتحكم بأهوائها فلا يمدونها بقوة من شأنها امتلاك

المعرفة، هو في الحقيقة ميراث ورثته عن جدتي لأمي، يقولون أنه بكل جيل من العائلة يظهر فرد واحد له هذه الموهبة، أو ربما الهبة التي عليه اكتشافها وتنميتها، استشعرت وجود هذه المهارة بي فلجأت لساحر يهودي بالدار البيضاء اشتهر بالإسقاط النجمي، وكان هو من أتم تدريبي على ممارساته فعلمني علم الشاكرات السبع وعرفني بالعين البرزخية، وعلمني كيفية الوصول لمرحلة عالية من الروحانيات وأشياء أخرى كثيرة.

انتبه الجميع لإيمانها وثقتها الشديدة ببراعتها في هذا الشيء، الذي وإن بدا مجهولًا لهم، لكنه لم ينتقص هذا من سحره وجاذبيته للحضور جميعًا. وفجأة أقحم كل منهم نفسه في الحوار مطالبين بتجربة أو إثبات عملي من باب الفضول والرغبة في اقتحام المجهول.

ترددت المغربية قليلًا، ثم قالت:

— حسنًا ولكن ما السبب؟ أقصد لماذا الإسقاط بالتحديد؟

كان الكلام موجهًا لسلوى؛ فهي من فتحت باب الحوار غير أنها اكتفت بابتسامة بدت بلا معنى.

أردفت المغربية متسائلة مرة أخرى:

— هل تعرفون معنى الإسقاط ومغزاه؟

لم يأتها رد، وكانت على يقين بهذا فواصلت الكلام دون تردد:

— الإسقاط هو غفوة تشبه الحلم، أو بالأحرى الموت.

كان لكلمة الموت الأثر الأكبر عليهم، وقبل أن يعلق أحدهم أضافت:

— ليس العقل وحده السبيل الوحيد للمعرفة، ثمة أشياء أخرى تأتينا بالمعرفة، أشياء لها قوتها الخاصة، قوة تكمن في الخيال، من يسعى لإدراك المعرفة بالعقل وحده سيصل لمعرفة منتقصة ذات بُعد واحد فلا يرى الأوجه الأخرى اللا منطقية للوجود.

علّق وليد متسائلًا:

— أي أشياء غير العقل تقصدين؟

أجابته بصوت رزين فيه من الحكمة ما يدعم قولها:

— أقصد الحدس.. الفطرة.. الخيال، كلها أشياء تبلغ أوج قوتها بالأحلام المألوفة لنا بالمعنى الدارج أو بالإسقاط.

تساءل حسن:

— وما شرط الوصول لتلك للمعرفة؟ هل مجرد حلم أو تجربة اسقاط كفيلة للوصول للمعرفة؟

ابتسمت المغربية وأجابت بحذرٍ:

— بقدر مرات موتك تبلغ المعرفة، لكل موتة غنيمة، فبقدر ما تخرج عن حدود العقل وتتسلح بالخيال تكن معرفتك وهذا تحديدًا ما حدث لي.

بقيت لحظات واجمة تفكر.

رغم أن المغربية عاشت كثيرًا فهي في العقد السادس، إلا أنها ماتت أكثر فهي في أرض الموت ربما بلغت العقد العشرين.

صاحت وفية بطفولة:

— لا أفهم شيئًا مما قلت، نريد تجربة فعلية. أنا مستعدة للتطوع لمساعدتكِ في إجراء التجربة بشرط أن تخبريني أولًا ماذا سيحدث لي؟

تباينت ردود الأفعال بين الحضور ما بين المؤيد والمعارض، وحدثت ضجة وصخب البعض يحاول إثناء وفية عن الفكرة والبعض الآخر يعلن رغبته في التجربة، توقف الصخب بإشارةٍ من عزيزة حيث قالت جملة عابرة لم يفهمها غالبيتهم:

— المياه الساخنة جمدت البيض وألانت الجزر.

لم يلقون بالًا لما قالت، سحرتهم فكرة غيبية مجنونة تعدهم بالكثير.

استطردت سلوى قائلة:

— ثمة أشياء كثيرة بداخل كل منا لا تفسير لها. هل يفيد الإسقاط النجمي بتفسيرها؟

صمتت لحظة وأضافت:

— أقصد سمعت أنه زيارة لعوالم أخرى بغرض المعرفة بأمور بعينها. هل هذا صحيح؟

لم تجب عزيزة إجابة مباشرة، فقط تمتمت بكلمات غامضة فقالت:

— أحيانًا نبحث عن ضالتنا فإن وجدناها ضللنا الطريق إلى أنفسنا، هكذا.. فَـ رب ضارة نافعة ورب ضالة تُضل.

ارتسمت علامات الحيرة بوجه وفية التي سألت:

— ما معنى ما قلت؟ لم أفهم مقصدكِ.

أجابتها عزيزة بثباتٍ، وعينيها مركزتان ببؤرة واحدة معلقة بالهواء:

— أعنى إن ما يحدث لغيركِ ليس بالضرورة أن يحدث لكِ، وإن شغفنا بالأشياء قد لا يحمل إلينا بطياته خيرًا كثيرًا، على أية حال أستطيع إجراء التجربة بنفسي أمامكم لكن قبل أن أبدأ ثمة شيء يجب عليكم تنفيذه.

علت أصوات الجميع.. تسكنها ريبة لم تخطئها فطنتها، متسائلة عن كينونة هذا الشئ فأجابت:

— أولًا الإسقاط المقصود به خروج الوعي عن الجسد، أو خروج الجسد الأثيري وليست الروح. ومن مخاطره خاصة بالنسبة لمن لا خبرة له به، أن الجسد الأثيري قد يضل طريق عودته لإطار وقالب ماديته الممثل في الجسد وربما يألف العالم الأخر فلا يرغب بالعودة.

صمتت لحظات تبتلع ريقها وتتبادل النظرات الثاقبة مع الحضور، نظرات ربما تلق الرعب في قلوبهم فيفر من يفر ولا يبق منهم غير من هو جدير بخوض التجربة، وكل من يسعى جسده الأثيري الجائع لوجبة دسمة، فقانون كون الإسقاط النجمي هو البقاء لأكثرهم حبًا للمغامرة فقد حكم على جسده الأثيري بالموت، وعصرنا هذا هو عصر الأجساد الأثيرية لا المادية، هو حلمها منذ كانت مراهقة بجديلتين، حلم تحرير الجسد الأثيري ما دامت أجسادنا المادية عاجزة عن التحرر، فليكن لعالمنا الأثيري قوانين أكثر عدالة لا تعرف لونًا أونوعًا.

عادت المغربية تسترسل في الكلام، فقالت بلهجةٍ شبه آمرةٍ:

— ستتخيرون أحدكم ليحدد سؤالًا أو أمرًا يود الاستفسار عنه. سيساعد هذا على ملء عقلي الباطن

بهذا الأمر أيًا كان فيسيطر على اللاوعي ويوجهني إليه أثناء الحلم، فالإسقاط ليس أمرًا عشوائيًا بل له قواعده ومآربه، فالجسد الأثيري يشبه مخلوقًا جائعًا يسكن أجسادنا ويبقى ساكنًا مستكينًا مهما طالت هذه الاستكانة إلى أن يوحى إليه العقل الباطن ليشعر بالجوع، فكما يشعر الجسد المادي بالجوع كذلك يفعل الجسد الأثيري غير أن الأول يشبعه الطعام والثاني المعرفة؟ هو إذًا نوع آخر من الجوع، جوع للمعرفة ينهش أمعائه ويعتصرها فينطلق باحثًا عن وجبة دسمة، هكذا لا تنطلق أجسادنا الأثيرية من الجسد المادي إلا سعيًا وراء شيئًا أو معلومة ما.

يبدو أن نظراتها لم تكن غير إشارات وذبذبات شيطانية خاطبت أذهان ضعيفي الإيمان بحقوق الجسد الأثيري فقرر بعض الحضور الانسحاب من اللعبة، إما عن خوف أو عدم إيمان بالفكرة التي اعتبرها البعض كفر وسحر، والبعض الآخر خرافات، فاستأذنوا الرحيل بمبررات تباينت واختلفت رغم اتفاقها في شيء واحد وهو الخوف من كل ما هو غيبي غامض لا يعرف له العقل مبررات. هكذا هم بعض البشر يكتفون بمعرفة منتقصة.

لم يتبق بالجلسة سوى النساء الثلاث، سلوى، وفية، بدر،

ووليد وحسن علاوة على المغربية. كان بكل منهم لا وعي يبحث عن وعي، جوع يبحث عن شبع، شيء يتوق لمعرفة ما، جسد أثيري شره صعب كبح زمام جوعه.

أخذت المغربية تفحص وجوههم لعلها محاولة ثانية من جانبها لتصنيف الحضور تصنيفًا من نوع آخر. بحثت عن الأكثر جوعًا والأقل صبرًا فهو الأحق بخوض التجربة. لعل وفية هي الأكثر جوعًا. تتوق كل قطعة بجسدها لشيء يشبعها، يسد جوع مئات الأسئلة التي تنهش أنوثتها. أحست بجسدها وقد تحول لذئب شره يبحث عن شاه، أو فريسة ولا يعبأ براعي قد يأخذ حياته بطلقة واحدة.

سأل حسن صاحب الجوع الأقل ضراوة، والأكثر تعقلًا:

— وأين يذهب الجسد الأثيري؟ أقصد هل يذهب لمكان أرضي أم...

قاطعته المغربية متمتمة:

— للجسد الأثيري مسارات أخرى خارج كرتنا الأرضية، فلحظة خروجه عن الجسد يتحرر من صفات الجسد المادية فيخرج عن قوانين الأرض والطبيعة ويدخل عالم آخر موازي هو للبعد الأثيري.

تدخل وليد بالحوار متسائلًا :

— وهل نلتقي بمخلوقات أخرى مثلنا، أقصد تشبهنا

أم أنها كائنات مختلفة؟

أجابته المغربية:

— قد تلتقي من هم مثلك، يقومون برحلة في البعد الأثيري وقد تلتقي بالأموات.

سألها بلهفة:

— وهل يتحدثون إلينا؟

أجابت عابسة:

— كما ينجذب الطيبون للطيبين على وجه الأرض، فكذلك تنجذب الأرواح أو الأجساد الأثيرية لأشباهها، ويفضل عدم الاختلاط بالآخرين هناك لمن لا خبرة له. كما يجب التأهب للتصرف بسرعة حيال أي خطر.

صمتت لحظة واستطردت قائلة:

— لأسهّل عليكم الأمر، هي تجربة تشبه ما يحدث بالحلم فيترك جسدنا الأثيري الجسد المادي ويصعد لعوالم أخرى موازية ويعيش تجارب قد نخرج منها بمعرفة غيبية ما، وقد نلتقي أناس سرعان ما يتكرر لقائنا بهم في العالم المادي بعد انتهاء الحلم فيكون الحلم بمثابة إشارة أو نبوءة باللقاء.

سألتها وفية بلهفة لم تغفلها أعين الحضور وأولهم المغربية:

— هل تحدثينا عن أكثر رحلاتكِ الأثيرية التي يتوجها المتعة والإثارة؟

كسى الوجوم ملامح المغربية؛ لعل السؤال مس وترًا بقلبها بعنف وشراسة فأوشك أن ينقطع. شرد بصرها حتى بدا أنه قد ضل طريق العودة إليها، ثم قالت:

— أهم رحلة أثيرية لي تلك التي قمت بها منذ قرابة الثلاثين عام والتي التقيت فيها بشقيقتي الأصغر جواهر.

كان كلامها له دلالة واحدة وهي أن شقيقتها جواهر في تعداد الأموات.

فتعجلت وفية بالسؤال قائلة:

— كيف ماتت شقيقتكِ بهذا السن الصغير؟

ابتسمت المغربية ابتسامة ساخرة وتمتمت:

— ليس للموت عمر.

عادت وفية تسأل:

— كيف ماتت إذًا؟

جالت المغربية ببصرها في الغرفة وسط وجوه الحاضرين المترقبة بشغفٍ، ثم استطردت بمرارة شديدة:

— كانت جواهر جميلة بعينيها الكحيلة وشعرها الأسود الطويل المسترسل. وكانت لها القدرة ذاتها، أقصد

الإسقاط النجمي؛ ولهذا السبب كنت أنا وهي من أشهر فتيات حي المعاريف بكازا بلانكا، لكننا لم نكن نتكسب من هذه الموهبة التي يحسدنا عليها الكثيرين وينقم علينا الأكثر، فقد اعتبرنا الكهنة والسحرة بالمنطقة منافسًا ليس بالهين، فعلاوة على صفاؤنا الذهني الشديد النادر والذي يسمح لنا بتكرار الرحلات الأثيرية في فترات متقاربة، وهو الأمر الأصعب كنا نعود بغنيمة لا بأس بها دون أن نفقد الكثير منها بمرحلة ما بين الإفاقة وعودة الجسد الأثيري للتوحد بالجسد المادي.

صمتت لحظة تلملم ذيل ثوبها المتهدل وكأنما تشتت بهذا بعض من مشاعر، ألم كادت أن توقفها عن الاسترسال بالقول! غير أنها استعادة رباطة جأشها وأردفت، قائلة:

— كانت جواهر تفوقني قدرة والمعية وذكاء حتى كانوا يعدونها ظاهرة قلما تكررت، فهي تعرف الكثير وترى ما لا يراه أي كيان أثيري غيرها، وكثيرًا ما تحدت السحرة فكانت الأجدر والأسبق في امتلاك المعرفة. هكذا كانت جواهر كثيرة التردد على العالم الأثيري إلى أن كان يوم...

صمتت المغربية لحظة ثم عادت لتسترسل فقالت:

— في هذا اليوم عهدتها مرتبكة كثيرة الشرود. ظللت

أرقبها وأسترق النظر إليها بين الحين والآخر محاولة أن أغلف شغفي وقلقي بغلاف من عدم اكتراث واللامبالاة، فكانت تكره أكثر ما تكره ملاحقة عيون الآخرين لها. وعلى حين غرة رأيتها تفتح زجاج النافذة على مصرعية وبقيت شاردة أمامه لبعض الوقت ربما تجاوز الربع ساعة بدقائق، وفي حين غفلة مني قفزت منها لتسقط بعالم آخر، عالم الموتى.

تهدجت أنفاس النساء الثلاث متفاعلين مع ما ترويه المغربية، على عكس الرجلين فقد بدت على وجهيهما ملامح عجرفة من يستمع لقصة خيالية فلا يصدق حرفًا منها.

عادت المغربية للاسترسال فقالت:

— لم يدهشني شيء بهذا الحادث قدر الابتسامة العريضة التي ارتسمت على صفحة وجهها الملطخة بالدماء جراء السقوط. كل شيء كان بلون الدم عدا ابتسامتها كانت وردية صافية لا ألم فيها.

لحظات ساكنة مرت من جديد لاذ فيها الجميع بالصمت حتى علق وليد قائلًا:

— هذا جنون، هل كانت شقيقتكِ تمارس أفعالًا جنونية أخرى؟ أثق بهذا.

سرحت المغربية بعينيها بعيدًا وأومأت برأسها أن نعم وقالت:

— هذا حقيقي، كانت تمارس الجنون بصور مختلفة، لكنها لم تكن مجنونة.

ابتلعت ريقها وأضافت:

— لا أستطع أن أمحو من ذاكرتي أغرب ممارسة جنونية لها. كنا نتسامر بغرفة الجلوس وإذا بها تنهض دون مقدمات، وتلتقط المقص فتقص به الثلث السفلي من ستائر الغرفة، ثم تقسم النسيج لرقع صغيرة فتكتب عليهم بالحبر كلماتًا غير مفهومة باللغة السريانية مثل أوريثو أي روضة حديقة، أيلونا بمعنى شجرة خضراء، أورحوبو أي أرض المحبة، أيل شلاما أي إله السلام. وتوزع الرقع بغرف البيت وسط حالة من الذهول انتابتني فألجمتني وشلت حركتي فلم أحرك ساكنًا، فقط بقيت مشدوهة لا أنبس..

وحين سألتها عن السر فيما بعد، ربما بعد مرور أيام على هذا الحدث أجابت ببصرٍ شاردٍ وعينين لامعتين بعبارة أكثر غموضًا فقالت:

— «هي تعويذة سحرية أكررها ليجتمع شمل دوروثي سوثورث وعشيقها وأفرق كلمات التعويذة كما تفرق

العاشقان حتى إذا اجتمعت الكلمات تزول اللعنة ويفك سحر الشجرة».

برقت عينا وليد وبدا على عكس ما كان عليه مصدقًا لما قالت، فسألها بشغف:

— وهل تمكنت من تفسير ما كانت تعنيه جواهر؟

أجابته ببصرٍ زائغٍ فقالت:

— لم يمض وقت طويل حتى وقعت تحت يدي مصادفة أحد الصحف، قرأت بها قصة حقيقية عجيبة حدثت بانجلترا تروي حكاية دوروثي سوثورث ابنة جون سوثورث، أحد رجال حاشية الملكة إليزابيث الأولى وعشيقها الذي رفض أبوها تزويجها منه وقُتل الشاب بجوار الشجرة التي كانا يلتقيان عندها، وبعد سنوات قُتلت هي الأخرى عند الشجرة ذاتها ودُفنت هناك. ومنذ هذا الوقت صارت الشجرة مسحورة تختفي وتتحول أوراقها لأوراق مضيئة ويخرج منها عشاق يتعانقون.

عاد وليد يسأل باهتمام:

— وما علاقة جواهر بهذه القصة؟

أجابته:

— لا أعرف تحديدًا، لكن أغلب الظن أنها عرفت شيئًا

عن هذه القصة بعالمها الأثيري.

صمتت المغربية لحظة؛ ربما تسترجع المزيد من ذكريات جواهر واستطردت قائلة:

— كما أذكر أنها مرة أخرى هبت مذعورة من نومها متجهة إلى الحمام لتتخلص من زجاجات الكلور جميعها فتسكب محتوياتها في البالوعة فلم تهدأ إلا بعدما فرغت من مهمتها العجيبة، لم يستوعب أحدٌ شيئًا مما يحدث، وظل الجميع في حيرة من أمرها حتى وقع حادث أنار بصيرتنا وفسر ما فعلته جواهر.

سألتها وفية وسلوى بصوت واحد:

— ماذا حدث؟

أجابت المغربية بأسى، لكنه هذا النوع من الأسى الذي نستشعره لذكرى بعيدة انطفأ حزننا عليها بمرور الزمن، فصارت لا تشعل بنا عدا ثقاب واهن الشعلة، فقالت:

— كانت جدتي لأمي تعيش معنا بالبيت، وكانت مصابة بمرض الزهايمر الذي أنساها كل شيء عدا عشقها للاستحمام فصاحت ذات يوم بعد ما صدر من جواهر بعدة أسابيع، قاصدة حوض الاستحمام فملأته بالماء وأضافت إليه كثير من الكلور ونزلت بجسمها فيه وكانت بالطبع نهايتها.

صمتت لحظات واستطردت قائلة:

— هكذا كانت جواهر، لغزًا استحال على الجميع فك رموزه.

التقطت وفية خيط الحوار كأنما تدعو المغربية للغوص أكثر بعالم جواهر، فقالت:

— وبدأتِ تذهبين للعالم الأثيري سعيًا ورائها، أليس كذلك؟

— بل على النقيض

قالتها في عجالة، وأضافت بحزمٍ:

— بل هي التي كانت تسعى إليّ فتدعوني إليها.

صاحت بدر مشدوهة:

— تدعوكِ إليها!

أومأت المغربية برأسها أن نعم، وعادت لتسترسل في الحوار متجاهلة تعليق بدر، فقالت:

— كانت تدعوني في فترات متقاربة حتى كاد هذا أن يتكرر يوميًا. فكنت أسمع صوتها مخيفًا مهيبًا يهمس بأذني بعبارة واحدة «تتنفس الأرض فنولد ثم تسترجع أنفاسها فنموت» فكانت تعرف أنني أقدس هذه العبارة للعظيم جبران خليل جبران. لا أعرف لمَ هذه العبارة تحديدًا، لكنها كانت كفيلة دائمًا لإشعال فتيل حماستي

فأطلق سراح جسدي الأثيري بشيء من التدريبات الروحانية العالية التي صرت أألفها جيدًا ليتبعها صاغيًا مستكينًا كالطفل الصغير. كان لجواهر دورًا لا بأس به في تنمية مهارتي الأثيرية فتعلمت منها ما انتقص في وفاض بها حتى صار لا فرق بيننا عدا أنها تحررت من ماديتها وما زلت أنا أعيش قيدها.

سألها وليد بصوت فيه نغمة شك واستعلاء:

— وفيما كانت تريدكِ؟

لعل المغربية أدركت منذ الوهلة الأولى أنه من غير المؤمنين بالغيبيات، أو المؤهلين لامتلاك المعرفة الغيبية؛ لهذا لم تغضبها تلميحاته السافرة والهمزات واللمزات المصاحبة لها.

لم يرق لوفية ما قاله وليد، فسألت وكأنما تعتذر للمغربية:

— هل كانت تدعوكِ لتطلعكِ على شيء؟

— لعله كذلك.

قالتها عزيزة وابتسمت ابتسامة هي أقرب للعبوس من الابتسام، وقالت:

— كانت أول رحلة أثيرية لي بصحبة جواهر، هي لأكثر بشاعة ورعبًا.

قاطعتها سلوى متسائلة:

— كيف؟

— فقد دعتني لتفسر لي سرًا طالما استعصى عليَّ فهمه، فلم أستوعب يومًا كيف يتسنى لفتاة كجواهر أن تنهي حياتها بهذه الطريقة. فرغم ما عندي من هبة تمكنني من فهمِ ما لا يفهمه البشر فإنني وقفت عاجزة؛ ربما لشدة صدمتي آنذاك فلم يكن فقداني لجواهر بالأمر الهين بل كان من أعظم الأمور وأكثَرها ضراوة.

سألتها وفية :

— وماذا قالت لكِ إذًا؟

أجابت المغربية بمرارة فائقة:

— قالت أن ترددها بكثرة على العالم الأثيري جعل منها مخلوقًا أثيريًا يكره ماديته فلماذا إذن تتكبد هذه المشقة والعناء اليومي من أجل حفنة دقائق هزيلة تقضيها بالعالم الأثيري فلا تشبع أو تكتفي منه؟!

صمتت لحظة ثم أردفت قائلة:

— ولم تنبس جواهر بعدها لحظات إلى أن ابتسمت بشرود مقترنًا بمسحة من الجنون، هذا الجنون المخيف المفزع الذي يحيل صاحبه بأعين البشر لعفريت أو جان. تحدثت جواهر فقالت «جان جينيه» وكررتها ثلاث ولم تزد عليها شيئًا.

استرعى الاسم انتباه وفية فسألت:

— جان جينيه الكاتب الفرنسي؟ ولماذا هو تحديدًا؟

هزت المغربية رأسها أن نعم، وأضافت:

— كان جان جينيه يعشق المغرب حتى إنه أوصى قبل وفاته أن يُدفن بالمغرب، وبالفعل تم نقله من باريس إلى المغرب ودُفن هناك في بلدة العرايش المغربية.

استطردت وفية قائلة:

— تعنين أنها كانت مهتمة به لهذا السبب؟

أجابتها المغربية بابتسامة فيها كثير من المرارة فقالت:

— الأهم من هذا أن جان جينيه توفى في الخامس عشر من إبريل عام 1986.

وقفزت جواهر من النافذة في الرابع عشر من إبريل من العام ذاته أي قبل وفاته بيوم واحد.

سألتها وفية:

— ماذا تقصدين؟

أجابت المغربية:

— كما ترين ثمة علاقة قوية بين وفاته وطلبه أن يُدفن بالمغرب ووفاتها. هذا ما عرفته قبلها، فجائني هاتف داخلي بوفاتها ووفاته لكننا أحيانًا نصم أذاننا عن إنذارات الخطر إذا كانت تخص القريبين لنا.

التزمت المغربية الصمت لفترةٍ، ثم قررت التقاط خيط الإسقاط النجمي مجددًا، تنقلت بعينيها بين الحضور كأنما تتخير أحدهم للبدء به إلى أن استقرت عينيها على ملامح وجه وفية فاستوقفتها كما تقف كرة الروليت بعد دورات عدة في أحد المواضع من دون مبرر أو تفسير عدا أن الدورة انتهت لديه.

سألت المغربية وفية بعينٍ ثاقبة كأنما أوشكت أن تنفذ بداخلها من ثقب لا يراه غيرها، فقالت:

— تبدين ملهوفة لمعرفة شيئًا ما، فما هو الأمر الذي يشغلكِ؟

بقيت وفية مشدوهة ترتب بلهفة أفكارها المبعثرة فلا تكاد تدرك فكرة إلا وتترائى لها الأخرى فتعود بها لنقطة البداية، تعلقت بها أعين الحاضرين فزادت من ارتباكها وحيرتها وهربت منها الفكرة تلو الأخرى إلى أن استدرجتها المغربية بحنكة محذرةٍ:

— تبدين غير مستعدة فلنبدأ بغيركِ.

أتتها الكلمة كصفعة أخرجتها من ترددها، فقالت من دون أدنى تردد:

— حامد، أريد أن أعرف ما يدور بنفس حامد، لم أفهمه يومًا، أحيانًا أشعر أن حبه لي هو مجرد قناع زائف

فما أكاد أتبين ما وراءه إلا ويعيد تثبيته بإحكام. بعض الأوقات أحسه يترقب موتي ويتمناه. الجميع يظنونه ملاكًا منزلًا من السماء لكني لا أؤمن بنزول الملائكة إلى لأرض، هو إنسي وإنسي من هؤلاء الذين قد تراهم مرة واحدة فتدرك أنك أبدًا لن تلق أشباههم فهم استثناء يصعب أن يتكرر.

استمعت لها المغربية باهتمامٍ دون أن تنبس وكأنما ترسم بعقلها خطة سيرها بالمدار الأثيري حينما تتحرر من الجسد.

لحظات وجيزة من الصمت مرت بهم فتراءت لهم ساعاتٍ طويلة ظلت أعينهم معلقة بشفتين مغربيتين هما أشبه بشفاة غجرية غليظة، بعدها تمتمت المغربية بأشياء غير مسموعة أو مفهومة، ثم نهضت من جلستها بخفة متناهية، وكست ملامحها جدية شديدة كمن تُقبل على مهمة محددة، وقبل أن تبدأ طقوسها قالت محذرة:

— لكي تنجح التجربة؛ غير مسموح أثناء قيامي بالإسقاط إصدار أي صوت أو ضوضاء أو حتى التفوه بحرف وإلا اضطرب الجسد الأثيري وعاد أدراجه.

غامت سماؤها وكادت أن تمطر فأمسكت، فهكذا هي طقوس عملية الإسقاط تتنقل بين النقيض والنقيض وتزج

بممارسها ليسقط ببطء مميت من قمة الجبل لقاعه؛ فقط ليعود للقمة في مرحلة لاحقة ولكن بقوة وسرعة تنافس سرعتي الصوت والضوء. طلبت من بدر أن تغلق الستائر وتخف من حدة الأضواء فتكتفي بمصباح خافت غير مباشر. استعانت بقطعتين من القطن دستهما بأذنيها لتنعزل تمامًا عن الضوضاء، أزاحت عن رأسها طرحة كانت تغطي مساحة لا بأس بها من شعرها الأملس الذي كساه الشيب معلنًا إقبالها على أرزل العمر، أضفى على التجربة لون الشيب برأسها ولون جلبابها الأسود القاتم علاوة على ملامحها الحادة شيئًا من الرهبة، لكي تبلغ أعلى درجات الاسترخاء عليها بالتحرر من كل ما يقيدها ويشعرها بجسدها المادي. خلعت حذائها وسترتها فما أبقت من ثياب تكسو جسدها غير القليل الذي يستر من الأنظار لا من قسوة الأجواء، استلقت على ظهرها في أريحية شديدة فوق أريكة بيضاء ربما لما يحدثه اللون الأبيض من راحة نفسية، كانت تحتفظ بيديها بكرة مطاطية من هذا النوع الذي يستخدم لارخاء الأعصاب والحد من التوتر أخذت تعبث بها فتضغطها بين أصابعها بصورة منتظمة وقوة متدرجة من الأعلى للأدنى، دست بين شفتيها شيئًا أخذت تتشدق به بقوة ترائت لهم كعلكة أو ما يشبهها ثم أخذ

فكيها في التراخي شيئًا فشيئًا إلى أن سكنا وسكن كل ما بها، هكذا تدرجت كل قطعة بجسدها من أعلى درجات الحركة لأدناها وأبطئها.

ظلوا مشدوهين يراقبون بحذرٍ يشوبه خوف صاحبه أحيانًا رجفة وربما جزء من صرخة مكتومة غافلت أحدهم وخرجت للنور.

رأوا صدرها يتهدج بشدة فيعلو ويهبط بسرعة أخذت تقل تدريجيًا بتركيز شديد منها، حتى انتظم التنفس وصار بوتيرة واحدة هادئة تكاد تشبه أنفاس النائم حتى كادت تختفي لتشبه أنفاس ما قبل الموت ثم أنفاس الموت، رأوها تمارس تمارينًا أخرى من شأنها تصفية الذهن وإفراغ العقل تمامًا من الأفكار وتخزين الطاقة. مارست عملية أخرى أظهرت مهارة فائقة في شدٍ وإرخاءٍ العضلات ومنها إلى الاسترخاء التام.

كلها طقوس بدت دون جدال، متمرسة فيها لم تخطئ أي منها أو تفسده، كل شيء يسير بأريحية شديدة وتناغم عجيب فكان لحنًا لم تنشذ أو تشذ أي من نغماته، كلها حركات مدروسة بحرفية وإتقان، خبأ كل شيء وخفت وسكنت بلا حراكٍ وبدأت التجربة.

ظلوا يرقبونها بعين الحذر ذاتها ينتظرون المجهول،

تراءت لهم كالغارقة في سباتٍ عميقٍ وكأنما نامت قبل ساعات طويلة لا بضع دقائق، تعلقت أعينهم بشغف، لا يمكن إغفاله بكل خط من خطوط وتجاعيد وجهها وكأنما سيفصحون عن بعض تفاصيل رحلتها الأثيرية، حتمًا لم تنبس التجاعيد ولم تتفوه الخطوط بشيء فقط جفنيها كانا يرتعشان أحيانًا وكذلك شفتاها الغليظتان ثم لا يلبسا ويسكنا من جديد مبددين أمل ولد لتوه وسرعان ما مات.

مرت فترة لا بأس بها، لم يتبينوا قدرها بالدقائق والساعات وكأنما لها وحدة قياس مختلفة للزمن، كل ما تبينوه آنذاك هو ضجيج همجي داخلي بالكاد يتحكمون فيه ويكبحون طيشه ممسكين بزمامه، أتراها الكيانات الأثيرية القابعة بداخل كل منهم تسعى للتحرر والانطلاق هي الأخرى!

بدأت المغربية تصدر حركات خفيفة زادت شيئا فشيئًا إلى أن استعادت وعيها بصورة كاملة.. بقيت فترة مستلقية بعدها نهضت واعتدلت في جلستها وألقت نظرة على ساعة معلقة على الجدار المقابل فقالت بصوت ضعيف، وهي تمسح جبينها بكف يدها وقد سرت به رعدة خفيفة اهتز لها جسدها ثم سكن.. مر ما يقرب من خمس عشرة دقيقة، فترة لا بأس بها فلقد اعتادت المكوث هناك

فترات أطول.

الجميع في لهفةٍ لسماع شيئًا عن رحلتها الأثيرية. أتتها بدر بكوب ماء وكوب آخر به عصير عنب مثلج، شربت الماء وبعض العصير، وبقيت ساكنة صامتة بعض الوقت، وقبل أن يسألونها عن شيء، قالت وهي تكمش شعرها الأبيض لتخفيه بحجابها الأسود:

— كل منكم عندي رؤية تخصه لكني لست في حِل الآن لأتي بما عندي كله. سأتي فقط ببعض الإيماءات لعلها تفي بالغرض.

لنبدأ بوفية.. ثمة خيط رفيع سيظل معقوصًا بعنق ثلاثتكما حامد وأنتِ ويحيى فإن جذبه حامد خنقكِ الخيط وكانت نهايتكِ، وإن فعلها يحيى حُلت عقدة الخيط وأطلق سراحكِ منه فنجا يحيى هو الآخر، وأولًا وأخيرًا سيكون خلاصك في دفتر.

تعلق بصر وفية بوجه المغربية وبشفتيها تحديدًا، لم تفهم مغزى الكلام لكنها أحسته أنه نذيرٌ بالخطر، وأي دفتر تقصد؟ هل تُراها تقصد دفتر المأذون أي الطلاق؟

لم تنتظر المغربية تعليقًا من وفية ونقلت بصرها فورًا إلى بدر فقالت:

— لن يبق الحال هو الحال، لكن اسمعي صوت

الطبيعة ففيه صلاح الحال.

وجاء دور سلوى فحدقتها بنظرة حادة وقالت:

— لا تعولي كثيرًا على الماضي؛ فالبكاء على الفائت نقصانُ عقلٍ.

أما وليد فقالت له بابتسامة عذبة رائقة:

— ليس كل الأبناء أبناء البطون. ثمة أبناء آخرين بانتظارك فابتهج.

انتظر حسن دوره بفروغ صبرٍ، فقالت له:

— أراك تُصرّ على عزف لحن لا يناسب آلة العود فاحذر أن تتمزق الأوتار، وابق على لحنك القديم فهو الأنسب.

وبعد أن فرغت المغربية من حديثها للجميع همت بالرحيل، فقالت متعللة:

— أشعر ببعض التعب، اسمحوا لي أن أرحل الآن ينبغي لي أن أغتسل بالماء الدافئ وأستريح لبعض الوقت على أن نحدد موعدًا آخرًا لنكمل فيه ما بدأناه.

قالتها ومضت تلاحقها أعينهم في خيبة أمل لم تخطئها عيناها غير أنها لم تشفع لهم عندها.

مضت عزيزة وما زال ذهنها مزدحم بتفاصيل زيارتها الأثيرية، التي آثرت الاحتفاظ بها لبعض الوقت، ستفكر

أولًا فيما رأت، تستطيع أن تفهم لأنها مؤهلة لهذا، غير مسموح لها البوح بكل ما تراه بل بالبعض فقط. هو قانون عالمها الأثيري، يفرض عليها قواعده وتقبل بها دون جدال أو تفكير.

لم يحاول أحد استبقائها عن يأسٍ ويقينٍ بعدم الاستجابة من طرفها لا عن رضا، فرحلت وسط وجوم الجميع، حاولت سلوى كسر الجمود الذي ساد المكان عقب التجربة الشيطانية التي انتهت لتوها فاقترحت أن يشربون الشاي في الشرفة واستحسن الجميع الفكرة، هم بحاجة لما ينسيهم توترًا دام لحظات جلسوا فيها يرقبون جسدًا نائمًا ركله جسده الأثيري ورحل متجولًا بفضائات لا يعرفونها كما لا يعرفون ما إذا كانوا بصدد حدوث شيء لا يُحمد عقباه.

مرت فترة صمت لا بأس بها قطعها صوت وليد، قائلًا:

— لم أتخيل يومًا أن أخوض تجربة كهذه، لم تكن هذه الأمور تستهويني غير أني أثق أن المغربية ليست كسائر البشر، بها شيء مختلف لم أستطع أن أفهمه منذ أن كنت صبيًا.

حاولت سلوى أن تبعث جوًا من المرح وهي تبعث من بين شفتيها دخانًا كثيفًا، فقالت:

— عرفنا سؤال وفية ولم نعرف ما حاجة الآخرين من المغربية. فلنبدأ بكِ يا بدر، ما سؤالكِ لها؟

تعمدت سلوى أن تمارس التدخين في حضور حسن، وكأنما تقول له لم ولن أتغير.

ضحكت بدر، وقالت بعد لحظاتٍ من التفكير:

— لا أعرف، ربما سألتها عن المستقبل.

التقط حسن طرف الخيط وقال:

— وأنتِ يا سلوى ما سؤالكِ للمغربية؟

كان السؤال مفاجأة لها فلم تتوقع أي حوار بينهما.

رمته بنظرة حادة ثاقبة ونفثت دخانها بقوة، وقالت:

— ربما سألتها عن لحظة انتظرتها كثيرًا وأنا على يقين أنها آتية لا محالة.

بدت على وجهه علامات القلق، ورغم هذا التزم الصمت.

صمتت سلوى هي الأخرى، ثم أردفت قائلة:

— يبدو أني لن أنتظر هذه اللحظة طويلًا.

شعر حسن بالحرج أمام الحضور فقد أدرك ما ترمي إليه.

قطعت بدر الحوار محاولة أن تخف من حدته، فقالت:

— نريد المزيد من العزف على العود يا حسن.

تجاهل ما قالت وتقدم خطوة نحو سلوى هامسًا بصوتٍ تبينته بصعوبةٍ، فقال:

— أود الحديث معكِ على انفراد.

— ألا تخشى أن تُعرّف زوجتك شمية بهذا الأمر؟

قالتها بحدة ثم أضافت: أظنني لخصت حديثنا من قبل أن يبدأ. تريد أن تبرر ولا رغبة عندي في سماع مبررات واهية لن أصدق حرفًا منها.

جذبها من يديها وقال:

— تحمليني خمس دقائقٍ، وأعدك أن أرحل بعدها وإن أردتِ ستكون المرة الأخيرة.

تنحيا ليقفا في منأى بعيد عن أعين الجميع بأحد أركان الشرفة الواسعة. كان الجو العام مشجعًا للخوض بذكريات الماضي، المصباح العربي المتدلي من سقف الشرفة بأضواءه الملونة الخافتة وصوت ارتطام القطع النحاسية المتدلية منه إثر مداعبة النسيم لها، علاوة على صوت أم كلثوم الذي انبعث خافتًا من جهاز التسجيل المُدار بالداخل، ورائحة بخور العود والصندل ذو العبق العربي الذي تأتيهم به المغربية من محلات البخور والعطور الخاصة بها، كلها أجواء عربية صميمة لم يخرج عن سياقها شيء غير دخان سيجارة منبعث من بين شفتي سلوى.

بقيا صامتان بضع دقائقٍ حاول فيهم حسن استجماع كل حروف الأبجدية، التي وجدها عاصية متمردة تهرب من

بين شفتيه، لينبش في ماضٍ يعرف جيدًا أنه لن ينصفه.

سأمت سلوى من صمته فبادرته بالسؤال:

— ماذا تريد يا حسن؟ لو أردت التحدث في الماضي فليس لي رغبة بنقاشٍ أثق أن الخوض به ليس من صالحك.

وقبل أن تتفوه بالمزيد قاطعها حسن بسؤالٍ مفاجئٍ شلَّ تفكيرها وربما أطرافها أيضًا، حيث قال:

— هل تقبلين الزواج بي؟

اتسعت حدقتا عينيها وكادت أن تجيبه فكان ردها لا يحتاج إلى تفكير، غير أنه أضاف:

— أعرض عليكِ أن نتزوجا عُرفيًا ويبقى الأمر سرًا فنحن في غنى عن مشاكل كثيرة ستعود علينا إن أعلناه.

نهضت سلوى بعصبية معلنة بهذا رفضها، فجذب ذراعها لتسقط مجددًا جالسة فوق المقعد، وقال:

— ألستِ من دعاة التحرر؟ تدخنين السجائر وتملكين من الشجاعة ما يسمح لكِ بممارسة الحرية بكافة أشكالها فلماذا ترفضين الزواج العرفي؟

أجابته بحدة:

— من قال أني أرفض الزواج العرفي؟ بل أرفضك أنت، بالأمس تركتني إرضاءً لأمك والآن تريدني زوجة

في السر إرضاءً لزوجتك، فإن علمت بالأمر تركتني لأجلها، ورغم هذا فليست قضيتي أن تتركني أم تبقى معي. القضية أنك لفظتني وأنت رجل كامل والآن تريدني أن أقبلك نصف رجل، لم يغرني يومًا أنصاف الرجال.

صمتت لحظات واستطردت قائلة:

— وهل كنت بانتظار صدفة تجمعنا لتعرض على عرضك السخي هذا؟ ماذا لو لم ندعوك لهذه الأمسية؟

أجابها بصوتٍ مهزومٍ:

— لكِ كل الحق فيما قلتِ لكني لست سعيدًا بزواجي، أقارن دائمًا بينها وبينك فتُحسم النتيجة لصالحكِ أنتِ، لم أستطع نسيانكِ لحظة، لم أدبر مسبقًا أن أقدّم لكِ هذا العرض، هو وليد اللحظة، ربما ولد حين وقعت عيناي عليكِ اليوم فأدركت تمامًا أني ما زلت أحبكِ، ما زلت أحتاج وجودكِ بحياتي. ليس أصدق من القرارات الفجائية التي نأخذها من دون سابق ترتيبٍ، ثمة صوت بداخلي، لا علم لي به، يطلبكِ للزواج فهل تقبلين؟

صمت لحظاتٍ، وأردف قائلًا:

— خذي ما يكفيكِ من وقتٍ لتفكري.

لم تجبه بشيء، فقط شعرت بنشوة كثيرًا ما انتظرتها

فغافلتها ابتسامة نصر ارتسمت بملامحها قبل شفتيها، وقالت:

— لست واثقة من قبولي لعرضك. على أية حال سأفكر، لكنك لم تتم العرض بعد.

رمقها بنظرة كلها دهشة، وسألها:

— ماذا تقصدين؟

— أقصد أنك لن تتزوج أرملة أو مطلقة.

قالتها بتحدٍ.

— أكيد أعرف أنكِ لم يسبق لكِ الزواج، لكن ما معنى هذا؟

أجابته بالتحدّي ذاته:

— معناه أنك ستكون ملزمًا بتقديم مهري وشبكتي مثل أي عروس، وكذلك سنقضي شهر عسل. هل أنت مستعدّ لهذا؟

أحس بالحرج والارتباك ومن دون سابق إنذار نبتت حبات عرق بجبينه معلنة أن لم أحسب حساب أي من هذه التفاصيل، فقط أردت أن نكون معًا.

والحقيقة أن سلوى لم تكن تعبأ بتلك الماديات، لكن سوق العمل أكسبها فلسفة المال والمقايضة، فتعلمت أن ما ندفع فيه الكثير يُعني لنا الأكثر فلا نفرط فيه بسهولة ولا يكن

مرورنا به هذا المرور الذي نسميه مرور الكرام.

لم تغفل بدر نظرة لهفة بعين وليد دعتها لتتركه مع وفية بضع لحظات، فلبّث دعوتها بحجة إعداد القهوة للجميع.

هي المرة الأولى بعد سنواتٍ طوال لم ينفرد فيهم وليد بوفية.

ترددت وفية قليلًا قبل أن تقول:

— سمعت أنك تقيم هنا بشقة والدتك بعد ...

قاطعها قائلًا:

— بعد الانفصال.

— نعم تركت الإسكندرية وفضّلت البقاء هنا ولو بصورة مؤقتة حتى أتدبر الأمر، عرضت عليّ سامية أن تبقى بشقة الإسكندرية لفترة تسمح لها بنقل كل ما يخصها بالشقة.

مرت لحظات من الصمت ليسألها بعدها كأنما أراد ألا يترك لها الفرصة لتسأل:

— ألستِ سعيدة مع حامد؟ ظننته يُحبكِ ويُحسن معاملتكِ.

لم ترد التطرق لهذا الأمر. حتمًا لن تلق بما في جعبتها مع أول سؤال يسأله، لم ترد الحديث عن حامد فتشعر بشيء منه بالمكان، هي لا تكرهه لكنها تكره هذا الشرك الذي

ينصبه لها بكل مكان فتسير بحذرٍ بخطواتٍ محسوبة؛ كي لا تقع في براثنه كالفأر. هي الآن تلتقط ما تسنّى لها من أنفاس تبقيها على قيد الحياة ببيت حامد، لن تسمم هذه الأنفاس بسيرته والحديث عنه، تريدها أنفاسًا نقية نظيفة.

هزت رأسها بالإيجاب.

استوعب وليد ما ارتسم على وجهها من ضيقٍ، وقال:

— كل سيكون على ما يُرام بمرور الوقت.

كان يحترم كونها زوجة لرجل آخر.

لم يشأ أن يدنسها حتى بالكلمات فكان أشد حرصًا عليها منها، فقط شعر برغبة في الحديث معها فربما هونت عليه الأمر الذي لم يكن عليه أبدًا بالهين، لكن هكذا عهدها منذ كانا صغيران تغسل أحزانه بالثلج والماء والبرد.

سألته وفية:

— وماذا نويت بعد عودتك من الإسكندرية؟ هل ستترك عملك هناك وتقيم إقامة كاملة بالقاهرة؟

أطرق قائلًا:

— حين ينهار البناء لا نقيمه فوق الأنقاض بل نأتي عليه كله فلا يبق منه ما قد يشوهه، هكذا فكرت وقد انهار بنائي، أن أأتي على الأخضر واليابس فيه فلا تبقى ذرة من ماضي يفسد حاضري، باختصار أنوي أن أبدأ

مشروعًا طالما حلمت به.

قاطعته قائلة:

— هي المجلة إذًا.

ابتسم ابتسامة عريضة فقد أرضى غروره أنها ما زالت تذكر الحلم الذي حلماه معًا، ثم سألها:

— ما رأيكِ يا وفية هل تقبلين مشاركتي؟ فشلنا في الحلم الأكبر فربما ننجح في تحقيق جزء صغير مما حلمنا به.

سرحت بعينيها بعيدًا كإنما قفزت سنواتًا للمستقبل لترى إلى أين يأخذهما حلمهما، راقت لها الفكرة كثيرًا لكنها سرعان ما تذكرت حامد كيف سيتلقى الخبر؟ أم أنها ستعمل دون علمه؟ تحتاج كثيرًا لهذا العرض الذي قد يعيد سياقها من جديد، أحست بصعوبة ما هي مقبلة عليه لكنه حلم تراءى لها فأحسته وحلمته حتى الثمالة.

عاد وليد يجذبها بقوة ليضعها بسياق حلمهما، فقال:

— لقد وجدت صديقًا لديه خبرة طويلة بمجال الكتابة والنشر، وقبل مشاركتي سأحتاجكِ بالمشروع لتكوني محررة الباب النسائي بالمجلة، خذي ما يكفيكِ من وقت لاتخاذ القرار لكن ثقي أنه عرض فيه مآرب كثيرة، فستجدين المساحة التي طالما حلمتي بها

فتطلقين سراح الكلمات وتحلين قيودكِ، فما زلت أذكر أنكِ لا تحبين القيود.

هكذا انتهت الأمسية بميلاد حلم جديد حلمته وفية، ألقى وليد بحجره في ماؤها كعادته، فحرك الساكن وبعث روحًا بكل ميت فيها، كانت تعيش بلا هدف، حتى يحيى لم يكن ذا هدفًا، هو قطعة من جسدها وروحها أنبتت وخرجت من ضلعها فأزهرت وبقيت ملتصقة بها، لكنها تهاب المغامرة فطالما برع وليد برسم خرائطها القدرية وطالما برع القدر ذاته في إخفاقها.

حين رحلت المغربية كانت تسيطر عليها مشاعر التجربة، دلفت إلى شقتها فسارعت بإغلاق الباب. كانت مضطربة، شاردة الذهن، حتى تعثرت وكادت أن تُسقط كلبها المحنط الكائن بمدخل الشقة فازدادت ارتباكًا فقد رأت اليوم هذا الكلب قطمير، الذي أطلقت عليه هذا الاسم؛ تيمنًا بكلب أهل الكهف، رأته برحلتها الأثيرية فأدركت للمرة الأولى ملابسات موته بل ملابسات قتله.

كان قطمير كلبها الخاص الذي يرافقها أينما كانت.. لم يكن كلبًا عاديًا فكان له صوت عواء مميز ينذرها تارة بسوء، ويحذرها منه تارة أخرى إن كان القدر لم يأذن بعد بحدوثه.. وقد رأت اليوم كلبًا ينبح بكهف ثم يتقيأ دمًا

فأدركت على الفور أن ما رأته ليس إلا كلبها وقد قدم له أحدهم طعامًا مسمومًا، لم يصعب عليها بعدها أن تستنتج الفاعل وهو شخص أراد الانتقام منها، فهو يعرف مدى تعلقها بقطمير فأراد أن يؤلمها؛ فهي من تسببت - من وجهة نظره- في افتضاح أمره أمام زوجته التي تزوج عليها بأخرى، وكانت زوجته صديقة مقربة للمغربية من هؤلاء الذين يعلون كلمتها بحياتهم فيستشيرونها في كل أمر.

لم تكن المرة الأولى ولكنها من المرات القليلة التي هزتها بعنف من الداخل ونالت من ثباتها الانفعالي، ففقدت السيطرة على أعصابها.. حاولت القيام ببعض تمارين النفس لتهدئ من روع التجربة التي ما زالت تستشعرها وترى تفاصيلها جلية أمام عينيها، عادة لا شيء يهدئ من روع ما تراه برحلتها الأثيرية غير القلم حين يلامس صفحات دفترها ذو الغلاف الأسود، ربما إشارة لما به من عالم غامض لا بارقة ضوء به.. لم تكن تسكب بالدفتر ما تراه بالعالم الأثيري فقط لرصد التطور الذي قد تحرزه في كل رحلة عن السابقة عليها، بل لأن شدة التركيز والمجهود الذهني الذي تبذله هناك قد بدأ ينال من قوة ذاكرتها ومن صحة أعصابها فخشيت أن تصحو ذات يوم صفحة بيضاء خاوية. هكذا قررت تسجيل تفاصيل رحلاتها بعد عودتها

كل مرة لعالمنا المادي.

التقت المغربية في رحلتها الأخيرة بامرأة رائعة الجمال، بها ملامح وفية لكن ثمة شيء مختلف لا تعرفه. تحدثت إليها إذ وجدتها عابثة حزينة فسألتها:

— أراكِ بائسة حزينة فما السبب؟

ابتسمت المرأة بخيبة أملٍ، وأجابت:

— هي الحياة، أصعب شيء حياة تعيشنا ولا نعيشها، تحقق فينا أحلامها فتعدنا أدواتًا تحركها بمهارة شديدة، ولا تسمح لقطعة منا أن تحيد عن مسار الحلم أو تخرج عن سياق النص.

هكذا رأت المغربية الكثير في رحلتها الأثيرية الأخيرة، فرغم قصر مدتها فإن الوقت بالعالم الأثيري لا يُقاس بالمقياس ذاته فهو خارج حدود زمننا وقوانينه الزمنية وكذلك قوانين طبيعته، فما يحدث عندنا في أشهُر طويلة قد يحدث هناك في بضع دقائقٍ.

تسللت وفية سرًا قاصدة المغربية، ساقها الفضول فمضت من دون وعي تجرجر أذيال شغفها.

ما إن فتحت لها الباب تبعتها وفية للداخل بوجه هربت منه الانطباعات والألوان، وظل مجرد ملامح لا شيء يجزم ببقائها حية.

ظلت وفية ترمقها بصمت تنتظر منها المبادرة وبداخلها عشرات الأسئلة،

استجمعت وفية شجاعتها وسألتها:

— هل أنتِ على ما يرام؟

هزت المغربية رأسها أن نعم.

لم تستطع وفية أن تكبح زمام فضولها أكثر من هذا فسألتها مباشرة، فبدت كطفلة تطرح على أمها أسئلة كونية يتعذر عليها استيعابها:

— كيف تشعرين أثناء رحلتكِ الأثيرية؟

سرحت بعينيها بعيدًا، وقالت:

— أحس بالأخرى بداخلي تنهض وتخرج مني كطيف شفاف باهت وثياب تشف، بيضاء لكن رغم شفافيتها فهي لا تكشف شيئًا، فقانون شفافيتها غير مُطبقٌ هناك.

سألتها وفية بلهفة:

— ماذا رأيتِ؟ هل رأيتِ ما يخيفكِ؟

أجابتها شاردة كعادتها:

— رأيت لكل منكم كيان أثيريّ يشبهه، ربما يماثله تمامًا في هيئته أو قد يشبهه في قدره، ولكن تختلف الملامح.

سألتها وفية بلهفة:

— ومن تكون شبيهتي الأثيرية تلك؟

— ميدوسا.

— ميدوسا؟!

كررتها وفية بصوتٍ خفيضٍ كأنما تختبر تأثير تكرار الاسم فقد يكن له سحر خاص، أو لعنة ما.

لم تعر المغربية لسؤالها اهتمام، فقط أضافت مُغيرة سياق الحوار لمنعطف آخر أكثر جاذبية، فأتى صوتها عميقًا متمتمًا وهي تقول:

رأيت اليونانية ميدوسا، كانت تشبهكِ كثيرًا.

صمتت لحظة وواصلت الحديث بشرود أهل الغيبيات وغموضهم ثم استأنفت الكلام، فقالت:

— رأيت بوجهها وجه وحش، فقد حكم عليها أحدهم أن تتحول لمسخٍ قبيحٍ بعد أن كانت آية في الحُسن، لكن من آن لآخر تعود لوجهها ملامح الجمال والحسن في صورة ومضات سريعة لا تلبث إلا وتتلاشى.

لم تفهم وفية ما قالت وارتسمت علامات الدهشة على ملامحها، وقبل أن تنبس أردفت المغربية قائلة:

— ميدوسا هي ضحية أثينا آلهة الحكمة عند الإغريق. فقد تجرأت ميدوسا فأعلنت لأثينا بمعبدها أنها الأكثر جمالًا وأنها الأجدر بمثل هذا المعبد فأقسمت أثينا

أن تجعل منها عبرة لكل مغرور مفتون بنفسه، وجعلت لها لعنة تحيل كل من ينظر إليها حجرًا.

ظلت وفية مشدوهة، وترددت قبل أن تجيب بحروف متعثرة ونبرات مرتعشة:

— لكني لست ميدوسا، لم أفتن بنفسي أو أغتر بجمالي بل على العكس أراه أحيانًا سر تعاستي.

أجابتها في عُجالة:

— انصتي لما أقول جيدًا، بعد الموت تعود الأرواح لتسكن أجسادًا أخرى، لكنها تعود ضعيفة الذاكرة فقد تتذكر أحداثًا قليلة عن حياتها الماضية.. فقط الأرواح التي ماتت موتة عنيفة هي التي تحتفظ بذاكرة قوية، وكذلك تنشأ بعض الأمراض عن تزاحم الأرواح في الجسم الواحد، وليس أدل على هذا من حالات التنويم المغناطيسي التي يُطلب فيها من المريض العودة للطفولة فإذا به يرتد لعصور قديمة تسبق وجوده بمئات السنين.. وهكذا فقد أعرف في رحلة أثيرية أن روح شخص آخر هي التي تسكنكِ؛ فأستطيع التنبؤ بمصيركِ. ورغم هذا فأنا لا أجزم بشيء، فليست ميدوسا ببشرٍ بل هي شخصية أسطورية ولكن الأقدار تتشابه كثيرًا.

انزعجت وفية وقالت بجزع:

— لا أفهم، ماذا تقصدين؟

أجابتها بثقة ومرارة:

— أقصد أن بحياة كل منا من يُنصب نفسه إلهًا فينزل علينا لعنته ويصب غضبه فوق رؤسنا.

عادت وفية تسأل:

— من تظنينه يقوم بهذا الدور معي؟

— ربما قصدت حامد.

أجابتها المغربية دون تفكير.

علقت وفية بثقة وثبات:

— ولكن حامد أضعف من أن يفعلها.

قالت المغربية محذرةً:

— وفية، أحيانا من نظنهم نحن ضعفاء يتلاعبون بأقدار بلدان ومصائر وبشر.. لا تحسني الظن به كثيرًا، لقد حذرتكِ.

سألتها وفية:

— وكيف يفعلها حامد؟

قالت المغربية مُفسرة:

— ليس بالضرورة أن يبدّل جمالكِ، فلقد يشوهكِ بطريقة أخرى وقد...

توقفت عن الكلام، فسألتها وفية بلهفة:

— وقد ماذا؟

واصلت الكلام بتردد:

— وقد يقتلكِ.

— يقتلني؟!

(قالتها وفية بنغمة حملت كل معانِ الاستنكار).

تجاهلت المغربية سؤالها، تأملت شيئًا في الفراغ البعيد وعادت بعينيها لتستقر بوجه وفية وتخترقه وكأنها تنفذ بداخلها من مسام وجهها، وتقول:

— يحيى ابنكِ سيحيله إلى حجر ينبذكِ ويلفظكِ، وستبقين أنتِ سرّ عذابه. سيلعنكِ ويلعن النساء كافة، ويتعذب بكِ إلى أن يأذن الخالق.

قالتها وصمتت وكأنما أوقفها شيء.. أثار هذا فضول وفية فسألت بشغف:

— يأذن بماذا؟

أجابتها بذهن شارد وعينين ثابتتين:

— إلى أن يحدث ما يبدل الحال ويذيب قسوة الجبال، إلى أن يحدث شيئًا يزيل الغشاوة، ويوسع المدارك.

عادت وفية تسترسل في الكلام فقالت:

— وهل صدّقتِ أن يكون حامد بهذه القوة، القوة

التي تدفعه للقتل؟

ابتسمت المغربية، وقالت شاردة فيما رأت:

— اسمعي يا وفية إني أرى أشياءً ليست مباشرة هي أشبه بالرموز وعليّ فكها؛ لأفهم الرسالة كما لو كنت تمامًا أقرأ خطوط الفنجان، وحين سألتيني عن حامد التقيته برحلتي ورأيت إحداهن تسأل حامد ثلاث مراتٍ: «من الذي يمشي في الصباح على أربعٍ، وفي الظهر على اثنين، وفي المساء على ثلاث؟» وكان جواب حامد كجواب أوديب الشهير، «الإنسان في البداية طفلًا يحبو ثم شابًا يافعًا على قدميه ثم يهرم فيمشي على عصا بجانب قدميه».

فعادت لتقول له:

— لن تحتاج للعصا يا حامد.

ومضت عينا وفية، وسألت:

— ماذا تعنين؟

أجابتها المغربية:

— أعني أني رأيت حامد في صورة أوديب، فتلك في الأسئلة التي سُئلت لأوديب قبل أن ينصب ملكًا ويتزوج أمه.

عادت وفية تسأل:

— وما معنى كونه أوديب؟

أجابتها المغربية بابتسامة واثقة:

— معناها أن سر حامد في علاقته بأمه كمِثل سرّ مشكلتكِ معه.. احذري إذًا من هذه العلاقة؛ فثمة سرّ ورائها لا يعرفه غيرهما.

ومرة أخرى سألتها وفية:

— وما معنى أنه لن يحتاج العصا؟

أجابتها المغربية:

— لعلها تعني قِصر العمر، والله أعلم.

لم تنتبه وفية لعبارتها الأخيرة فقد سرحت بكلمات المغربية وسألت نفسها تُرى ماذا يحدث لو تزوجت ميدوسا أوديب؟ لو تزوجت امرأة رائعة الجمال أوديب، رجلٌ لا يعرف من النساء غير أمه؟ حدثت بها نفسها ثم تنبهت فجأة أن المغربية لخصت سبب فشل زواجها من حامد.. أنثى جميلة تعتد كثيرًا بأنوثتها تزوجت ابن أمّ وكفى.

بقيت وفية صامتة كأنما تنقب عن ثغرة بجسدها تسدها فلا تنفذ إليها لعنة ميدوسا.. ترى ما هي نقيصتها التي تجعلها تستحق أن تصبح مسخًا.. كل ما تعرفه أنها امرأة ذات طموح. لها طموحات في الحب لا سقف لها فلا يُشبع رومانسيتها رجل.. قتلها سقف طموحها الذي تجاوز

السحب أو بالأحرى قتلها عجز الرجال عن الامتثال.. ما زالت تنتظر من يفك رموز أنوثتها ويحل شفرتها إن كان فك رموز حجر رشيد قد تطلب من شمبليون عشرات السنين، فما هي إلا لوح أنيق يحمل نقوشًا أنثوية تتطلب شمبليون آخر.

أفاقت وفية من شرودها على كلمات المغربية:

— دعكِ مما قلتِ وأخبريني لماذا تبدين متمردة على حالكِ فقد أساعدك.

أجابت وفية دون تفكير:

— يتملكني إحساس عجيب دائمًا ما يُلح عليّ ويسيطر على حواسي فيسلبها الإرادة.. أشعر أني لا أعيش الحياة بل هي التي تعيشني.

ابتسمت المغربية ابتسامة ثقة، سمعت لتوها في رحلتها الأثيرية الجملة ذاتها تتردد بلسان ميدوسا.. صدق إذًا تأويلها لما رأت.

لم تلحظ وفية ما طرأ من تغير على وجه المغربية، فاستطردت قائلة:

— أحيانًا أرى الحياة مخلوقًا غريب الملامح يأمرني بشيء ويدفعني لآخر ويهددني ويتوعدني بأشد أنواع العقاب إن لم أفعل.. أحسه يتسلل إليّ فيسود بداخلي

ليستمتع بما أمرني به لتوه فأصبح شيئان، جسد ظاهري يتألم بداخله مخلوقًا متجبر...

قاطعتها المغربية متمتمة بصوت خفيضٍ غير مفهوم:

— صدقت المرأة الأثيرية.

صمتت لحظة، ثم استرسلت قائلة:

— ما وصفتيه الآن هو جسد أثيري يود أن يخرج من جسدكِ فيحيا ما لم تحييه أنتِ ويستمتع بكل ما حرمتكِ منه ماديتكِ.

قالت المغربية بعينٍ شاردةٍ:

— أعرف أنكِ لستِ راضية بحالكِ ولكن تذكري دائمًا أنهم أربع وعشرون قيراطًا ينتقص منهم شيئًا لا محالة فمعكِ الذرية، والصحة، والمال، والجمال، وينقصكِ الحب، فأي من هذه النعم تقايضين عليه مقابل الحب؟ هي معادلة حسابية صعبة.

تجاهلت وفية ما قالت، وأردفت تسألها:

— ماذا رأيتِ غير ميدوسا الأثيرية؟

— رأيتكِ هناك بصحبة رجل، لم يكن زوجكِ حامد...

صمتت لحظة كأنها ترى المشهد يتكرر أمام عينيها، وأضافت:

— ولم يكن وليد.

قطبت وفية جبينها متعجبة:

— لماذا ذكرتِ وليد تحديدًا؟! تُراها تعرف بعلاقتهما القديمة؟ تُرى ما حدود معرفتها؟ فامرأة مثلها تتجول بحرية بجسد أثيري شفاف بعوالم أخرى حتمًا تعرف الكثير.

واصلت المغربية الحوار شاردة كمن تتصفح صورة رجل ماثل أمامها فقالت:

— هو رجلٌ مختلفٌ لا يشبهكِ، بعيد كل البعد عن أي رجل آخر، عشوائي بكل شيء وإن كانت مشاعره. يتحدث لغة لم تألفها أذناك كما لم يعهدها قلبك لغة تدليل الإناث، يجيدها حتى بدت لغته الأم.. صدقيه فلا تحمل نبراته رائحة الكذب، ورغم الاختلاف الشيطاني بينكما ستكونا قطعتين بجسد جنوني واحد يخرج عن ماديته ويخرق قوانين طبيعته.. سيكون في هذا الرجل خلاصكِ، رغم أنه...

سألتها وفيه بلهفة:

— رغم ماذا؟

أجابتها:

— ليس ما يجمعكما هو حب، بل شيء آخر لعله حب المغامرة.. لكن تذكري إن خلاصكِ في هذه المغامرة

فخوضيها بلا تردد؛ ففيها كل ما عشتي تحلمين به.

سمعتها وفية مشدوهة وبوجهها ابتسامة نشوة وأمل، ورغم غرابة ما قالت وربما خطورته، فلم تغفل لحظة كونها زوجة وأم، وجدت فيه بريق خافت لكنه أخّاذ، أخذها لحيث تمنت كثيراً أن تذهب. هو الجنون إذًا الذي طالما حلمت أن تعيشه، جنون ينبت لها جناحين فتسمو بالأفق حيث لا يدركها واقع جامد، ليس جنون فيلسوف الجنون فوكو الذي طالما قرأت له، بل جنون وفية، هي أكثر جنونًا من فيلسوف الجنون ذاته.

ودت لو طلبت من المغربية أن تعطيها مزيدًا من التفاصيل لكنها أحست أنها تقف بأعتاب المغامرة، تكاد تحس نسماتها تداعب وجهها، لن تطفئ بسؤال أحمق بريق الإثارة بمغامرتها المرتقبة. هكذا وضعتها المغربية بأعتاب مغامرتها، فقد ظلت تبحث عن مغامرة تعرف فيها طاقاتها الأنثوية الكامنة وتقيس درجة جنونها بمقياس فوكو للجنون.

كثيرًا ما كانت تسأل نفسها في ظل أيامٍ رتيبةٍ مملةٍ تقضيها ببيت جامد. أتلك النهاية؟ هل أحيا وأموت شأني شأن الكثيرات؟! مجرد زوجة وأم بها الكثير من الطاقات التي تموت معها دون إطلاق سراحها؟ كانت تحس دائمًا أن

بأحشائها طفل آخر غير يحيى يريد أن يخرج للحياة، طفل عمره من عمرها، الآن أدركت دنو موعد الميلاد. دلتها المغربية على مغامرتها وستعيشها كما هي لتعرف هناك وفية.

عادت وفية من بيت الذكريات تحمل الحقيبة والملامح ذاتها، لكنها صارت تحمل نفسًا جديدة، ثمة شيء بها اختلف ربما صارت أكثر شرودًا.. لم يفهم حامد أو أمه سبب شرودها، فكيف لهما أن يتوقعا أن روح المغربية العجوز قطعت أميالًا بعالم أثيري ومواز لتعود لها بكتاب أقدار يحمل امرأة تشبهها يسمونها ميدوسا.

عادت وبيدها رواية مُترجمة لجوزيف كونراد «حكايات من زمن القلاقل» جلبتها من مكتبتها التي آثرت الاحتفاظ بها في بيت طفولتها، هناك فقط تلتقط بضع أنفاس لتبقيها قيد الحياة فلم تصمم أنفها لتتنفس هواء حامد، ثمة رجل آخر لم تلتقيه بعد تستطيع أن تتنفس هواءه.

حامد لا يستسيغ القراءة مثلها لكنه يفرض رقابة صارمة خفية على ما ينفذ إليها، ما يتغذى عليه عقلها وجسدها.. فإن وجدها تتبع حمية غذائية لتقليل الوزن ثارت ثائرته، فلمن تفعلها ولم يشتكِ يومًا من بدانتها بل هي أقرب للنحافة من البدانة، وإن انكبت على قراءة الكتب جن

جنونه خوفًا من أن تدخل حبيبته عالم لا يستطيع التسلل ورائها إليه فتوصد بوجهه الأبواب وتغلق النوافذ.. هي سياسته الاستعمارية التي تأبى إلا أن تراقب كل ما يشكل جسد وفكر الأرض المحتلة.. لكنه يبدو ساكنًا لا يكشف أبدًا عن أنيابه فيبقى حجم قوته مبهمًا فلا تُعد له العدة.

استقبلها حامد وأمه بوجوم وتبرم تكشفهما نظرات أم زوجها الثاقبة، تكاد تحدث تقوبًا بجسدها فتخترقها. سرعان ما استدرك حامد حيده عن سياسته فرسم بقسمات وجهه قناع رضا وابتسامة شوقٍ حين ضمها إليه بحنان مفتعل لم تنخدع به. سألتها خالتها بخبثٍ:

— كيف حال بدر؟ هل يرضيكِ حالها؟ بقيت عازفة عن الزواج إلى أن عزف هو الآخر عنها.

رمقتها وفية بنظرة؛ أن لا دخل لكِ بشئون بدر.

لم تعبأ أم حامد بعلامات الغضب المستتر بوجه وفية، فأردفت قائلة:

— لا أفهم سبب إصراركِ على تلك الزيارات الأسبوعية التي تتركين فيها زوجكِ وابنكِ؛ لتقضين يومين مع من ليسا من نفس ظروفكِ ولا يقع على عاتقهما مسئوليات مثلكِ.

أرادت أن تُخرج وفية عن شعورها فتشتبك معها وتصب

عليها اللعنات وتقذفها بكل ما تمنت من ألفاظ وسباب، هكذا تأخذ بثأر ابنها المتخاذل أمام أنوثتها الفائرة، لكن إن تحرك الجبل لفعلتها وفية.

ردت لها وفية الصفعة بأن اقتربت من حامد الجالس بمقعده المعتاد، متجاهلة ما قالت، ومالت عليه بدلالٍ مصطنعٍ تهمس بأذنيه مطلقة ضحكة عالية اهتزت لها أوتار غضب أم حامد، مضت بعدها وفية بخطوات أنثوية واثقة، متعمدة هز كل قطعة بجسدها بحركات لا يفهمها سوى متمرسي الدلال والخلاعة، تاركة الأم ترمق ابنها بنظرات ملتهبة تكاد تحرقه بشررها.. تبعها حامد بعدها ملبيًا النداء مسلوب الإرادة لغرفة نومهما تاركًا أمه تجتر حسرتها على ابنها الذي تحركه وفية كالدمية بحبالٍ من دلال وميوعةٍ طالما لجأت إليهم هي ذاتها قبلها.. التقمته وفية بحنكة ودهاء لافظة أمه بعيدًا، ملقنة إياها الدرس ذاته «إن كيدهن عظيم».

انشغلت وفية لعدة أيام متتالية بقراءة رواية كونراد إلى أن كان أحد الأيام المشهودة بحياتها هي وحامد، يوم قضت ساعات تحمل الرواية بين كفيها مستمتعة كثيرًا بالأحداث، حتى وصلت لقصة «العودة». قرأتها بنهم وشرودٍ، انتهت منها فقط لتقرأها من جديد. أخذت تضع

الخطوط والعلامات وتكتب التعليقات بجوار كل فقرة تجذبها.. كتبت من بين التعليقات «لا شيء يقيد أنوثتي»، وخطت اسم البطل إلفان هيرفي وكتبت فوقه حامد، وفوق أحد الفقرات التي تتحدث فيها زوجته إليه كتبت وفية اسمها يليه ثلاث علامات تعجب. فعلتها وسقطت جفونها من شدة التعب، فنامت والرواية منكفئة على وجهها تعلو صدرها، تتحرك مع كل نفس يدخل إليه أو يخرج منه كأنما دبت بها الحياة وصارت كائن يريد جذب انتباه حامد لهذا العالم الذي تحركه وفية بأنفاسها.

التقط حامد الرواية برفق وقلب صفحاتها بحرص بحثًا عن غريمًا له يتصوره قابعًا بين الكلمات، وقع بصره على الخطوط والتعليقات بخط زوجته.. كانت قصة العودة قرأها ففهم، فَهِم الكثير ورسم خياله الأكثر ورمحت شكوكه آلاف الأميال حتى سقط لجامها وفقد سيطرته عليها تمامًا.. كانت القشة التي قصمت ظهر البعير.. هي إذًا خائنة، ستهرب تاركة رسالة كما فعلت زوجة بطل القصة المُغفل.. سيصحو ذات يوم فلا يجدها بالبيت.. أقرتها بنفسها وكتبت اسمها واسمه لتربطهما ببطلي القصة، وكتبت هذه العبارة المطاطية المستفزة «لا شيء يُقيد أنوثتي» لم يفهم حامد حدود اللاشيء الذي قصدته وفية

أم أنه لا متناه، لا حدود له، حين تعلن امرأة تحرر أنوثتها من أي قيدٍ فماذا هي فاعلة إذًا؟!

قررت وفية حل جدائل أنوثتها، ما زالت تعتبرها أنوثة تحت الإنشاء.. قررت وضع حجر أساس جديد بهويتها حجر قوة وإثبات الذات، لا تقبل بأنوثة ضعيفة، ستحلم الحلم الذي أتت به، فقط تحتاج لاستجماع شجاعتها.. هكذا هي بعض الأحلام تحتاج لممارسة الشجاعة.

كتبت وفية بدفتر يومياتها..

«عدت مما أسميناه نحن «أمسية المغربية» بنصف عقل فقد شت النصف الآخر جراء ما قالته المغربية، فتحولت كل قطعة بروحي لطفلٍ صغير لحوح وعده والده بلعبة فجلس يرتقبها من دون صبر، أردت مغامرتي كما لم أرد شيئًا قبلها ولن أرد بعده، رسمت لي المغربية خطوط وشخوص المغامرة.. متى وأين تبدأ المغامرة؟ عليَّ أن أحركها، أن أهيئ لها الظروف المناسبة.

لكنها لم تعدني بمغامرة فحسب بل قذفت بقلبي الرعب من حامد.. لم يعد حامد الذي أعرفه.. هو قنبلة موقوتة تتحين اللحظة المناسبة للانفجار.. لن يكن حامد جزء من مغامرتي سأنبذه وأحمل معي قطعة من جسدي تحمل اسمه يحيى حامد.. سأطلب الانفصال عنه، يكفيني ما كان

منه فلأنقذ ما تبقى لي من عمر إن كان بالعمر بقية.. تبًا لنبوءة المغربية التي أشعلت فتيل جنوني حين بث بي وليد روح حلمنا القديم، المجلة.

وحده قلمي يفرغ هواء بالوني السَّام لكنه يثقبني فتنفذ إليّ آلاف العيون لترى ما بداخلي».

•••

بدر

لماذا يتصور البعض أن الصمت يعني الرضا والاكتفاء، هي فكرة تكاد تقتل بدر، ليس صمتها برضا بل هو قمة الثورة.. ألم نر المتظاهرين في بعض المظاهرات يضعون لاصقة فوق أفواههم كناية عن أن ما يختلج بصدورهم وعقولهم يفوق القدرات والتعبيرات اللغوية، مكتفيين بالصمت كأصدق تعبير عن معاناتهم؟!

هكذا تثور بدر بصمتٍ عالٍ وصخبٍ صامتٍ؛ أملًا في أن يلتقط أحدهم ذبذبات صمتها.. لكنها أحيانًا تشعر برغبة عارمة في حل وثاق فمها وإطلاق سراح المشاعر والكلمات المكبوتة، تريد أن تُعرف الأنثى بداخلها وقد ارتبط تعريف الإناث بمجتمعاتنا بوجود الرجل، الجميع يعاملها كبدر لكنها ما زالت بلا فلكٍ، ربما أخذت من اسمها خفوت ضوءه فلم يرها الآخر، لعلهم لو اسموها شمسًا لكان أفضل.

تركت الأمسية بِــ بدر أثرًا ليس بالهين، اكتشفت أنها ليست سوى ريشة معلقة بالفضاء.. حدث هذا حين سألت المغربية الجميع عن سؤال ينتظر إجابة، ربما وجد الجميع صعوبة في الاكتفاء بسؤالٍ، ووجدت هي استحالة في إيجاد سؤالٍ واحدٍ.. اكتشفت أنها ورقة اختبار خواء لا سؤال بها.. لن تبق يومًا واحدًا آخرًا بلا سؤالٍ.

لم تعرف نقطة البداية، تصورت سيناريوهات عديدة لم تقنع بأي منها وأخيرًا استقرت على سيناريو بدا لها مناسبًا، ستزور المغربية وتسألها.. ستختلف عن الآخرين ممن سبقوها؛ ستسألها عن السؤال ذاته الذي يستعصي عليها إيجاده وطرحه، وربما يأت يوم تحتاج فيه مثلهم لسؤالها عن مستقبل حاضرها.

صعدت بدر للمغربية، بعد أن وضعت بعض المساحيق بوجهها على غير العادة.

قابلتها المغربية بابتسامة عريضة تحمل معنى أن « أخيرًا صحوت من غفوتكِ!».

قالت المغربية بالابتسامة ذاتها:

— ما رأيكِ بفنجان قهوة مضبوط؟

أجابتها بدر بلباقة لم تعهدها من قبل:

— حسنًا، ولكن إن كنتِ ستقرأين لي الفنجان.

قالت المغربية بابتسامة أكبر:

— حتمًا سأفعل.. ولن تقفي حائرة أمام فنجان القهوة كحيرتكِ أمام الإسقاط، فالفنجان لا يحتاج منكِ أن تطرحين سؤالًا.

حدقت بدر بوجه المغربية بعينين ملأها الدهشة.

استطردت المغربية قائلة:

— ألم تأتِ لهذا الغرض؟

اتسعت حدقتا عيناها، وأجابت:

— فعلًا، جئتكِ لأني أعاني من خواءٍ شديدٍ يكاد يقتلني.

قاطعتها المغربية قائلة:

— هو خواء فرضتيه على نفسكِ قبل أن تفرضه عليكِ الظروف.

ابتسمت بدر واستطردت قائلة:

— لم أتعمد هذا لكني لم أستشعر هذا قبل أمسية الأمس، حينها شعرت أن أشياء كثيرة ما زالت تنقصني، ينقصني حتى تلك المشكلات التي تجعل للحياة معنى وتجعلني أشعر أني على قيد الحياة، أو لأكن محددة أني أنثى على قيد الحياة.

استمعت لها المغربية باهتمامٍ وهي تعد القهوة مستعينة بشعلة خافتة صغيرة مخصصة لها، صبتها وقدمتها لها دون مقاطعتها.

واصلت بدر الحديث قائلة:

— لن أنكر أني ألغيت من مفرداتي هذا اللفظ بوقتٍ لم أكن فيه أنشغل كثيرًا بهذه الأمور. لكني أيضًا لن أنكر أن ثمة شيء تبدل بي بالأمس أو لعله شيء جديد لم

أعرفه قبل اليوم، ربما يستعصي عليَّ فهمه، لكنه وُلد بجسدي.

قالت المغربية مقلبة فنجان بدر برفقٍ بين أصابعها، كأنما تتحاشى اختلاط الخطوط أو تبخرها:

— كل ما قلتيه كان صحيحًا، يرسم فنجانكِ شيئًا جديدًا، شيء يشبه عاصفة تجتاحكِ. امنحي لنفسك الفرصة واتركي كل شيء يسير بصورة طبيعية وكل سيصبح على ما يرام، هذه نصيحتي لكِ فاسمعيها.

كسا وجه المغربية الوجوم، وهي ما زالت تنظر بخطوط الفنجان، ثم قالت بابتسامة هي أقرب للعبوس من الابتسام:

— ابقِ قريبة من وفية.

استوقفتها العبارة الأخيرة، فسألتها:

— ماذا تقصدين؟

أجابتها بكلامٍ أكثر ابهامًا، فقالت:

— لكل شيء أجل، ولكل أجلٍ كتاب أطال الله عمركِ وله أولًا وأخيرًا المآب..

كانت عبارتها واضحة لكنها لم تستوعبها لبعدها كل البعد عن توقعاتها فحين يبلغ الشيء القمة، وحين يكتمل البدر يصعب أن نتصور خفوته مهما كان يقيننا به أمرًا مفروغ

منه.

وقبل أن تستطيع بدر أن تنبس بكلمةٍ قامت المغربية من مجلسها وغابت قليلًا بالداخل وعادت تحمل ثلاث شمعاتٍ وعلبة ثقاب.. جلست بجوار بدر، التي بدت مشدوهة، فراحت تكتب على جوانب الشمع هذه الآيات (نارًا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهلِ يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقًا) وعلى جانبٍ آخر(إن جهنم لمحيطة بالكافرين) وفي جانب آخر (والسماء ذات البروج إلى قوله ذات الوقود) وفي الجانب الآخر (نار الله الموقدة إلى قوله الأفئدة)، أغمضت المغربية عينيها وتمتمت بكلمات أخرى لم تتبينها بدر، ثم أشعلت الشمعة الأولى وراحت تقرأ أجزاء من سورة يس وكررتها وأشعلت الشمعة الثانية فالثالثة.

وانتهت المغربية من تلاواتها وممارساتها الغامضة، أو ربما تعاويذها السحرية، فأشارت لبدر أن تغادر المكان كأنما ثمة شيء على وشك الحدوث لا يجب أن تطلع عليه فاستجابت الأخيرة بسلاسة وتلقائية فهكذا اعتدن تقبل المغربية بغيبياتها وخروجها عن المألوف دون جدلٍ أو نقاشٍ.

•••

مرّ الأسبوع سريعًا.. هي ليلة الخميس، ليلة لقاء مقدّس بين ثلاثة من النساء حيث تسحب وفية حاجتها من الأكسجين لتحييها أسبوعًا آخرًا ببيت حامد.. اختلفت الليلة عن الليالي السابقة.. أتت كل منهن بحجر ثقيل جاثمًا فوق صدرها.. وفية تنشد الخلاص وتلح عليها عبارتها الثورية المطاطية» لا شيء يقيد أنوثتي». وأتت سلوى بطلب هو الأصعب والأكثر إرباكًا، طلب حسن الزواج بها.. لم تكن تدري هل تفرح أم تحزن، تفتح صفحة جديدة أم تطوي صفحته القديمة المهترئة.. أما بدر فأتت بأنوثتها الوليدة لتحبو عند أقدامهن تتشبث بهذه وتتحاشى تلك الأخرى ، وتعمد إلى رصد كل ملمح من ملامح الأنوثة يصدر من إحداهن فتختزنه إلى حينٍ فهي الآن في مرحلة التمهيد.

تنازلن اليوم عن بعض من طقوسهن المقدسة المعتادة فاكتفين منها بشرب القهوة والثرثرة، والتي كان محورها الأمسية أو بالأخص أمسية عزيزة المغربية.

بدأت وفية الحوار ملقية بوجههما قذيفة من العيار الثقيل فقالت:

— قررت الانفصال عن حامد.

شهقت كلاهما وقبل أن تنبس أيهما أضافت:

— هو قرار نهائي لا رجعة فيه.. فقط ينقصه التنفيذ لا المناقشة.

سألتها بدر:

— هل فكرت بالأمر كما ينبغي؟

— لا لم أفكر على الإطلاق؛ فالتفكير أمر عارض أما أنا فلم تمض عليّ لحظة منذ زواجي بحامد لم أفكر فيها بالانفصال عنه، حتى صارت فكرة تقتحمني وتلفظني مع كل نفس يتهدج به صدري دخولًا وخروجًا.

— وماذا قررتِ بشأن يحيى؟

سألتها سلوى ببساطة شديدة لا تتناسب مع ما هي مقبلة عليه.

أجابت وفية:

— حتمًا سأصر على الاحتفاظ به، لكن من يدري كيف تكون ردة فعل حامد؟

لاحظت وفية شرود سلوى فنادتها أكثر من مرة ولم تستجب، وبنبرة صوت حاد كمن تحاول إيقاظ نائمًا استطردت وفية، قائلة:

— سلوى، ناديتكِ ثلاثًا فلم تجيبيني، ما بكِ؟

انتفضت سلوى كأنما أفاقت لتوها من سبات عميق وقالت:

— لا شيء فقط أفكر في العرض الذي قدمه لي حسن.. لا أعرف إن كنت أقبله أم أرد له الصفعة وألفظه كما لفظني قبل عدة أعوام.

علقت وفية قائلة:

— هو قرارِكِ وحدك، لا نستطيع التدخل به.

استطردت سلوى قائلة:

— لا أعرف إن كنت ما زلت أحبه، لكن لكل فتاة حلم مراهق يبقى بداخلها مهما تقدم بها العمر فإن حققته زال بريقه وانطفأ وهجه بداخلها، وربما تحول لكابوس وإن أخفقت في تحقيقه ظل يطاردها ويحاصرها كالأشباح.. وحسن هو حلم مراهقتي الذي لم يتحقق، وقد أتاني عارضًا عليّ تحقيق الحلم بعد أن ظننت أن لا تلاقيا.. لكن ما زال أيضًا بأعماقي رغبة طفولية في إيلامه شأني شأن طفلة لكزتها رفيقتها فقررت أن تشفي غليلها بركلة أو وخزة.

استمعت إليها وفية وبدر فكانت الأولى غاية في الإنصات والأخيرة غاية في الشرود.

أردفت وفية قائلة:

— ليس الأمر بهذه البساطة، فليس الزواج بالأمر الهين كما تتصورين.. فالزواج هو إلزام رجل وامرأة من

خلفيتين مختلفتين تمامًا بالعيش معًا بل والاندماج أيضًا حتى تتلاشى الاختلافات، ففكري بتأنٍ إن كانت نقاط الاختلاف بينكما هي نقاط من جليد يمكن إذابتها، أم أنها نقاط من صلب يُستعصى صهرها.

بقيت بدر صامتة لا تنبس.. لاحظت وفية شرودها، فعلقت قائلة:

— ما رأيكِ يا بدر؟ هل تؤيدين طلب حسن الزواج بسلوى؟

تنبهت بدر لما قالت وفية فاستطردت قائلة:

— لقد تجاهلتوا أمرًا هامًا.. ببساطة حسن رجل متزوج، فلماذا يطلب الزواج بسلوى؟ لعل حلمه المراهق هو ما ساقه إليها هو الآخر ولا يدوم زواج بُنى على رغبة في إشباع حلم مراهقة.

علقت سلوى:

— إذًا أنتِ معنا منذ البداية رغم أنكِ تبدين بعالم آخر.

لم يكن من عادة إحداهن إخفاء شيئًا عن الأخريات، غير أن الأمر بالنسبة لبدر بدا شديد الحساسية وهي التي لم تعترف يومًا بحاجتها لرجلٍ، فكيف تفصح عن هذا الميل المباغت لوجود الجنس الآخر بحياتها؟

حاولت بدر إخفاء ما يعتمل في نفسها بالتظاهر بالجمود

والصلابة، فقالت:

— قلت لكما إنه زوجٌ وأبٌ؛ وهذا كفيل لإغلاق الأمر قبل مداولته واختبار فرص نجاحه وإخفاقه.

بدت سلوى شاردة، منفعلة تسحب نفسًا عميقًا بعصبية من سيجارة تئن إثر حركة لا إرادية، راحت تضغطها بعنفٍ بين اصبعيها حتى كادت تتفتت.. وفجأة احتدت ملامحها وقالت بحزمٍ:

— سأقبل عرض حسن ولكن بشرط واحد.

سألتها وفية وبدر بصوتٍ واحدٍ:

— أي شرط؟

أجابت سلوى:

— أن يُطلق زوجته.

نهرتها وفية قائلة:

— هل جُننتِ؟ كيف يُطلق زوجته؟ هل يتحمل ضميركِ تبعات هدم بيت وحرمان أطفال من أبيهم، بل وحرمان زوجة لا ذنب لها من زوجها؟ كيف تقررين بناء سعادة واهية على أنقاض بيت؟ والله إن فعلت لكنت كمن تبنى بيتًا فوق فوهة بركان سرعان ما ينفجر ويدمر بيتكِ وحياتكِ.

استطردت سلوى قائلة:

— سأعرض عليه شرطي، ومن حقه القبول أو الرفض.. لن أجبره على شيء كما لن أكن أكثر حرصًا على بيته وزوجته منه.

خرجت بدر من شرودها، فقالت:

— لم أتصوركِ يومًا بهذه القسوة والجحود.

أجابتها سلوى:

— أي قسوة وأي جحود تقصدين؟ كان حسن من حقي، من حقي أنا فقط لا حق لزوجته فيه.. لم يحب غيري ولم أتمنَّ غيره.. لن أعيش غير مرة واحدة، فلمَا أعيشها دون حب؟ سأفعل ما أرى فيه مصلحتي وليذهب الجميع للجحيم.

تجاهلت وفية ما قالته سلوى وعادت بهم لفكرة الطلاق، فقالت:

— لا أعرف كيف أبدأ الحوار مع حامد.. أعرف أن الأمر لن يكن بهذه السهولة.. أكاد أموت خوفًا وكُرهًا. لم أعد أطيق حديثي معه، لم تعد عيناي قادرة على الاستقرار بملامح وجهه فهي ترهبني وتقتل أي فكرة وليدة بداخلي.. أخاف أن تموت الكلمات فوق شفتاي قبل أن أنطقها.

قاطعتها سلوى قائلة بابتسامةٍ خبيثةٍ أعادت لجلستهن

روح المرح التي طالما غلبت عليها:

— إذًا أنتِ بحاجة لزجاجة بيرة تمنحكِ بعض القوة فتُرتب أفكاركِ فتأت مسترسلة قوية.. اتركي هذا الأمر لي.. فقط أخبريني متى تريدين فتح الحوار مع حامد وستكون عندكِ الزجاجة قبلها.

•••

دخلت وفية الغرفة وتبعها حامد فقد أعلنت رغبتها في التحدث معه بأمرٍ هامٍ، حسمت وفية أمرها وقررت أن تتحدث معه بشأن الطلاق فأطرقت رأسها، وقالت:

— حامد أنت ابن خالتي، وقد عشت معك سنواتٍ طويلة وأنجبنا ابننا الوحيد يحيى لكنك تعرف جيدًا أن كلانا لا يشعر بالسعادة.. ربما لم أقتنع يومًا إنك زوجي؛ دائمًا تتداخل صورة ابن الخالة مع صورة الزوج فأجدني عاجزة عن اعتبارك زوجًا بمعنى الكلمة.

قاطعها حامد قائلًا:

— من قرر أنني لا أشعر بالسعادة؟ أنا سعيد بحياتي معكِ وأنتِ تعرفين هذا جيدًا.. لكن لا مانع من وجود بعض خلافات في أي علاقة بين زوجين، وشأننا شأن أي زوجين نمر بهذا وذاك، لكني لا أفهم معنى كلامكِ، ماذا تقصدين بصورة ابن الخالة التي تمنعكِ من اعتباري

زوج؟ فماذا تعتبريني طوال هذا الوقت؟ لعل هناك صورة آخرى هي التي تحول بيننا.

صمتت لحظات محاولة أن تحتفظ برباطة جأشها قدر الإمكان، فقالت:

— أنت لست سعيدًا وكلانا يعرف هذا، وتعرف تمامًا إنه ليس هناك صورًا أخرى كما تزعم وإن كان هناك فهي صور بعقلك فقط لا أساس لها.

ابتسم بسخرية وقال:

— بل لها أساس، فلم أنس أبدًا أنكِ منذ تزوجنا لم تستطيعي مرة واحدة أن تعبري عن حبكِ لي ولو بكلمة تُقال على سبيل المجاملة.. كنت دائمًا أشتاق لكلمة حب أو ودّ فلم أكن أجد منكِ غير التصنع الذي تجيدينه أكثر من أي شيء.. والآن ماذا تريدين من هذه المهاترات؟

أجابته بثقة وقوة:

— الطلاق.

قال باستنكار مكررًا الكلمة:

— الطلاق؟ ماذا حدث لكل هذا؟ لا أذكر أنني ارتكبت ذنبًا يستحق الطلاق.

أجابته بهدوء:

— ليس الطلاق عقاب نظير ذنب، هو أبسط من هذا،

فقط لا أشعر بالراحة أو التوافق بيننا فَـ رأيت أنه من الأفضل لكلانا أن ننفصل ونظل أصدقاء وأبناء خالة كما كنا ليعيش يحيى حياة طبيعية لا يتأثر فيها بالوضع الجديد.

ثار حامد فقال بحدةٍ:

— أي وضع؟ من قال أني أوافقكِ فيمَا تقولين؟ هذا هراء.. فكري بيحيى ومستقبله وكفاكِ تفكيرًا بنفسكِ.

قاطعته قائلة:

— هو قراري الأخير يا حامد، لا شيء يثنيني عنه. فكر بالأمر واستشر خالتي زينب وأظنها ستوافقني الرأي.

ألجمته الكلمة، فكان لكلمتها الأخيرة عظيم الأثر عليه، فحين يقترن القول بسيرة أم حامد تتغير مسارات الحوار ويكن هناك حسابات أخرى.

سألها باستنكارٍ:

— ماذا تقصدين؟!

أجابت:

— قصدي تفهمه جيدًا.. تفهم أن لها دور كبير في تشويه العلاقة بيننا وأنها ستظل تقف بيننا فلا تدع لنا مجال لنعيش عيشة سوية.. صدقني يا حامد أنا أصر

على الانفصال ولن أقبل بغيره.. سأتركك لك الأمر لتفكر وأثق أنك ستجده أفضل خيار لنا.

استمع إليها حامد باهتمام وارتسمت على وجهه علامات الحزن والأسى، فكان كمن زاد عمره عشر سنوات. هل تتركه وفية؟ كيف تتركه الحسناء؟ هل يعرف العيش بدونها؟ هل يعرف امرأة غيرها؟ يعرف إنه سادي الطبع معها بل ومع نفسه.. يعشقها لكنه يعذبها ويستمتع بتعذيب نفسه معها دون أن يفهم السبب. تسيطر عليه فكرة واحدة تجذبه من رابطة عنقه فينساق وراءها رغم علمه أنها فكرة لا أساس لها من الصحة.. ثمة شيء فيه يدفعه للانتقام منها لسبب لا يعلمه.. لعله اختزل فيها كرهه للنساء جميعا، لكن هل حقا يكره النساء؟ وأمه هل يكرهها؟ كيف يكرهها وهو يُلبي لها ناهيةٍ وآمرةٍ، مشاعر متناقضة تتملك منه. وماذا يكون مصير يحيى؟ هل يعيش بعيدًا عن أمه؟ حامد نفسه بالكاد يبتعد عن أمه، فكيف لطفل صغير أن يفعلها؟ لن يسمح لها بالسعادة ويعرف إن سعادتها في وجود يحيى معها.. سيحكم عليها بالتمزق، سيمزق أحلامها ويهشم ضلوعها ويحرق قلبها كما أشعلت حرائقها بيابسه وماؤه، ثم يحرقها هي أيضًا.

هكذا أصرت وفية على الانفصال وأصر حامد على

الاحتفاظ بيحيى بعد أن أكّد على حقها في رؤيته متى شاءت زاعمًا أن الطلاق ينهي الزواج فقط ولا يُنهِ صلة الدم فستبقى ابنة خالته أولًا وأخيرًا.

لم يكن إقناع حامد بقرار الانفصال بالأمر اليسير بل كان شبه مستحيل حتى تدخلت أمه وأجبرته على إتمام الطلاق ولم يكن الأمر صعبًا فهي من اعتادت أن تمسك زمامه وترسم له مسارات خطاه ووجهتها؛ لينفذ هو من دون جدالٍ وقد سئمت وجود امرأة أخرى بحياة ابنها.

هكذا دائمًا تسأم الأم وجود غيرها بحياة ابنها فلا يستوعب عقلها أنه صار لابنها امرأة يجمعها به ما لا يجمعه بأمه.. كيف تستوعب أن امرأة أخرى تشاركه سرّ لا يطلعها عليه سر يحتفظ به الزوج والزوجة فلا يشاركهما فيه ثالث لكنها دائمًا تود أن تكون الطرف الثالث ويعذبها أن يمنعها أحدهم من هذه الكينونة التي تضمن لها البقاء بقلب ابنها وبأرضه.

كانت أم حامد مريضة بمرضٍ لا يُرجى شفاؤه اسمه حامدٌ.. لم يكن حبًا له بل حبًا لنفسها، وضمانًا لبقائها. هكذا يختلط الأمر على كثير من النساء عقب وفاة زوجها فتختزل الزوج في صورة الابن فتلق على كاهله بتبعات الزوج لا الابن وتطلب منه أول ما تطلب الإخلاص فلا

يعرف امرأة غيرها، ويكن هذا بمثابة قرار بإلغاء الزوجة من حياته.. وبناء عليه لم تكن أم حامد تفارقه، وفي كل مرة تزور بيت ابنها وتقرر أنها ستبيت معهم الليلة كانت تتعمد أن تنام مع ابنها في فراش واحد تاركة وفية لتنام هي الأخرى مع ابنها بفراش آخر كأنما تسدي لها معروفًا وحدها الأم تستطيع أن تفهم معناه.. كأنما تعيد رسم شكل العلاقة بين الأم وابنها فتسن سنة يتبعها من يأتي بعدها.

كان لهذه العلاقة العجيبة أكبر الأثر في إفساد علاقة حامد ووفية.. فكانت وفية ترى دائمًا صورة أم تقف بينهما، فإن سافرا لقضاء يومين صاحبتهم، حتى في غرفة النوم فكانت تقضي النهار معهما وحين يسدل الليل ستاره تدخل غرفة النوم فتنام حيث ينام حامد وتنام وفية مع ابنها بالفراش الآخر.. هي شنة سنتها أم حامد وأمعنت في سحب صلاحيات وفية واحدة تلو الأخرى حتى اطمأنت لإفساد العلاقة بينهما، فهدأت بالًا وراحت تُمصمص شفتيها حسرة وتُعرب عن أسفها لما آلت إليه الأمور بينهما فتقول « ما عاد بينهما حب» وتتمادى في ندب حظ ابنها المسكين الذي يحق له الزواج بأخرى فزوجته جافة لا تحبه.

هكذا أبعدت الخطر عن ابنها وتربعت عرشه ومحت من حياته فكرة خصوصية الرجل وزوجته فبلغ الأمر بحامد أن

قالت له وفية ذات يوم:

— حامد أريد أن أحكي لك شيئًا لكن بعد أن تعدني بيقاء الأمر سرًا بيننا.

وبمجرد أن انتهت من طلبها، قال بمنتهى التلقائية:

— تريدينني أن أخفي الأمر عن من؟ لعلكِ تقصدين أمي فإن كان فاعلمي أني سأطلعها عليه بمجرد أن تنتهي منه، فلا سر لي أخفيه عنها وإن كان هذا يسيئكِ فلا تأتمنيني على سركِ واحتفظي به لنفسكِ.

هكذا اعتاد حامد أن يتبع أمه واعتاد أن ينصر آخاه ظالمًا أو مظلومًا، واعتادت الأم أن تخرق السفينة وتقول «لو شئت لاتخذت عليه أجرًا» مدعية أنها ما فعلت إلا لحماية حامد من أن تقوده امرأة وتتحكم به. وكان حامد يقول «أمين». هكذا لم تشعر وفية يومًا بأنوثتها تتدلل على ذكورة رجل اسمه زوجها، فكان يليق به لقب ابن أم فلا يليق عليه لقب زوج فهو ابن أكثر منه زوج.. وما أصعب أن ترى زوجة زوجها ابنًا لغيرها.

•••

أم حامد

أم حامد هي إذًا مفتاح اللغز، لغز مسخ اسمه حامد، هي من صنعت هذا الحامد المعقد.

كانت امرأة سيئة السلوك تتقن الخلاعة وتقدس الميوعة، طقوسها طقوس حية سامة.. هي من جعلت لحامد مفردات قسوة فعلمته معنى الأفاعي وسمومهن، بل جعلته منذ أن كان صغيرًا ينشغل كثيرًا بفكرة مادة يطلقون عليها الشُم تسري بالجسد فتصيبه بالمخدّر، فتطرد الروح منه وتتركه جثة مهترئة الأمعاء، كثيرًا ما تطّلع لاستخدام هذه المادة حتى إنه كان يستمتع بوضع الشُم للفئران ويتابع بشغف كل يوم تأثير السم في اصطياد الفئران، وبلغ به الأمر أن كان يختبر أنواعًا مختلفة من السم ويراقب تأثيرها على القطط الضالة التي كانت تتجمع حول صفائح القمامة أمام شقق البناية، فكان يبدل السم الذي يستخدمه في كل مرة ويرى أيهم أسرع في الفتك.

لعل حامد الطفل لم ينس أصعب مشهد قد تطلع عليه، براءة وسذاجة طفل فيغتالهما ويحيلاه لدمية مصمتة، هو مشهد لعبت به أمه زينب دور البطولة. ورغم أنها كانت ليلة قمرية لكنها بدت له قاتمة عابسة.. يقولون إن الجرائم تكثر في الليالي القمرية فاكتمال القمر يُحدث بجسم

الإنسان ما يشبه المد والجزر ويعبث بنسب الماء والسوائل به، ترى هل ثمة علاقة بين جريمة أمه وبين القمر؟ هل يستطيع أن يقنع نفسه أن القمر هو المسئول عن فعلتها؟ فهو من زج بها بين ذراعي رجل آخر وكور شفتيها لتندس بين شفتيه فتختفيا تمامًا؟ هل القمر هو من جعل يداه تعبثان بوقاحة بجسدها، فأخذت تارة تضحك في ميوعة وأخرى تتنهد بأنفاس محسوبة؟

ربما تكررت أحداث هذه الليلة في كثير من الأفلام العربية القديمة حين يصحو الطفل الصغير ذو الخامسة على ضحكات سافرة اعتاد سماعها في الليالي التي يغيب فيها والده عن المنزل ليجد أمه بين ذراعي رجلٍ آخر.. هذا ما حدث تحديدًا لحامد، كانت الضحكات تملأ أذنيه ورائحة الخيانة تخنق صدره لكنه كان يسد أذنيه ويدفن حواسه البائسة كلها في وسادته الصغيرة، وتسيطر عليه فكرة واحدة لا يعرف سببها، فكان يخالها ضحكات الشيطان، كان عقله الصغير يتصور أن ثمة شيطان يغافل حراس جهنم الذين سمع عنهم في الأساطير، وينزل الأرض ليزورهم في ليالِ السبت والثلاثاء من كل أسبوع فيطلق ضحكات هستيرية لا يعرف سببها لكنها تخيفه ويرتعد لها فلا تقوى ساقيه على حمله خارج غرفته ليقتفى أثرها.

كانت أم حامد تغذي به الفكرة فقد قصها عليها ذات مرة فراق لها خياله الطفولي الأبله، وأقنعته أنه كما تنزل الملائكة للأرض لترى أعمالنا وتقيمها وتمنحنا درجات عليها فالشياطين يستشعرون الغيرة منهم فينزلون الأرض ويزورون البيوت ليلًا فيضحكون ويصخبون كثيرًا، لكنهم لا يقربون الأطفال الملازمون فراشهم، أما المتلصصون الذين يبحثون عنهم ويتحرون أخبارهم فهم ينزلون بهم أشد عقاب ويلسعون أطرافهم بلسان لهب يخرج من أفواههم.

وكأي طفل صدَّق حامد الخرافة فكان يكفي خيره شره ويكبح زمام فضوله ويخنق بداخله يقين طفل بأن ما يسمعه هو صوت أمه وليس صوت الشيطان، فصار حين يسمع الضحكات يجذب الغطاء فوقه بقوة ويدس أطرافه أسفل جسده من جميع الجهات؛ حتى يمنع تسرب الشيطان إليه خلسة من أحد جبهات الغطاء التي قد يغفل عن تحصينها.. هكذا كان يعد عدته كل يوم ويحصن نفسه إلى أن كان اليوم القمري المشئوم حين كان مستغرقًا في النوم فصحا على حينٍ غرةٍ، على صوت انفجار إطار سيارة ارتج له البيت القديم ولم تقل له أسطورته من قبل إن أصوات الانفجار لها علاقة بالشياطين، فهب من نومه دون تفكير

كعهده بها بل سمع أصواتًا أخرى لم يفهم منها شيئًا عدا أن أمه لديها ضيف بالغرفة وأنه قد يكون ليس على ما يرام.. دفع الباب بيديه الصغيرة واليد الأخرى ما زالت متشبثة بوسادته الصغيرة التي اصطحبها معه دون وعي.. عندها فقط أدرك أن الشياطين لا تغار من الملائكة وإنها لا تنزل الأرض بل هي تعيش بها وتسكن غرف النوم تحديدًا.. ثمة حقيقة أخرى أدركها أنه لا شيء اسمه شيطان فليس الشيطان ذكر بل أنثى غاب زوجها ونام صغيرها.

والغريب أنه بعد هذا المشهد الساخن، والذي بلغ من السخونة أن أحرق براءته وأحالها لرماد أسود رسى بكل حناياه فلوثها ونال من صفاء نفسه الصغيرة، غير أنه كمن قرر عن عمدٍ أن ينقل المشهد برمته لصندوق عتم يحكم إغلاقه فلا تعود ذكراه مجددًا إليه مهما حدث ولربما أتى يوم آخر يسترد فيه إيمانه بالشياطين الضاحكة.

أحكم يحيي إغلاق الصندوق واحتفظ به بداخله فعاش إنسان يحمل بأحشاءه صندوق يعرف أن بداخله وحشًا مخيفًا مفزعًا لكنه لا يجرؤ على فتحه وإطلاق سراح ما فيه، كما أنه لا يستطيع أن يمنع نفسه عن التعذب لوجوده

وهرول إلى غرفة أمه ويبدو أن الشياطين لم تغر من الملائكة يومها فلم تنزل الأرض، فلم يسمع ضحكات ليلتها كعهده بها بل سمع أصواتًا أخرى لم يفهم منها شيئًا عدا أن أمه لديها ضيف بالغرفة وأنه قد يكون ليس على ما يرام.. دفع الباب بيديه الصغيرة واليد الأخرى ما زالت متشبثة بوسادته الصغيرة التي اصطحبها معه دون وعي.. عندها فقط أدرك أن الشياطين لا تغار من الملائكة وإنها لا تنزل الأرض بل هي تعيش بها وتسكن غرف النوم تحديدًا.. ثمة حقيقة أخرى أدركها أنه لا شيء اسمه شيطان فليس الشيطان ذكر بل أنثى غاب زوجها ونام صغيرها.

والغريب أنه بعد هذا المشهد الساخن، والذي بلغ من السخونة أن أحرق براءته وأحالها لرماد أسود رسى بكل حناياه فلوثها ونال من صفاء نفسه الصغيرة، غير أنه كمن قرر عن عمدٍ أن ينقل المشهد برمته لصندوق عتم يحكم إغلاقه فلا تعود ذكراه مجددًا إليه مهما حدث ولربما أتى يوم آخر يسترد فيه إيمانه بالشياطين الضاحكة.

أحكم يحيي إغلاق الصندوق واحتفظ به بداخله فعاش إنسان يحمل بأحشاءه صندوق يعرف أن بداخله وحشًا مخيفًا مفزعًا لكنه لا يجرؤ على فتحه وإطلاق سراح ما فيه، كما أنه لا يستطيع أن يمنع نفسه عن التعذب لوجوده

وإن كان قد حجب عنه ما به.. هكذا انكسر حامد في ليلة قمرية لعينة، كسرته شيطانة ضاحكة فعاش يرى النساء جميعهن شيطانات ليلية ضاحكة.. لعله لو استطاع يومًا أن يكسر الصندوق ويطلق سراح الوحش لصار سويًا.

كانت أم حامد ذات بأس وقوة مما أتاح لها الوقوف بوجه الريح فلم تسمح لها بالمرور عبر النافذة فأحكمت إغلاقها كما أحكمت إغلاق فم طفلها بنسجها أسطورة شيطانية أخرى، فقد زعمت أن أحيانًا يُشبه الله للأطفال أشياء ليست حقيقية لحكمة كبيرة، فهو مثلًا يختبر مدى طاعة الطفل لأمه أو لأبيه فيصور له أحدهما أو كلاهما يرتكب ذنبًا ما ليرى كيف يتصرف الطفل آنذاك، فهل يبقى على طاعته أم يلعنه ويخرج عن الأمر الإلهي بطاعة الوالدين؟

هكذا أقنعته أم حامد مستشهدة بقَصص قرآنية توضح معجزات بينها الله لنا إما ليزيدنا إيمانا أو ليختبر إيماننا، فاستشهدت بقصة سيدنا عيسى وكيف شبه لهم إنه صُلّب وإنما هو رُفع للسماء لحكمة ما، وكذلك سورة يس تحديدا أية «فأغشيناهم فهم لا يبصرون» ولم تغفل تدعيم قولها بأيات تدعو لبر الوالدين مثل « وصاحبهما في الدنيا معروفا». هكذا أسكتت فم صغيرها لكن بقى بداخله الصندوق ذاته يتململ تارة ويصخب ويصلصل أخرى لكنه

صخب يشبه همهمة لا يميز حروفها ليستوعبها.

هكذا كان حامد يزج بكل ما يعجز وعيه الصغير عن مواجهته في الصندوق العتم وقرر أن يواصل العيش بمبدأ «شُبّه لهم» أو«أغشيناهم فهم لا يبصرون» لكن ثمة مبدأ آخر كان يصخب بداخله «إن كيدهن عظيم».

لم تكتشف أخوة حامد قصة الشياطين الليلية التي تزورهم بالبيت فكانت أم حامد تحرص على نزول الشياطين بالأيام التي ترسل فيها الصبايا الثلاث عند بنات خالتهن، أما حامد فكان لا يفارقها.

كذلك لم يعرف والد حامد شيئًا عن الليلة القمرية التي زاد فيها المد والجذر فانكسر حامد. ما زال لا يعرف تأثير الطبيعة علينا، لكنه كان يستشعر مد وجذر الحالة المزاجية لزوجته، فتارة تُدلّل وتُهدهد زوجها كالطفل الصغير وأخرى تنهره وتبثق بوجهه وتسبه بأقذر الألفاظ، ولم يكن من الاعتدال في حبه لها ليثور عليها أو حتى ليصفعها ويدك جسدها البدين ردًا على حماقتها وتطاولها عليه، كان على النقيض ينتهز فرصة صفائها لينال نصيبًا من الدلال وقدرًا من الهدهدة، وحين تنقلب الأحوال الجوية في ليلة قمرية غابرة يؤثر السفر لجلب بضاعة لمحله، هكذا كانت أم حامد تحركه عن بعد بتقلباتها الجوية، فتغيم وربما تمطر إنْ

قَرص الجوع أحشائها فأرادت لقاء عشيقها؛ لتتخلص من زوجها الذي لا يتحمل غدر أرصادها الجوية، فسرعان ما يفر لمنطقة أكثر دفئًا ولا يعود قبل عدة أيام يتأكد قبلها أن الموجة الباردة والرياح المصاحبة لها قد انتهت وعاد كل شيء لسابق عهده.

هكذا كانت أم حامد أكبر دليل على ارتباط المرأة بالطبيعة، لكنه ارتباط من نوع آخر، فكانت كمن تلبس رداء الطبيعة لترهب رجلًا.. ظل الحال هكذا سنواتًا طويلة إلى أن أتت ليلة قمرية لعينة أخرى تعجل فيها زوجها العودة لوطنه قبل أن يتأكد من انتهاء الموجة الباردة، فآثر أن يتحمل البرد والرياح الباردة عن تحمل شوقًا لزوجته كاد ينخر عظامه فكان يعشقها قبل كل شيء.. كان حامد وقتها قد بلغ الخامسة عشر ورغم هذا فقد اعتاد حامد أن يحفظ عهده مع الشياطين، وكذلك صندوقه الأسود الذي ما عاد به موضع للمزيد من حكايات الشياطين الضاحكة، هو عهد بملازمة غرفته ليلا فلا يخرج منها حتى الصباح.

عاد أبو حامد هذه الليلة على حين غرة ليعرف هو الآخر ما سبق وعرفه الصغير حامد بأن الشيطان أنثى لا ذكر، وأنه يعيش ببيته ويتحكم بأرصاده الجوية فيقمر ويمطر ويرعد ويضيء السماء ويزلزل الأرض، واليوم كان الزلزال

الأول الذي يضرب بأرضه حين رأى إلهة الطبيعة الملقبة بأم حامد ترسل نسماتها بوجه رجل يفصلها عنه بضع سنتيمترات، لم يكن يعرف إن الإلهة بهذه الرقة والرفق بسكان الأرض.

لم يكن يعرف إن رقعته الأرضية هي رقعة قطبية باردة ترسل الآلهة لها الجليد ليكسوها بينما ترسل النسمات الربيعية والزهور لتكسو مناطق أرضية أخرى.. لقد رأها قبل أن يغمض جفنيه للأبد وهي أرض منتشية بقطرات مطر بعثت بها الحياة بين ذراعي رجلٍ آخر.

سقط أبو حامد بعدها مشلولًا مغيبًا وظل هكذا قرابة العامين قبل أن يفارق الحياة.

مات أبو حامد لأنه لم يكن من الحكمة ليفعل ما فعله صغيره قبل سنوات، فلم يعرف خدعة الصندوق المغلق وإن فضائح النساء تُزج بها في صناديق نخفيها بأجسادنا فلا تفقد أطرافنا الحياة ويصيبها الشلل.

لم يعرف أحد كيف مات أبو حامد، وكيف مات الطفل حامد من قبله مجازًا.. وحدها إلهة الطبيعة أُمّ حامد كانت تعرف أسرار الطبيعة وعدد ضحاياها.

لم يتبدل الحال كثيرًا بموت أبو حامد، ثمة تغيير ضئيل قد طرأ عليها بعد عدة سنواتٍ حين أخذت بعض شعرات

الشيب تعرف الطريق لرأس أمه، وخط الكبر خطوطه وعلاماته بوجهها، فعاشت أم حامد بعدها بخطة بديلة تضمن بقائها فكما عبثت بأفكار ابنها كطفل ورسمت بجدرانه الخاوية خيالات وأشباح ظلت تطارده كطفلٍ، استطاعت أن تفعل الشيء ذاته به وهو رجل، وبدلًا من أسطورة الشيطان الضاحك الغيور من الملائكة، بذرت بداخله بذور أسطورة جديدة، أسطورة أوديب فقيدته بأغلالها، وظلت مقاليد أمره بيدها وحدها.. غير أنها لم تستطع أن تغلّ قلبه فتمنعه عن حب ابنة خالته وفية الحسناء، فتقبلت الأمر الواقع لكنها قررت أن تضيف حملًا جديدًا لصندوق لأواعيه فأخذت تبث بأذنيه فحيحها وتحيل شرايينه لحيات علها تنقي دمه من حب وفية، وحين أبى قلبه واستكبر قررت تشويه علاقته بوفية فعملت أم حامد ما بوسعها ليبقى حامد ووفية زيت وماء يستحيل ذوبانهما ليصيرا مركبًا واحدًا.

خلعت هذه العلاقة الشاذة عن حامد عباءة الذكورية بعيني وفية وبناظريه قبلها، فكان حين يقرب وفية يرى وجه أمه ويشم عبقها فيعزف عنها تارة وأخرى يذعن.

•••

الطَّلاق

الطلاق كلمة جدلية لفظًا ومعنى، يتذبذب ما توحي به الكلمة ما بين إطلاق السراح والطلق الناري.. لعل أعتى علماء النفس يقفون عاجزون أمام وصف ما يثيره قرار الطلاق من مشاعر.. ثمة شعور شيطاني أحسته وفية ينسكب بجوفها فيحرق أحشائها، هو شعورٌ ينطوي على كل المتناقضات.. لعله يشبه شعور «الولادة» فهي حالة من الألم غير المحتمل تهمس بأذنيها حالة من الشغف والمتعة، متعة ميلاد شيء جديد هو الحرية.

في البداية لم ترغب وفية في إعلان نبأ انفصالها عن حامد؛ لعلها أرادت أن تجنب نفسها الكثير من القيل والقال، أو لعلها أرادت أن تحتفظ بالجدار الواقي الذي يحجبها عن عيني وليد خاصة وهي مقبلة على دخول مجال العمل لأول مرة.. كانت تضع مغامرتها نصب أعينها فترسم لها إطارًا خياليًا وتضع القوانين والأعراف وأول قوانين مغامرتها أن لا ترتبط بالماضي بشكلٍ من الأشكال، تريدها مغامرة لا يطأ أرضها بشر من ماضيها فهي لا تريدها مغامرة فاشلة وكل ما مر بها في الماضي، من وجهة نظرها، كان الفشل بعينه. ستضع مقومات إنجاح مستقبلها وترقب النتيجة، كان وليد حتمًا من بين شخوص الماضي الذين

حُرم عليهم لعب أدوار البطولة بالمغامرة، فقط قد تسمح له بدور الكومبارس.

•••

أسبوعان كاملان مرًّا على بدر منذ أن أشعلت المغربية لأجلها الشمعات الثلاث، وسجلت عليهم تعاويذها، وتلت عليهم آياتًا قرآنية وبعضًا من الأدعية.. لكن هيهات أن يطرأ على حياة بدر ما يربت على كتف أنثاها الوليدة بحنان فيمنحها الثقة والكمال.. لم يطرأ على حياتها أي تغيير يُذكر عدا أنها تحولت إلى كيانٍ شاردٍ تسيطر عليه فكرة واحدة هي فكرة «القادم» فكلما دقّ جرس الباب أو سمعت وقع أقدام انتفضت محدثة نفسها أن هذا وقت حصاد ما غرسته المغربية.. تنتظر أن يخرج من الشمعات الثلاث ثمة فروع تحمل لها ثمار الكمال، أو لعل الشعلات الثلاث تصدر على حين غرةٍ دخانًا كثيفًا سرعان ما يتبدد فيظهر من بين ذراته رجلها المنتظر.

ظلت بهذه الحالة النفسية المضطربة قرابة الأسبوعين إلى أن قررت أن تقوم بزيارة أخرى للمغربية بعد مضي أسبوعين آخرين.

وقفت بدر بباب المغربية الذي فُتح برفق قبل أن تستطيع أن تلامس زر الجرس.. كانت المغربية تستعد للخروج

متجهة لشقة بالعقار ذاته، هي شقة مدام ميرفت فقد اشتد بها المرض فأرسلت ابنتها في طلب المغربية لتتلو عليها الرقية الشرعية فكثيرًا ما فعلت وكان لها أثرًا سحريًا عليها.. وبمجرد أن وقع بصرها على بدر ابتسمت ابتسامة عريضة وكأنما كانت تعلم مسبقًا بقدومها، فدعتها للدخول وقالت لها:

— ابق بانتظاري، طلبث من عابد أن يقدم لكِ فنجانًا من القهوة، سأكون أمامكِ فور انتهائكِ منه، فلا أنوي البقاء طويلًا هناك.

بدت علامات الدهشة على ملامح بدر، كيف طلبت من عابد إعداد القهوة لها قبل معرفتها بقدومها! كانت تعرف إذًا، كم هي عجيبة هذه المغربية!

أقبل عابد يحمل إليها القهوة فقدم إليها فنجانًا واستبق الآخر لنفسه وجلس على المقعد المواجه لها. تلك المرة الأولى التي تراه فيها عن قرب.. لم تلحظ قبلها أنه على قدر لا بأس به من الوسامة.. هو أربعيني، له بشرة سمراء وعينان زرقاوان وشعرًا قصيرًا مجعدًا.. تحدث إليها بعربية تغلب عليها اللكنة الفرنسية الموسيقية التي بدا إنه يتحدثها بطلاقة.. تلك المرة الأولى التي تسمح فيها المغربية لأحدهم باقتحام الهالة السرية التي تحيط بعابد..

لم يفهم الجيران نوع العلاقة بين المغربية وعابد بل لم يفهمون أيضًا صفته فظنوه تارة خادمها الأمين وتارة أخرى عشيقها، فلم يكن مظهره المهندم الوسيم يُشير بكونه يصلح للكنية الأولى، كما لم تكن طبيعتها وفارق السن بينهما يرجح كفة العشيق.. هكذا بقيت هوية عابد مبهمة تثير العديد من التساؤلات.

حاول عابد أن يدير دفة الحوار فقال:

— روت لي عزيزة عن أُمسيتكم الأخيرة وحديثكم عن الإسقاط النجمي، لعلها كانت أُمسية رائعة.

هزت بدر رأسها أن نعم دون أن تعلق بشيء. فعاد ليسألها:

— وهل قصت عليكم ما رأت.

لم ينتظر منها ردًا، فاستطرد قائلاً بلكنته التي تشوبها الفرنسية:

— أستمتع دائمًا بحكايات عزيزة عن العوالم الأخرى وأساعدها في تسجيل كل تفاصيلها، ولعلي أقنعها يومًا ما بنشر هذه التجارب في كتاب.. أظنه سيكون ممتعًا للغاية.

صدرت عنها إيماءة أخرى صاحبتها ابتسامة شاحبة حاولت أخفاؤها بأن قربت فنجان القهوة من شفتيها، وصدر عنها تمتمة خافتة فقالت:

— فكرة جيدة.

سألها مجددًا:

— بأي مجال تعملين أم أنكِ ربة منزل؟

أجابته بشيء من الارتباك:

— ربة منزل.

لا تعرف لماذا أتت جميع ردودها مقتضبة، ثمة شعور غريب ينتابها ويسيطر عليها، شعور بالخجل لكنه خجل من نوع خاص لم تألفه أو تعهده بنفسها، ثمة خجل أنثوي يعقد لسانها.. تلك المرة الأولى التي تفكر فيها وتشعر بعقل وقلب أنثى فأتت انفعالاتها وردود أفعالها أنثوية بحتة.. لا يبدو لها خادمًا لماذا إذًا ألصقوا به هذه الهوية المجحفة؟! أي خادم هذا الذي يتحدث بهذه الثقة بلكنة فرنسية جذابة وثقة بالنفس زعزعت ثوابتها ومن هذه الثوابت كنيته كخادمٍ وكنيتها كامرأةٍ خاوية من الأنوثة، فقد رأت بعينيه نظرة رجل لأنثى، وهى نظرة لم تعتد رؤيتها بأعين الرجال.

وأخيرًا استجمعت قواها لتسأله:

— وأنت ما مجال عملك؟

أجابها بابتسامة عذبة كشفت عن أسنان بيضاء جذابة:

— كنت أعمل بمجال السياحة بالمغرب، واستمر عملي

بهذا المجال سنوات طويلة إلى أن تعثرت الشركة التي أعمل بها واستغنت عن بعض العاملين بها فاضطررت لتركها، لكني فوجئت بتورطي بمشكلة مالية ضخمة في الشركة باعتباري المحاسب المسؤول، فتحملت أنا تبعاتها وحُكم عليّ بالسجن لكن المحامي الخاص بالشركة استأنف وظللت فترة بلا عمل ولا أمل في إلغاء أو تخفيف الحكم إلى أن جئت هاربًا إلى مصر قبل سبع سنواتٍ، وكان على عزيزة التستر على وجودي بمصر فالشركة لها فرع بالقاهرة فكانت تحيط وجودي بسرية شديدة حتى لا يتسرب نبأ وجودي هنا فيتم القبض عليّ.

صمت لحظة ثم استرسل قائلًا:

— تنقلت بين عدة وظائف في المجال ذاته، لكنها كانت كلها تجارب غير موفقة فلم تدم أي منها أكثر من بضع أشهر فعهدت إليّ عزيزة بإدارة محلات البخور والعطور الخاصة بها وفي الوقت نفسه ظلت القضية قائمة في المحاكم فترة طويلة إلى أن تم تسوية الأمر فقط منذ شهر تقريبًا، وتمكن المحامي من إثبات برائتي، وأخيرًا فكرت بجانب إدارتي لمحلات عزيزة أن أنفذ مشروعي الذي طالما حلمت به.

سألته بفضول:

— أي مشروع هذا؟

أجابها بابتسامةٍ جذابةٍ:

— استوديو تصوير فوتوغرافي، فهذه موهبتي منذ أن كنت صبيًا صغيرًا.

سرح متأملًا شيئًا في الفراغ وصدرت عنه ضحكة جذابة، وقال:

— كانت عزيزة تقص عليَّ ما ترى في رحلاتها الأثيرية فيجن جنوني، وأقول لها هل تأخذيني معكِ فألتقط بعض الصور لهذه العوالم الغريبة؟

تنبهت أنه كان يعرف المغربية في صباه.. هي إذًا رابطة قوية.

أشعل قوله فتيل فضولها؛ فسألته بخبثٍ مغلّفٍ بقناعٍ مفتعلٍ من براءة ولا مبالاة:

— هل تعرف عزيزة منذ فترة طويلة؟

صدرت عنه ضحكة عالية وقال:

— منذ مولدي.

لم تفهم فعادت لتسأل:

— ماذا تقصد؟

أجابها:

— هي شقيقتي الكبرى.

سألته بدهشة لم تخل من ابتسامة ارتياحٍ، فقالت:

— شقيقتك؟

— ليس تحديدًا، هي في الحقيقة ابنة خالتي الكبرى، فقد نشأت في بيت خالتي مع أبنائها وبناتها ومنهم عزيزة؛ فقد توفيت أمي في حادث سيارة وكنت وقتها بعمر الرابعة فبقيت مع أبي حتى بلغت العاشرة لكني انتقلت لبيت خالتي وحين تزوج فقد رفضت زوجته بقائي معهما.

قالها بابتسامة وبساطة عجيبة أذهلتها كثيرًا فكيف له أن يتحدث بأريحيةٍ شديدةٍ عن تلك الأمور المجحفة؟!

ثمة تشابه غريب بين طفولتيهما أشعرها بالتعاطف معه فأكثر ما يذيب جليد العلاقات الإنسانية هو ما يسمونه «الفضفضة»، ويبدو أن «فضفضة» عابد قد وضعت البدر الشارد بمداره الفضائي الصحيح. أحست بكل كلمة تفوه بها فكان لعمق صوته ولكنته الفرنسية تأثير السحر عليها فحُلت عقدة لسانها، ليس لسانها فحسب بل عقدة لسان حالها، فحل محل العزوف إقبال وتحرك كل ساكن بها وذاب بعض من خجلها فبقى البعض الآخر ليضفي على وجهيها طيفًا أنثويًا لم يسكن ملامحها من قبل.

طال الحديث بينهما ولم تأت المغربية.. لم تشعر بدر برغبة في الرحيل أو في تعجل حضور المغربية، لولا أنها أحست بالحرج فقد تنبهت فجأة لمرور ما يزيد عن الساعة فقررت أن تغادر.. وقبل أن تُعبر عن رغبتها في الرحيل فُتح الباب ودخلت المغربية تحمل ملامح وجهها نظرة أنثوية خبيثة.

رمقت كليهما بنظرة خاطفة وقالت معتذرة:

— معذرة لتأخري يا بدر؛ فكلما هممت بالرحيل تعلقت ميرفت بيدي وطالبتني بالبقاء زاعمة إنها لا تشعر بالراحة إلا في وجودي، فكنت مضطرة للبقاء إلى أن تناولت الحبوب المنومة فراحت في سباتٍ عميقٍ.

ابتسمت بدر وعلقت قائلة:

— لا عليكِ، سأمر بكِ في وقتٍ لاحقٍ.

غادرت بدر شقة المغربية، لم تغادرها كما دخلتها، غادرتها بدر له وأحست بثمة شعور ينتابها بأن أحدهم قد زج بها لتلك المنطقة المحرمة حيث تفقد المرأة وقارها وتطلق العنان لمشاعرها.

•••

سلوى

بعد يومين من زيارة بدر للمغربية، قررت سلوى هي الأخرى أن تزورها فتسألها عن قرار زواجها بحسن وشرطها بأن يطلق زوجته.

دخلت سلوى الشقة بكثير من الحذر والانبهار معًا وكغيرها ركزت بصرها على الكلب المُحنّط، ثم تنقلت ببصرها بالمكان حولها، كان كل شيء مهيبًا، له قدسية ورائحة البخور تنبعث من فواحة صغيرة لترسم سحبًا وتبعث بالمكان عطرًا فيه عبق التاريخ وعراقته.

جلست بانتظارها، لم تنس كلمة المغربية لها «لا تُعوّلي كثيرًا على الماضي؛ فالبكاء على الفائت نقصان عقلٍ».

أقبلت عليها المغربية، متسائلة:

— هل شربتِ شيئًا؟

هزت رأسها نافية وقالت:

— قال عابد إنه سيأتيني بفنجان قهوة.

مرت لحظات من الصمت لم تنبس فيها أيهما. أشعلت سلوى سيجارة وقالت وهي تطرد من صدرها بقوة سحابة كثيفة من الدخان:

— ماذا قصدتِ بكلماتكِ لي يوم الأمسية؟ هل كنتِ تُعنين..

وقبل أن تكمل قاطعتها المغربية قائلة:

— كنت أقصد زواجكِ بحسن.

بهتت سلوى فكانت المغربية قد تركت المكان قبل أن يعرض عليها حسن الزواج. وقبل أن تعلق بشيء استطردت المغربية قائلة:

— ارفضي عرضه يا سلوى؛ فليس منه غير الخراب.

تبدلت ملامح سلوى وبدا عليها الضيق، فقالت:

— لكني أنوي القبول.

سألتها المغربية بسخرية:

— فلماذا إذن أتيت في زيارتي؟ ألم تأتِ لمعرفة ما رأيت في رحلتي الأثيرية؟

أومأت سلوى برأسها أن نعم، وقالت:

— أعرف أنكِ رأيتِ ما يُنذر بسوءٍ، ولكن أليس من تأويل مختلف لما رأيتِ؟

حدقتها المغربية بنظرة ثاقبةٍ، وأجابت:

— لقد صارحتكِ بتفسيري لما رأيت والله أعلم ببواطن الأمور وظواهرها، فافعلي ما شئتِ.

دخل عابد قاطعًا الحوار تصحبه الخادمة تحمل فنجانين من القهوة.. رمقته سلوى بنظرة متفحصة فلم يعتادوا تكرار ظهوره عليهن أثناء الزيارات السابقة.. ثمة شيء

جديد قد طرأ عليه جعله يظهر وبأريحية شديدةٍ جعل الهالة الغامضة المحيطة به تتبدد.. وكعادتها لم تسأل، رغم فضولها الشديد فكل ما تعرفه عنه هو اسمه فلم تكن تعلم بزيارة بدر للمغربية ولقاؤها بعابد وما رواه لها عن حياته.

جلس معهن واشترك في الحوار، كل ما دار ببيت المغربية اليوم كان استثناءً. اختلطت رائحة البخور برائحة دخان السجائر والبن فكانت توليفة شيطانية لها تأثير السحر على سلوى، فراق لها الجو المحيط الذي أكسب كلمات وتكهنات المغربية سحرًا وجاذبية.. راحت من وقتٍ لآخرٍ تختلس النظر للكلب المحنط وكأنما تخاف أن تدب به الروح فيهجم عليها نابحًا. لاحظت المغربية هذه النظرات المختلسة فابتسمت قائلة:

— لا تقلقي لعل له النصيب الأكبر من ذكرى اسمه فينام طويلًا.

قابلت سلوى ما قالت بابتسامة لم تحمل أي معنى.

ساد الصمت فترة لا بأس بها وقبل أن تغادر سلوى قالت لها المغربية:

— ضعي في اعتباركِ أن الحلم الذي يتحقق سرًا يفقد قيمته وأن الأحلام لها موعد إن مر دون أن تتحقق فقدت معناها.. فمثلًا لا معنى لأحلام الطفولة لو تحققت

في فترة الشباب.. هل حلمٌ لكِ بلعبة ما وأنتِ طفلة قد يسعدكِ تحقيقه الآن وقد صرتِ أنثى ناضجة؟

حدقت سلوى بوجهها في صمتٍ.

وبعد قرابة الساعة انتهت زيارة سلوى لبيت المغربية. لم تغادر سلوى بقرار محدد.. ما زالت تميل لتحقيق حلم مراهقتها، وما زال شرطها الشيطاني يعبث بعقلها

وأخيرًا قررت سلوى بعد عدة أيام قبول الزواج، فكان هذا مرهونًا بقبوله شرطها.. لعلها أرادت أن تُصعّب عليه الأمور وترسل الكرة لملعبه فيتخذ هو القرار.. لكن حسن قبل أن يطلّق شمية وأن يتزوجها زواجًا شرعيًا.. سيحقق هو الآخر حلم مراهقته فقد ماتت أم حسن وما عاد هناك من يمنعه عن حلمه، هكذا قررت سلوى أن تُحقق حلم مراهقتها ضاربة بكلام المغربية عرض الحائط.

•••

سلوى وحسن

اليوم يوم زفاف مراهقتها الذبيحة.. هكذا فكرت سلوى، رجل طالما زار أحلام صباها.. تزوجت حسن بعد أن صارحها بأنه طلّق زوجته كما اشترطت، فانتشت وأحست متعة الانتصار، انتصارها على امرأة في القبر اسمها أم حسن، وعلى تقاليد مجتمع جائر سلبها حقها في الزواج ممن تحب بسبب شعرها المنسدل وشفتاها القابضتان دومًا على سيجارة هزيلة، ليست أقل بؤسًا منها.

كانت ليلة حالمة سكب فيها حسن حبه بأذنيها وجسدها فنفذ لكل خلية بها ليبعث بها الحياة فاستقبلته بحفاوة نبتة حُرمت الماء حتى هزلت وانحنى عودها.. حين يأتِ الحب زخات بعد طول حرمان فهو النعيم بعينيه أما أن يأتِ كالطوفان فهو لا شيء عدا الجنون، واليوم كان أول عهد سلوى بالجنون.

وفي رقعة ضيقة امتلكتها سلوى بين ذراعي حسن صارت تقضي أغلب أوقاتها دون أن تمل ضيق المكان أو تزهد متعته.. هناك اكتسبت كل أنواع المعرفة غير منتقصة، فعرفت أن الحب الأول هو الأبقى والأقوى، وعرفت أن لكل إنسان مساحة تقفز روحه إليها وهناك تكتشف ذاتها وتبني هويتها فتعود للجسد محملة بالمعرفة،

لكنها الآن تخشى قانون اكتساب المعرفة المحرّمة، تخشى أن تنزل من جنتها مطرودة لتجرأها على ثمرة من ثمار شجرتها. ترى هل ذاقت الكثير من ثمار الشجرة فاستحقت أن ينزل بها العقاب يومًا ما!

هكذا مرت الأيام بينهما رقيقة، عذبة، حالمة، أحست فيها سلوى أنها وُلدت من جديد لكنها لم تلد لأم بل ولِدت لرجل، هي أنثى خرجت من ضلع حسن لا من رحم أم، فلم تبكي شأنها شأن المواليد جميعًا بل كانت صامتة هذا الصمت الناطق البليغ الذي يقول الكثير، وقد قال صمتها إنها تعشقه كما لم تتصور أن تعشق.. كيف فكرت لحظة في رفض عرضه بالزواج منها؟

لم يكن يعكر صفو سمائهما عدا كلمات المغربية، فكانت سلوى تنتظرها وتترقب تحققها في خوفٍ، هكذا أفسدت عليها المغربية لحظات كثيرة من المتعة إلى أن أتى يوم ورأت بوادرها.

كانت سلوى ترتب أغراض حسن استعدادًا للسفر معه لقضاء بضعة أيام بشقته الصغيرة بالإسكندرية؛ حيث يذهب لإنجاز بعض الأعمال التي كلفته بها الشركة، وهي عادة تعودت عليها منذ اليوم الأول لزواجهما فصدقته رغم أنها لم تسمع من قبل أن عمله يقتضي منه الذهاب إلى

لإسكندرية.. عقدت المفاجأة لسانها حين عثرت على أغراضًا نسائية من ثياب وخلافه أخفاها، على ما يبدو بين طيات ثيابه أو ربما دستهم لها الأخرى معلنة عن وجودها.. ألجمتها الصدمة وعطلت كل عملياتها العقلية فلم تستطع أن تعقل الأمر، لم تفهم غير أنه قانون اكتساب المعرفة المحرمة.. لقد عرفت الكثير فاستحقت عليه العقاب، عرفت معنى السعادة، لا يحق لأنسى أن يعرف معنى السعادة بحق، فإن بلغها فهي النهاية، وقد تجرأت سلوى وبلغتها وعرفت مذاقها، لعلهم يقيمون عليها الحد أو يزجون بها من أعلى البناية قبل أن تنشر دعواها. ثمة أسرار كونية يحظر نشرها.

حاولت أن تتمالك نفسها وتستجمع ما تبقى من شتاتها فتذكرت كيف ادعى حسن أنه مُكلفٌ بعملٍ من قِبل الشركة التي يعمل بها، يضطره للمبيت بالإسكندرية يومين من كل أسبوع.. لم ترتب للأمر؛ فهي لم تشك لحظة في حبه لها، لم تشك إن رقعتها الصغيرة التي عرفت بها السعادة تتردد عليها أخرى فتخلع ثيابها وتطرحها أرضًا في فوضى من اللذة والاستمتاع وتسير حافية القدمين وتحل شعرها المعقوص وتطلق لأنوثتها العنان تمامًا كما تفعل.. تُرى من تكون؟ من تجرأت على اقتحام خلوتها ورقعة أرضها

المقدسة؟ هل هي شمية زوجته السابقة؟ لقد أقسم أنه طلقها، صحيح أنها لم تتحقق من صحة ما قال لكنها تثق به، فكيف يحتفظ بمن كانت السبب في حرمانه منها ذات يومٍ!

قررت أن تحتفظ بالأمر بداخلها؛ حتى تكتشف بنفسها الحقيقة وعندها فقط ستضرب بيد من حديد وتدك ما بين ذراعيه قبل رحيلها فلا يصلح سكنًا لامرأة أخرى.

هي أنثى من نارٍ إن رحلت أحرقت كل شيء فلا تترك لغيرها حتى الفتات، فقط رماد وخراب.

عاد حسن في هذه الأثناء من عمله فوجدها مبتسمة في هدوءٍ وسكينةٍ، جميلة كعادتها، فحين تنطفئ النار ويخمد الحريق يخمد معه كل شيء في أريحية عجيبة هي أريحية أشبه بأريحية البرزخ حيث يمكث الموتى مرتقبين الحساب.. وقد انطفأت جذوة سعادتها وبقيت نار أشد اضطراما، نار غضبها.

ضمها إليه وطبع على جبينها قبلة حانية نزلت بها كلدغة عقرب، لكنها تجرعت ألمها في سكونٍ، فلم تنتفض لها فقط بقيت صامتة مبتسمة تتبعه بنظراتها دون أن تسقط الابتسامة عن شفتيها، ثم قالت في سكينة:

— لن أستطيع السفر اليوم.

سألها في دهشة:

— ما السبب؟

أجابته:

— شعرت ببعض التعب المفاجئ، يبدو أنها نوبة من نوبات المغص الكلوي التي تداهمني من وقت لآخر.. أحتاج للراحة بعض الوقت، لكني أعددت لك حقيبتك تستطيع أن تسافر وسنعوضها الأسبوع القادم.

قال مستنكرًا لعرضها السخي:

— كيف أتركك وأنتِ مريضة؟! سأبقى معك.

قاطعته قائلة:

— بل ستسافر، فقد طلبت من وفية أن تقضي معي الليلة وهي على قيد الوصول.. فقط أبلغني عند وصولك لأطمئن عليك.

بدت مختلفة لكنه ظنه الإعياء والألم.

اضطر حسن للرضوخ بعد أن ألحت عليه كثيرًا في الأمر، لم يلحظ أنه إلحاح صياد نصب شرك لفريسة ينتظر سقوطها في شغف ونفاذ صبرٍ وأخيرًا خضع لإلحاحها واضطر أن يغادر على وعد بأن تطمئنه عليها من آن لآخر.

رحل حسن لكنه لم يصطحب معه ألمها ووخزات كبرياؤها الجريح، والآف من الهواجس التي تنهش في

جسدها.. مضى عليها الوقت طويلًا حتى رن جرس الهاتف وأتاها صوت حسن معلنًا وصوله.. تحدثت إليه برقة وهدوء هو أشبه بثوانٍ من سكنات دافئة صامتة تسبق رعد وبرق وعواصف تتأهب فيهم السماء للضرب بقوة وبطش، هي حيلة من حيل الطبيعة المألوفة، التظاهر بالخمول والنوم لتضفي على المفاجأة وحشية ووجلٍ ورهبةٍ، تستمتع برؤية ردة فعلها بعيون البشر ووجوههم الفزعة.

أنهت سلوى المكالمة وهي واثقة من وجود الأخرى بجواره ملاصقة له، تكاد تسمع أنفاسها كلصّ يقف في العتمة ملاصقًا للجدار، كاتمًا أنفاسه بصدر خائفٍ متهدجٍ.

تثق أنها معه فقد عرفت طبيعة زوجها، وطبيعة وحش جائع أهوج يسكن جوفه لا يصبر يومًا على الجوع، هو جوع عاطفي جسدي، لا يسكن إلا حين يقدم له قربانا أنثويًا كل يوم ينام بعدها ليلة كاملة ليصحو في اليوم التالي يبحث عن قربانه.. ظنت نفسها القربان الوحيد الذي يرضيه ويسري الخدر بالوحش الذي يسكنه، لكنها الآن أدركت أن الوحوش لا تحدد نوع القربان كما لا يعنيها أن تحبه فقط تقبله وتشبع جوعها.

بدلت ثيابها ومضت تكمل خطتها فغادرت إلى الإسكندرية.

وقفت سلوى أمام شقة حسن ببناية قديمة على الكورنيش بالعصافرة.. دقت الجرس وبعد دقائق معدودة، بدت لها ساعاتٍ، فتحت الباب امرأة شقراء متوسطة الجمال بمثل عمرها تقريبًا ترتدي جلبابًا بيت من هذا النوع الذي ترتديه أغلب الزوجات المصريات ضاربات بأنوثتهن عرض الحائط.. تأكدت عندها إنها ليست عشيقة، هي زوجة. لا تلبس العشيقات هذه الثياب، فالعشيقات يعكفن على تزيين إناثهن وشحذ هممهن حتى يبدين أجمل من الزوجات، لا يناسبهن إذًا هذا الثوب الفضفاض.. هي إذًا زوجته الأولى شمية.

بقيت شمية مشدوهة لحظات فلم تلتق إحداهن الأخرى من قبل.. لكن إحساس الأنثى حسم الأمر فتعارف قلبيهما وتعاركا كبريائهما دون أدنى محاولة للتعارف أو العراك.. أقبل حسن بثياب البيت يحمل صينية عليها فنجانين من الشاي، هي إذًا الطقوس ذاتها.. طقوس التهام القربان الأنثوي اليومي، حينما يثور كل شيء وتضطرم النار إلى أن يخمد كل شيء فينم الوحش راضيًا مرضيًا بجوار بقايا القربان المهترئة.. أتراه يأخذ سمية لرقعتها المفضلة بين ذراعيه؟ أتراه يكرر عليها الكلمات ذاتها ويعزف لها الألحان لترضى؟

تيبس حسن بموضعه فلم ينبس ولم تخرج ألسنة لهب وحشه ففُقد لسانيهما.. مرت لحظات سكون لا تتناسب مع الموقف، ففي المواقف المشابهة يصير صخبًا وجلبة صعبة المراس، فقد تصرخ النساء أو تبكي وقد ينسج الرجال الأكاذيب، لكن ثمة صخب واحد لا ضجة فيه هو صخب الموت، هي إذًا لحظة موت لا عراك.

عادت سلوى من حيث أتت، وحين صلت البيت الذي جمعها هي وحسن، انفجرت في البكاء.. لم تكن تبكي ألمًا بل تبكي موتًا.. هو بكاء حداد لا مرض، فراق لا عراكٍ.

كيف لسلوى القوية الصلبة أن تبكي؟ لا تذكر آخر مرة بكت فيها، ربما وهي طفلة! حتى الموت لم يكن ليبكيها.. لا تذكر أنها بكت لوفاة أحد من أهلها، بل إنها لم تبكِ حين هجرها حسن وتزوج بغيرها.. فماذا يبكيها الآن؟ لعل الخيانة أكثر ضراوة من الفراق، لعلها عشقت بحقٍ وذاقت طعم الطوفان، وحين تجتمع الخيانة والعشق فهي توليفة موت بطئ تسحق الضعفاء وتُبكي الأقوياء.

شردت لحظة مسترجعة كلمات المغربية لها.

«إن الأحلام لها موعدٌ إن مرّ دون أن تتحقق فقدت معناها، فمثلًا لا معنى لأحلام الطفولة لو تحققت في فترة الشباب».

ابتسمت ابتسامة شاحبة هي أقرب للبكاء وتمتمت:

— «صدقت المغربية.»

نامت سلوى بكامل ثيابها على أريكة صغيرة بغرفة المعيشة بعد أن ابتلعت قرصين من المنوّم الذي ظنت نفسها قد شفيت من إدمانها له.. دخل حسن الشقة قُبيل الفجر ليجدها مستغرقة في النوم، لقد قاد السيارة بسرعة جنونية ونجا من عشرات الحوادث المميتة لا محالة، لم يكن يفكر بشيء أو يرى شيئًا عدا وجه سلوى.. هو حقًا يعشقها ولا يحتمل فراقها لكنه لم يستطع أن يُطلق سُمية.. ثمة شيء يربطه بُسمية لعل الوحش الذي يسكنه لا ترضيه من قرابين النساء غيرها، لكن لا علاقة لقلبه بنزوات هذا الوحش الهمجي الذي يسكنه.. فقلبه يعشق سلوى ويكتفي بها لكنه هذا الوحش الملعون.

لم يدر حسن أي عتاب قد يدور بينه وبين سلوى.. أي كلمات قد تشفي غليلها وتعيدها لرقعتها بين ذراعيه.. استيقظت سلوى لتجده جاثمًا أمامها ينتظر أن تصحو رغم ثقته أن صحوتها قد تميت أشياء كثيرة بينهما.. رمقته بنظرة خاطفة وهمت أن تقف فدفعها برفق قائلًا:

— اسمعيني يا سلوى، كان شرطكِ كي نتزوج أن أطلّق سُمية لكني لم أستطع كما لم أستطع أن أفقدكِ..

أنتِ حبيبتي وهي أمّ أولادي.. لو تخليت عنها بعد هذا العمر لكنت ندلًا وأنا لست كذلك وأنتِ تعلمين، لقد حاولت أن أرضيكِ لكني فشلت.. وحين عرضت عليها الأمر اختارت أن تبقى معي ولو في السرّ.

صمت لحظات ثم أضاف:

— من حقكِ أن ترفضي البقاء معي، لكني أستحلفكِ أن تفكري بالأمر قبل أن تأخذي قراركِ الأخير وأن تضعي في الاعتبار أننا لم نشعر بالسعادة إلا حين تزوجنا.. أنتِ نفسكِ لم تصبحي سعيدة إلا معي.

رحل حسن تاركًا سلوى تفكر فتارة تلعنه وتلعن حبها له وتقرر الطلاق وأخرى تحدّث نفسها أن لا مانع طالما كانت سعيدة.. انتهت حيرة سلوى بعد قرابة الأسبوعين بقرارها بأن حسن من حقه الاحتفاظ بزوجته، لعله إلى حين لم تقرره بعد.

مرت الأيام ولم تسعد سلوى بسماحها لحسن بالاحتفاظ بزوجته، ربما حدث في البداية أن حاولت التغلب على مشاعر الغيرة التي كانت تنتابها كلما علمت بوجوده معها، لكنها سرعان ما أدركت أنها ألقت بنفسها للتَّهلكة.. هي تهلكة من نوع خاص، وهو هلاك لا يشبه الهلاك في شيء، فربما كان فيه من عذابه لكن ينقصه راحته، فالهلاك موت

والموت راحة وهي لم تستشعر الراحة فيه فقط العذاب والألم.. فما أقسى أن يأتيها حسن من عند الأخرى فيدخل ليتحمم، وهي على يقين أنه يغسل عن جسده آثار امرأة أخرى وبصمات أصابعها.. ودت لو اعترفت له بأنه مهما جرى الماء بجسده لن يزيل رائحة أنفاسها وعطرها الأنثوي، تكاد ترى الرائحة ولا تشمها فحسب، هي رائحة ترسم لها خيالاتٍ وصورٍ قد لا يكن لها وجودًا خارج حدود خيالها، لكنها تعذبها وتنال منها فتتلف أعصابها وتدمرها وتتركها بين يديه جثة امرأة لا امرأة قادرة على ترك بصمات أنوثتها هي الأخرى.

هكذا مرت شهور على معرفتها بوجود الأخرى ، صنعت فيها سلوى قناعًا خاصًا بها ودأبت على ارتداءه وكلما ازداد الجرح ضراوة ازدادت هي تظاهرًا بالقوة، فتكن كمن يسخر من عاهته شأنها شأن البدينة التي لا تترك فرصة أو مناسبة إلا وسخرت من البدانة والبدينات جميعًا.. كذلك كانت سلوى تجلس مع نصفيها الآخرين وفية وبدر فتضحك لتغطي ضحكتها على أنين داخلي صاخب ونحيب قد يحدث أن يعلو صوته فوق صوت ضحكاتها فتعرف أنها بحاجة لمزيد من الضحك الهستيري.. كانتا تحسدانها على قوتها وصلابتها، لم يتخيلا لحظة أن وراء كل هذا قلب

صغير يجلس القرفصاء يسند ظهره للحائط ويلقي برأسه فوق ركبتيه مطلقًا العنان لأحزانه باكيًا.

لم تصدق سلوى خطبته العصماء عن الضمير وأم الأولاد والنذالة وخلافه، فكانت تعرف جيدًا أن الوحش الجائع بداخله هو من استبقى سُمية وليس نداء الواجب الذي يزعمه، لكنها حاولت أن تُكذب نفسها تارة وتتهمها تارة بالبلاهة فحسن يحبها وحدها.. لعلها لا تعرف أن الوحوش لا تتغذى على الحب وتفضّل عليه قربانًا من نوعٍ آخر.

هكذا مضت الأيام ثقيلة بينهما إلى أن كان يوم فيه استرقت سلوى السمع لمحادثة هاتفية بين حسن وسُمية، كانت محادثة بين الوحش والقربان لا الزوج وأم الأولاد، حينها قطعت شرايين علاقتها بحسن وتركتها تنزف حتى الموت.

جلست بحافة الفراش وبوجهها انطباع أن اخلعي قناعكِ فأنتِ الآن وحدكِ بالمكان، لستِ بحاجة لأقنعة، ابكي وثوري وجعدي وجهكِ واكمشي ملامحكِ، أنتِ الآن حرة الإحساس فكفّي عنكِ معاناة التظاهر.

أدركتِ عندها أنه آن لها الخروج من الجنة، أدركتِ أيضًا أن لحلمها وقت وصلاحية شأن علب اللبن والفاكهة والخضروات، وقد انتهت صلاحيته فكان الأجدر بها أن

تعدمه.

•••

المجلّة

لم يخطر ببال وفية أن يكن أحد التوأمين خالد، جزءًا من مغامرتها التي أتاها بها وليد على طبق فضي فقلبت حياتها رأسًا على عقب، انطبقت على خالد شروط إنجاح مغامرتها فرغم أنه جارها إلا أنها لم يسبق لها الاختلاط به بشكلٍ مباشرٍ.

استعان وليد بخالد لبدء مشروعه، فقد درس خالد الإعلام بجامعة كاليفورنيا وعمل بهذا المجال فترة ليست بالهينة وعاد بخبرة لا يُستهان بها، فعمل فترة كمصمم موقع وكمحرر صحفي كما عمل مدة لا بأس بها بمجال الدعايا والإعلان.

تكررت اللقاءات بين ثلاثتهم وفية ووليد وخالد وبقية الفريق الإعلامي، الذي عمد وليد أن يتخيرهم من الشباب ومن بينهم صديقه وشريكه بالمشروع.. تم وضع حجر الأساس للمشروع أو بالأحرى للمغامرة كما أسمتها وفية.. فبدأوا بحضور دورات وورش عمل عديدة بهذا المجال وقضوا بعدها فترة طويلة يعدون للمجلة ويحصلون على التراخيص اللازمة ويتخيرون مكانًا مناسبًا ليكون مقرًا لهم فوقع اختيارهم على شقة صغيرة مكونة من ثلاث غرف وصالة استقبال، وجدوها مناسبة كبداية لهم.

كانت فترة الإعداد كافية لتذيب الجليد بين وفية وخالد، راحوا يتخيرون معًا أبواب المجلة فاستقروا على تخصيص باب للغيبيات واتفقوا في تسميته «عزيزة المغربية» وقرروا أن يعتمدوا على عزيزة بصورة أساسية في تحرير هذا الباب، فكانوا على ثقة من قدرتها على إنجاحه بل وجعله أكثر أبواب المجلة جذبًا للقراء.

وبالفعل صار لهذا الباب تحديدًا صيتًا ذائعًا فكانت المغربية تتخير إحدى الموضوعات الغيبية لمناقشتها في سلسلة من الأعداد المتتالية، ومنها سلسلة عن الأحلام فكان القراء يرسلون إليها بأحلامهم لتفسرها، والأهم من هذا أنها كانت تُعلم القراء أسس قراءة الفنجان، فكانت تنشر صورًا لنقوش فناجين من الداخل وتفسر الخطوط والأشكال.

صدر العدد الأول من المجلة، مجلة «الحسناء» كان غلاف المجلة صورة للمغربية وموضوع العدد «الإسقاط النجمي» وهو عبارة عن حوار أجراه أحد الصحفيين الصغار مع المغربية.. أما الباب الخاص بالمغربية فكان بهذا العدد عبارة عن تفسير الأحلام ومساعدة القراء لحل بعض المشكلات ببعض آيات القرآن والرقية الشرعية وتفسير بعض الظواهر الخارقة للعادة التي يسأل عنها جمهور

المجلة.

وكانت وفية مسئولة عن باب «قالت» وهو عبارة عن خواطر شعرية أسبوعية تكتبها وفية فكتبت بهذا العدد ما عبر كثيرًا عنها:

قالت..

«حين قد يمضي من العمرِ

لا يحسب بعضًا من عمرِ

وبحين آخر قد نقضي

لحظات نحسبها عمر».

كما كتبت بعض الخواطر الشعرية على هذا النحو..

«نعم حط طيري بعشك ولكن ما زالت له أجنحة»

«إن تبذر للأحلام حبًا وتنتظر ليست الأحلام طيور..»

«لي قلب عزيز النفس تحسبه غني من التعفف..»

«لي كبريا لا يغمض له جفن إن ارتخت رأسه بضع سنتيمترات..»

•••

لاقت المجلة استحسان القراء وصار لها جمهورًا لا بأس به.. انضم عابد للمجلة فصار مصور المجلة الخاص وكذلك مشرفًا على باب «رحلة في كلمتين».

هكذا بدأ حلم وفية يتحقق بنجاح المجلة، لكنه ما زال

حلمًا ناقصًا ما زالت تبحث فيه عن مغامرتها... الآف المشاعر والأحاسيس تنتظرها.. لقد فاتها الكثير مع حامد. انتابتها حالة غريبة من الحنين للمشاعر، فكانت تتابع الأفلام الرومانسية فتتصفح المشاعر والأحاسيس كمن تتصفح ثياب لتنتقي ما ترتديه فتقل لنفسها، لم أمرّ بهذا ولم أشعر بذاك.

•••

خالد

صار خالد ووفية متلازمان أغلب الوقت، كان بداية تلازمًا مهنيًا يشوبه صداقة ثم انقلب الأمر فصارت صداقة يشوبها بعض المهنية، ثم تطور الأمر لمشاعر ربما أسموها مجازًا حبًا، اختفى وليد من الصورة فصارت كل الصور ثنائية تضم وفية وخالد وكأنما مضى وليد يبحث عن غاية أسمى من الحب ومتابعة البطون المنتفخة بحسرةٍ وألمٍ.. ثمة شيء جديد تراءى له بصورة مشوشة فظل يرقبه باهتمام وتأنٍ كأنما يخشى فقدانه.. كان هذا الشيء له مذاق الرضا عن النفس والقناعة، إنه النجاح.

ليس ثمة شيء قادرًا على محو الألم وتزاحم الأفكار السوداء بالعقل مثلما يفعل هذا الساحر.. النجاح.

بدا لها خالد أقرب صورة للرجل الذي حدثتها عنه المغربية شكلًا وموضوعًا، فهيئته تحمل بعض لمحات جنون تعد بمغامرة وشيكة لا محالة.. هو طويل القامة، هادئ الملامح، يعقص شعره الأملس، الملامس لأكتافه للوراء، ويعلق بصدره سلسلة فضية تحمل مفتاح الحياة، ويضع بإصبعه خاتمًا فضيا له حجر كبير من العقيق.

كان خالد من هذا النوع من الرجال الذي يأتي بكل ما عنده وإن كان مخجلًا مشينًا، عقله يكاد يكون غائبًا أو ربما

مغيبًا.. تحسه يتعلق بها كالطفل الصغير، وترى بعفويته في إظهار فجاجة طباعه طفولة شيطانية تغفر له كل ما يخرج عن السياق.. أحسته يكمل نواقصها، أحيانًا يحتاج السكون لشيء من الجنون ليبعث به الحياة، هكذا أحسته نوبة من نوبات جنونها ونزوات تمردها.. ووجدت في هذا العشوائي ضالتها أو لعلها ضلالتها.

كانت وفية، مع كل يوم يمر، تنجذب لخالد بعنف لا تمسك زمامه رغم تعدد علاقاته النسائية، وهو أمر لم يخف عليها، فبكل كلمة يتفوه بها تشتم عطرًا أنثويًا عتيقًا ويشوب لغته مفرداتًا أنثوية تدل - لا محالة- على مخالطة النساء لفترات طويلة تسمح له بذوبان الفوارق واختلاط الكيانين الذكوري والأنثوي حتى تكاد لا تخل لغة أحدهما من مفردات الآخر.

لم تكن بحاجة لسؤاله في هذا الأمر فقد أتاها بغنيمة لم تكن تحلم بها دون أن تبذل أدنى جهد أو تحرك ساكنًا، حدث هذا بأحد اللقاءات حين دعاها لتناول الغذاء بأحد المطاعم فاعترف لها بإعجابه بها، فقال:

— رغم أنه كانت لي علاقات كثيرة، لعل بعضها أيضًا تعدت الخطوط الحمراء، لكني أجدني مشدودًا إليكِ كما لم يسبق أن يحدث لي.

تجاهلت النصف الثاني مما قال وسألته بفضول أنثوي ثاقب:

— ماذا تعني بالخطوط الحمراء؟

أجاب بجرأة ربما حسدته عليها:

— أقصد علاقات حميمية بنساءٍ متزوجاتٍ.

سألته متعجبة مكررة عليه الكلمة ذاتها:

— متزوجات؟!

ابتسم وهو يعبث بشاربه كأنما يمنح نفسه فرصة للتفكير، ثم أجاب:

— وما الفارق إن كن متزوجات أم لا؟ هل تختلف تركيبة المتزوجة عن الغير متزوجة؟ كلاهما أنثى تشعر وتحب وتنجذب.. هذا هو الفرق بين العقلية المصرية ومثيلتها الأجنبية، ففي مصر نتصور أن عقد الزواج هو صك ملكية أبدية للجسد والقلب، أما بالخارج فتخرج الأمور عن هذا السياق فلا تُملك القلوب بصكوك. هناك يرون المرأة إنسانًا وليس ملاكًا، هي كيانٌ خطّاءٌ يخضع لكل ما هو إنساني وبشري، والخطأ صفة بشرية أليس كذلك؟

أردفت قائلة:

— لا تحاول تبرير الخطأ لا أحد يدافع عن حرية

المرأة مثلي، لكن شتان الفرق بين الحرية والسرقة، والخيانة سرقة، والنساء لسن لصوصًا عاهرات.

قاطعها قائلًا:

— لم أعنِ ما فهمت، كل ما قصدته أن للمرأة مشاعر قد تغلبها أو تتغلب عليها، ومحرك المرأة المشاعر والأحاسيس وتلك قوة لا يُستهان بها، فليس من الحكمة أن نُلبس المرأة ثوب القديسين، أن نحبسها في صورة السيدة العذراء.. لم تبث العذراء شيئًا منها في نساء العالمين ليصرن بطهرها وعفتها. هن بشر وهي أنثى مصطفاة لتحمل أحشاؤها نبيًا، والبطون التي خُلقت لحمل الأنبياء ليست كمثيلاتها فليست المقارنة عادلة.

أيدته في القول، قائلة:

— أتفق معك، ولكني ما زلت مصرة أن هذا لا يبرر الخيانة.

بدت كمن تذكر شيئًا على حين غرة، فقالت:

— وزوجتك؟ ألم تعلم بأمر علاقاتك؟

أجابها بابتسامة ساخرة:

— بل كانت تعرف كل شيء.

— وماذا كان رد فعلها؟

أجابها ببساطة لا تتناسب مع الرد، قائلًا:

— في المرة الأخيرة طلبت الطلاق وقد كان.

سرح بعينيه بعيدًا بابتسامة عريضة، لم تتناسب هي الأخرى مع طبيعة الذكرى، كأنما يسترجع ما حدث بحذافيره، ثم قال دون أن ينتظر منها المزيد من الاستفسارات:

— كنت على علاقة بامرأة متزوجة وأمٍّ لبنتين.. كانت علاقة قائمة على الحاجة وليست العاطفة.

استوقفته متعجبة:

— الحاجة؟!

أجاب بالبساطة ذاتها:

— نعم الحاجة، أو بالأحرى الاحتياج، أقصد احتياج أنثى لرجل.

استوقفته قائلة:

— أنثى لرجلٍ أم رجل لأنثى، أم كلاهما؟

أجابها:

— لم تكن حاجتي لها تتعدى حاجتي لفنجانٍ من القهوة، اعتدت أن أشربه مع سيجارة فأشبع عادةً وليست حاجةً.

قالها وسحب نفسًا عميقًا من سيجارة عالقة بين أصبعيه وأطلق سحابة دخان كثيفة غطت ملامحه للحظة ثم

سرعان ما تبددت، فاسترسل قائلًا:

— كان زوجها يعمل ببلد عربي، يكبرها بخمسة عشر عامًا ربما حالت دونهما، فلم يدرك حاجتها الأنثوية الملحة لوجود رجل لا لوجود ثري وممول عربي، يأتيها ثلاثين يومًا بعد عامٍ كاملٍ من الجفاف ليروي فيهم ما مات أو ذبل من زرعها ظانًا أن فيضان شهر قد يعوض جفاف أيام وشهور عجاف، ليت للنساء قدرة الجمل على اختزان الزاد واجتراره عند شدة الجوع.. فكم قتلها الجوع لكنها لا تملك موهبة الاجترار.

بقيت تراقبه باهتمامٍ لا تود مقاطعته كأنما تخشى أن يفيق من نوبة صراحة داهمته دون سببٍ قد يندم عليها لاحقًا. تركته يسترسل في الكلام، فقال:

— اعتدت التردد عليها في عطلة نهاية الأسبوع، كنت أقضي معها يومين أو ثلاث بفيلتها الفاخرة ثم أرحل تاركًا إياها تترقب بنفاذ صبر انقضاء أيام الأسبوع البطيئة لأعود إليها من جديد.

استوقفته، لتسأل:

— وأين تكن طفلتيها في تلك الأيام التي تقضيها معها؟

أجابها ببرودٍ مستفز:

— معنا، يبدو أنهما كانتا تفتقدان الأبّ كما كانت هي تفتقد الرجل.. كانتا تعشقان وجودي بينهما، فأجالسهما وأتحدث إليهما كصديق ونخرج سويًا كما لو كنت والدهما، كنت أحيانًا أعدّ لهما الطعام وأقص عليهما حكايات حتى صارت زياراتي طقوسًا مقدسة ينتظراها بوجلٍ وشغفٍ كما لم ينتظرا أباهما، وتنتظر هي طقوسا تداعب مشاعرها كأنثى وترسم بجدران بيتها ذكريات رجل وامرأة.. فأكثر ما يهدم البيوت خلو جدرانها من الذكريات، فالذكريات كالصور والبراويز التي نعلقها فوق الجدران فإن وقع عليها بصرنا ابتسمنا وهمس كل منا لنفسه هل تذكرين هذا اليوم؟ لكن ثمة ذكريات أخرى لا تلتقطها عدسة آلة التصوير لكنها تترك أثرها فوق الجدران، فبقدر ذكريات جدران بيتكِ بقدر سعادتكِ وقدر ارتباطكِ بهذه السعادة وسعيكِ للحفاظ عليها، وقد كانت جدرانها دائمًا خاوية، لم يكن الشهر الذي يمنّ عليها زوجها به يكفي لأكثر من دق مسمارًا جديدًا بنعش أنوثتها لا يقوى على حمل بروازًا لذكرى واحدة.

لاحظ شرودها فسألها:

— يبدو أن حديثي قد أثار بكِ الخوف مني، لكني تعمدت أن أكون صريحًا معكِ لأقصى درجة، فقد

تطمئنكِ صراحتي.

صمتت لحظات وجيزة تبتلع حنقها وإزدرائها معًا، ولعلها بالكاد منعت نفسها من إفراغ معدتها ثم علقت باشمئزازٍ صريحٍ، فقالت ما لم يتوقعه:

— حتمًا تعرف حكاية ريا وسكينة؟

أومأ برأسه أن نعم، وقال:

— لكن لماذا تسألين؟

أضافت:

— ما جعل حكايتهما حية لا تمت نتناقلها حتى يومنا هذا ليست فكرة القتل في حد ذاتها، بل شذوذهما عن كل مألوفٍ، عن كل معاني الإنسانية حيث اعتادا دفن جثث قتلاهما بالمكان ذاته الذي يعيشان به.

سألها متعجبًا:

— وما ذكركِ بهما الآن؟

ابتسمت بأسى وقالت:

— أنتَ وعشيقتك لا تختلفان كثيرًا عنهما، الشذوذ ذاته.. لا فرق بينكما وبين ريا وسكينة.. تتكلم عن الذكريات المحفورة فوق الجدران هما أيضًا رسما ذكريات بالدم فوق الجدران لكنها ذكريات لم تكن لترسم بسمة على الشفاة بل لعلها تبثق متقززة مشمئزة.

تجاهل ما قالت، وأردف قائلًا:

— لا تنسي أنني أمضيت حياتي كلها تقريبًا بمجتمع أجنبي لا يسمى مثل هذه الأفعال شذوذًا ولا يصنف ممارسيها لأشباه ريا وسكينة.. على أية حال دعكِ مني ومن أفعالي، لقد حدثتكِ كثيرًا عن نفسي بصراحة، هي أقرب «للبجاحة» دون أن أخفي شيئًا وما زلت صامتة ألا تتكلمين فتخبريني بشيء عنكِ؟

تجاهلت ما قال ليس عن عمدٍ؛ فكانت شاردة لعلها وجدت بثرثرة خالد ما يلهمها بقصة جديدة تنشرها بالمجلة. ثم استدركت ما قال فأردفت قائلة:

— ليس عندي ما أقصه عليك غير أني لم أقنع يومًا بحياتي، كان دائمًا بداخلي ثمة يقين أني لست مجرد امرأة وأمّ، يسيطر عليّ ربما منذ طفولتي إحساس بأنني مختلفة وسأصبح شخصية عامة مشهورة بشكلٍ أو بآخر.

شردت بعينيها بعيدًا، وعادت لتضيف بابتسامةٍ حالمةٍ:

— في طفولتي كنت أشعر طوال الوقت أني ممثلة في فيلم أو رواية ما وأن هناك ثمة جمهور يشاهدني ويستمتع بتمثيلي ويصفق لي حتى أنحني بدوري تحية له. وكنت أحدث نفسي أنه سيأتي اليوم الذي ألتقي فيه

بجمهوري فيعبرون لي عن إعجابهم ويطلبون توقيعي، وأحيانًا أخرى كنت أتصور أني يومًا ما سأكون ضيفة في برنامج تليفزيوني أتحدث عن نجاحي الباهر، وانتهت كل هذه الخيالات بزواجي من حامد، وتبددت أحلامي غير أنها ظلت من فترة لأخرى تنازع محاولة البقاء بقيد الحياة فبقيت دائمًا في حالة احتضار.

سألها وهو يرفع خصلة طويلة من شعره للوراء، فقال:

— هل كان يحبكِ؟

أجابت:

— الأجدر أن تسأل، هل كنتِ تحبينه؟

وهمّ أن يسألها فسارعت بالرد، وقالت:

— لا، لم يحدث أن شعرت أني أحبه، ربما أحبني هو ولكن هذا النوع من الحب المرضي الذي قد يرقى لمرتبة الكراهية فكنت دائمًا أحتار في تصنيفه.

أردف قائلًا بصوتٍ يشبه الهمس اختلط برائحة الدخان:

— تعرفي أني كنت مغرمًا بكِ منذ أن كنت في سنوات الجامعة؟ كنت ألقاكِ مصادفة في الإجازات الوجيزة التي كنا نزور مصر فيها.. جذبني جمالكِ ورقتكِ ورغم جرأتي المعروفة عني إلا أنني لم أجد بي الشجاعة لأحدثكِ وقتها عن مشاعري.

ابتسم ابتسامة عريضة واسترسل في الكلام:

— هل أطلعكِ على سرّ؟

نظرت إليه بدهشة دون أن تنبس وهو يخرج شيئًا من حافظته بدا لها إنه صورة فوتوغرافية، لكنها لم تتبين ملامحها وقدمها لها قائلًا:

— ما رأيكِ بهذه الصورة؟

لم تكن غير صورة قديمة لها، تذكر أن مسيو موريس قد التقطها لها وهي في سنوات الجامعة واستأذنها في وضعها بنافذة المحل.

ابتسمت وفية وقالت:

— كيف حصلت عليها؟! أعرف إن مسيو موريس كان يرفض إعطاء صوري لأحد.

ضحك بدهاءٍ وقال:

— لقد أخذتها دون أن يدرك. كان مشغولًا بتصوير أحد الأشخاص وانتهزت الفرصة وسمحت لنفسي أن أسرقها خلسة واحتفظت بها طوال هذه السنين لم تفارقني.

سألته ساخرة، وقد بدت غير مصدقة لما قال:

— وهل كنت تأخذ الصورة معك في لقاءاتك الغرامية؟

أطلق ضحكة عالية حتى سعل بشدة وسقط من يده زمام الضحك والسعال فما استطاع السيطرة عليهما.

تمالك نفسه بعد فترة ولم يجبها قبل أن يشعل سيجارة ويطلق سحابات دخانه لتستقر بسمائها، وقال:

— هل تصدقين لو قلت لكِ أنني حقًا كنت أفعل هذا، وإن صورتكِ سببت لي العديد من المشاكل. لن أنسى حين فتشت إحداهن في حافظتي فعثرت على صورتكِ فجنّ جنونها وكادت تمزقها لولا أن جذبتها من يديها في آخر لحظة.

ابتسمت وفية مجاملة له فلم تصدق حرفًا مما قال، رمقها مبتسمًا ابتسامة حانية تغلب عليها كثير من المشاعر وقال:

— هل تريدين الجَدّ؟ أنا أحبكِ منذ أن وقع بصري عليكِ، ولم أنسكِ لحظة حتى حين تزوجت. لم تنجح زوجتي في طرد صورتكِ التي احتلتني وسيطرت عليّ، قد تظنين أنني أمزح أو أبالغ لأجذبكِ لعلاقة ما لكن ببساطةٍ شديدةٍ هذا ما حدث بالفعل.

صمت لحظة واستأنف الكلام، قائلًا:

— تعرفين يا وفية أنني متحررٌ لأبعد الحدود وأن سفري المتكرر قتل بداخلي كل ملامح الشرقية التي قد تدفعني لإغوائك أو لافتعال قصة ليس لها أساس من

الصحة. قد يحدث هذا هنا بمصر لكن بكندا فلسنا بحاجة لهذا فالأمور أبسط بكثير.

دام لقاؤهما طويلًا انتهى بوعدٍ بلقاءٍ آخر.

غادرت وفية وكل ما يسيطر عليها فكرة واحدة لم تجرؤ على البوح بها، تريد ذكريات رجل وامرأة بجدرانها! لقد وضع يدها على الشيء الذي ينقصها بحقٍ.. لم يكن لها مع حامد ذكريات رجل وامرأة ربما ذكريات ابن خالة لا ذكريات زوج.

عاشت تحلم بهذه الذكريات، لكنها تنبهت أنها لا تملك الآن جدرانًا خاصة بها فهي تشارك بدر الآن بجدران عتيقة رسمت أمها عليها ذكريات بؤسٍ وشقاءٍ. تنبهت عندها إنها يجب أن تبدأ أولًا بالبحث عن الجدران لترسم فوقها بفرشاة أنوثتها رجل وامرأة.

منذ هذا اللقاء صارت تتخيل خالد ذكرى معلقة فوق الجدار لكنه لم يعرض عليها الزواج، قال إنه يحبها، قد يحبها صديقة، يحبها عشيقة، لكنه لم يقل إنه يحبها زوجة، فكثيرًا ما تحدّث عن الحب، ولم يذكر الزواج بكلمة.. هو يعتز بثقافة الخارج ويكره ثقافة الشرق وثقافة الخارج لا تعبأ بالزواج، لكن جدرانها لن تقبل نقوشًا لم يسبقها عقد زواج.

مرت الأيام ووفية تزداد يومًا بعد يوم تعلقًا برغبتها في رسم ذكرياتها فوق الجدران وكل يوم يمضي دون أن يطلبها خالد للزواج تزداد ذبولًا وانكسارًا.. لقد أوجدت لها جدرانًا خاصة بها فاستأجرت شقة قريبة من مقر المجلة، الأمر الذي أغضب بدر لكنها استسلمت في النهاية فقد اعتادت دائمًا أن تنحني احترامًا لأنوثة وفية المجنونة، ورغباتها الغجرية صعبة المراس.

أفنت وفية نفسها ما بين الكتابة ويحيى ولقاءاتها بخالد، لكن شيئًا لم يُسكت صوتًا بداخلها ظل يطالب بحقه ويهدد بالخروج عن السياق.. لم تكن تعلم أن بداخلها ساحة سبق حيث تركض الخيول بعشوائية في شتى الاتجاهات.

ظلت وفية تجتر ألمها وتزداد ذبولًا كلما انقضى لقاء لهما ازدادت فيه تعلقًا به ولم يطلبها للزواج رغم سيل من الكلام المعسول ينزل بأعصابها فيهدهدها تارة ويتلفها أخرى، إلى أن سألته صراحة ذات يوم:

— ألا تجد الفترة الماضية كافية لتفهمني وأفهمك؟

أومأ برأسه أن نعم دون أن ينبس.

فاستجمعت شجاعتها محاولة طرد كل الأفكار الشرقية التي حاولت كبحها هامسة له:

— «ليست النساء من يطلبن الرجال للزواج أو حتى

يسألونهم عنه»

ضربت بكل محاولات الإثناء عرض الحائط، وسألته:

— ألن نتزوج؟

لم يفاجئه السؤال كثيرًا فبدا كمن كان ينتظره.

سحب سيجارة من علبة سجائره وزج بها بين شفتيه وأشعلها ثم ظل يعبث بقداحته الفضية فيديرها بإصبعه فتلف ثم يوقفها بحركة أخرى من إصبعه.. لم يحاول أن يرفع بصره عن القداحة لعدة دقائق، ثم قال:

— وفية، لقد تزوجت مرة وأنتِ كذلك وانتهت التجربتين بالفشل والطلاق، فما الداعي لتكرار تجربة ثبت عدم جدواها؟ لقد عشت سنوات طويلة محتفظًا بصورتكِ، ولم استطع أن أنساكِ وها أنا معكِ الآن وأنتِ معي.. صدقيني لو تزوجنا لكان لزواجنا المصير نفسه.. أخاف إن تزوجنا أن تفقد الصورة قيمتها وتصبح كباقي الصور.

رمقته بنظرةٍ حادةٍ كادت تحرقه، ثم أردفت متعجبة:

— معنى هذا أنك تكتفي بالعلاقة التي تجمعنا ولا تريدنا زوجين؟!

أجابها:

— لم أقصد ما فهمتِ، لكن فكرة الزواج نفسها

تفزعني، لكني طبعًا أتمناكِ زوجة غير أني أخاف القيود بشتى صورها، فقد علمني المجتمع الغربي التحرر من كل قيد.

أغضبها ما قال فكان بمثابة صفعة بوجه أنوثتها.

استجمعت قواها، وقالت بحدة امرأة مجروحة:

— وهل ستحتمل أن تراني زوجة لغيرك؟

سألها:

— هل تقصدين أنكِ تنوين العودة لحامد؟

أجابته:

— بل أنوي الزواج بأي رجل غيرك لو فقط أشعرني بصدق حبه ورغبته في البقاء معي لآخر العمر دون أن يخاف القيود.

قالتها وهبت واقفة جاذبة حقيبتها فلم تلتفت لمحاولته استبقائها، لكنه جذب ذراعها بقوةٍ أسقطتها جالسة فوق مقعدها مجددًا والتقط يديها بين كفيه، وقال بعذوبة وصوتٍ مرتعش بدا صادقًا:

— وفية، تعرفين أني أحبكِ بل أعشقكِ وأتمنى أن نعيش العمر معًا فلا أستطيع الابتعاد عنكِ لحظة لكني أخشى إن تزوجنا تحولت كل هذه المشاعر لمشاعر فاترة باردة أشبه بقطعة جليد في صدورنا. لا أريد أن أختزل

حبي لكِ في ورقة، ليست هذه الورقة دليل حب بل هي نذير فشل.

قاطعته قائلة:

— فكيف إذن تريدني معك للأبد؟ أنت تريد عشيقة لا تظهر للنور، وأنا لا أحب الظلام ولا أستطيع أن أتنفس هواءه.

قال بصوتٍ مرتعش:

— أستطيع أن أصطحبكِ معي فنعيش بكندا، وهناك لا أحد سيهتم إن كنا أزواجًا أم لا.

رمقته بنظرةٍ حادة كادت تحرقه، وقالت:

— لا أود أن أراك مجددًا وإن كان صدفة.. اختفي من حياتي تمامًا فلا أسمعك ردي على هذا العرض السخي. وهناك طلب آخر أتمنى أن تنفذه.

سألها بنظرة دون أن ينبس.. وما هو؟

فأجابت:

— أن تترك المجلة وترحل وإلا تركتها أنا، فهي لن تحتمل وجودنا معًا.

مضت وفية كالزوبعة لا تمسك زمام أي شيء بجسدها فتضطرب أنفاسها ويعلو صدرها ويهبط وتسقط الدموع من عينيها كل دون وعي أو إرادة منها.. ازدحم ذهنها

بالأفكار والمتناقضات، وسيطرت عليها فكرة واحدة، هل حررت أنوثتها من براثن حامد لتسقط فريسة يسحقها خالد. لقد حررت أنوثتها بحق لكنها لن تسمح لها بالخروج عن السياق رغم ثورتها الأنثوية فأن أنثاها أنثى بنكهة الضمير، لكنها إنسانة تحتاج حب وتشتاق وجود الآخر بحياتها، وما أصعب تلك المعادلة، معادلة الحاجة والضمير.

مضت الأيام ثقيلة الخُطى منذ أن التقت وفية بخالد للمرة الأخيرة. لم ينفذ طلبها بعد، لم يترك المجلة بل ظل أمامها تراه كل يوم فتعذبها رؤيته أكثر ما عذبها شوقها إليه.. صارت عصبية، كل شيء فيها صعب المراس، تدخن بشراهة، يلفظ جفنيها النوم أيامًا متتالية فلا يسقطا إلا لشدة الإنهاك وربما سقطا وبقيت هي ورائهما يقظة.

كيف لورقة أن تكبح المشاعر وتخنقها؟ عاشت سنوات مع ورقة ينقصها رجل واليوم عليها أن تعيش مع رجل بلا ورقة.

مرت عليها أسابيع ترى فيها خالد كل يوم بالمجلة فتسمع صوته يحدثها، فتكاد لا تسمع شيئًا. كان كل حديثه معها يخص المجلة فقط فلا يتطرق لأمور شخصية ربما أثارها تجاهله واستنفذها فكادت أن تسقط.. يتلو عليها شيطانها

كل تراتيل الإثم والعصيان، يدعوها للتمرد.. هكذا يكن للتجاهل تأثير السحر على الإناث وخاصة الحسناوات منهن.

ظل خالد متماديًا في تجاهله لها حتى التقيا بالمجلة مصادفة ذات ليلة، لم يكن من عادتها التردد على المجلة ليلًا، وحده اعتاد أن يفعل.. اصطدم بها فأسقط ما كانت تحمله من أوراقٍ انحنى يلملم ما أسقطه متحاشيًا النظر إليها حتى صاحت به، قائلة:

— أهكذا انتهى كل شيء؟

أجابها بهدوءٍ:

— أنا أحترم رغبتكِ ليس أكثر.. أنتِ من أنهيتِ الأمر.

أضافت بعصبيةٍ:

— أنهيته وراق لك هذا، أليس كذلك؟ لم تحاول أن تتحدث إليّ، فقد نقرّب وجهات النظر.

ابتسم بعذوبةٍ وقال:

— هل أستطيع إذًا أن أطلب لقاؤكِ غدًا لنفعل؟

وقبل أن تجيبه أضاف:

— سأنتظركِ غدًا بهذا العنوان.

قالها ودسّ بيديها ورقة بها عنوان شقة كان قد انتقل إليها حديثًا.

ترددت بعض الشيء، لكن سرعان ما التقمتها بيديها فهي تقدر قيمة الأوراق حق تقدير.

•••

راقب وليد نجاح مجلته بنشوة أبوية لم يعهدها في نفسه من قبل، قد يحرمنا القدر أشياءً ولجهلنا نغفل أنه باستطاعتنا أن نستشعرها بأشياءٍ أخرى.. كل شيء بالحياة خُلق طوع أيدي البشر، ولو فكرنا في حكمة خلق الخيال لأدركنا أن القدر حرمنا من ناحية لكنه وهبنا من ناحيةٍ أخرى شيطانًا فالت الزمام، لا رابط أو ضابط له اسمه الخيال، بالخيال نكمل نواقصنا جميعها في طرفة عينٍ، فلنطلق العنان لهذا الشيطان الأحمق لنرى نتيجة مذهلة.

فمن هذا الذي يزعم أن الإنجاب هو فقط إنجاب الأطفال! ما أجمل أن ننجب أشياء.. ستكون الألفية القادمة هي ألفية الأشياء لا البشر، سنكتشف فيها لغتها وضحكها وبكاؤها، ستتآلف الأشياء وتتزاوج لكنها لن تعرف البغض أو الكراهية التي عرفها البشر ولعلها تعلمنا نحن البشر كيف أن شيء لا نبض أو قلب له يستطيع أن يحب وبقوةٍ وصدقٍ، لا يعرفهما قلوب البشر، وقد نجد الأشياء تتميز بوفاء الكلاب وصبر الجمال ورقة وعذوبة العصافير. هكذا صار وليد أبًا للمرة الأولى بحياته، أبًا لشيء لا لطفلٍ. فصار

كالروائي الذي ينجب رواية والممثل الذي ينجب أفلامًا، هكذا أحس وليد، أحس أنه أنجب وليدة اسمها الحسناء، أنجبها من وفية.. وبإنجابه الحسناء شفي تمامًا من حقده على بطن منتفخ، أو طفل يكمش ثوب أمه في كفه الصغير.. هكذا خالف وليد نظرية متناقضات الأسماء فصار اسمًا على مُسمى.

أكمل وليد نقيصته واقعًا وخيالًا فعاد وليد الذي أحبته وفية لكنها لم تعد بعد وفية.. ما زالت تبحث عن نقيصتها، عن مغامرة تحل قيود أنوثتها وتكملها بورقة، لعلها تصل لفلسفة الكمال التي تعلمها وليد فتكتمل هي الأخرى بالخيال.

حين شُفى وليد تمامًا من تبعات عقمه الزائف وذاقت شفتاه مذاق الأبوة، وقتها فقط أحس بحاجته لوفية، ثمة حالة تصالح مع النفس سادت بداخله وزالت الغشاوة عن بصره فأبصر وفية، وحدها وفية لا أحد غيرها، أحس أنه استعاد مشاعره سالمة لم ينتقص منها شيئًا.

•••

قضت وفية ليلة ساهدة لم يذق جفناها طعم النوم فتحولت كل قطعة بجسدها لعين ملأها أرق وسهاد. تسيطر عليها فكرة واحدة، فكرة الجدران الخاوية، لم يعد

جسدها يحتمل المزيد من برودة وصقيع الخواء، تتطلع للكثير وتحلم بالأكثر ويسيطر عليها الخوف من العودة من مغامرتها صفر اليدين.

في الصباح التالي أخذت وفية حمامًا دافئا وارتدت إحدى الثياب التي تمعن في إبراز ملامح أنثاها الجذابة، كان ثوبًا ورديًا أنيقًا يشد خصرها بحزمٍ وإصرارٍ فيبدو أكثر رشاقة ويزيد من رشاقتها الحذاء ذو الكعب العالي الذي وقفت فوقه بثبات وتوازن امرأة محترفة، كما تعمدت أن تعقص شعرها لأعلى ووضعت زخات من عطر هادئ أخاّذ، ثم ألقت بنفسها في أول سيارة أجرة تحملها للعنوان المكتوب بالورقة.. بدت كالمنومة مغناطيسيًا، هي لا تفكر، فقط تشعر وتتخيل وترسم صورًا.. ثمة صوت داخلي يحدثها، يطن بأذنيها ويحدث جلبة تشوش عليها وتشتت ذهنها كي لا تفكر، أخذ يكرر عليها فكرة واحدة، كان حامد مرحلة وانتهت لا يجوز لكِ أن تعيشي عصر خالد بعقلية عصر حامد، حامد هو عصر عبودية ورقٍّ، أما خالد فهو عصر الانفتاح، عصر هجرت فيه العفاريت مصابيحها ومضت تحقق الأحلام والرغبات المكبوتة.

انتبهت وفية على صوت السيارة تتوقف والسائق يترقب أن تدس بيديه بضع عملات يأخذها ويرحل وقد وضعها

على أول خطوة بأعتاب المغامرة.

دلفت من السيارة ومضت برشاقة تصعد الطابق الرابع كما هو مكتوب بالورقة، وصلت أمام الشقة ودقت الجرس وهي تحت تأثير المخدّر ذاته، مخدّر اسمه الحرمان تسلل لكل خلية بجسدها.. فتح خالد الباب، كان مرتديًا سروالًا من الجينز الأزرق وقميصًا بلون السماء، ضوت سلسلته الفضية المختبئة أسفل الياقة، وبدت لحيته الطويلة بعض الشيء جذابة ببعض الشعرات البيضاء التي تنتشر بها، وكعادته عقص شعره المموج للوراء بعشوائية كما يروق له.

رحب بها ودعاها للجلوس بأحد المقاعد المودرن، فهو الطراز الغالب على أساس الشقة، وقبل أن يجلس جذب إليه طاولة شاي صغيرة يبدو أنه كان قد وضع عليها مشروبات مختلفة، وإبريق الشاي، وبعض الأكواب والفناجين.

لاحظ خالد توترها؛ فأدار بعض الموسيقى الهادئة وقدّم لها فنجانًا من الشاي فقد لاحظ برودة أطرافها حين صافحها.

أخذت وفية تتجول بعينيها في المكان حتى استقرت عيناها على ملامح وجهه الجذابة فارتبكت وكأنما تخشى أن يقرأ بهما شيئًا تتعمد إخفاؤه، ابتسم خالد ابتسامة

ملأها ثقة بالنفس، وقال بصوتٍ أقرب للهمس:

— لماذا تتعمدين البعد، ألا يكفي ما فات من عمركِ وعمري؟ لم نعد صغارًا يا وفية، هي أيام معدودة إما نعيشها أو الأجدر بنا أن نمت.

رمقته بنظرة صامتة دون أن تنبس فواصل الحديث، قائلًا:

— اسمعي يا وفية، لماذا لا تتركين العنان لمشاعركِ وتجربين الحياة على حقيقتها مرة واحدة؟ كانت حياتكِ الماضية رتيبة مملةٍ خاويةٍ، فلا تحولي ما تبقى منها لصورة مكررة.. خنق المشاعر جريمة ستحاسبين نفسك عليها حين يتقدم بكِ العمر فتكتشفي أنكِ لم تعيشيه كما ينبغي، بل لم تعيشيه على الإطلاق.

حاولت أن تعلق فوضع أطراف أصابعه الدافئة برفق على شفتيها فسرت بجسدها رعدة بدت لها قوية، حتى وجدته يقول:

— أعرف ما تودين قوله، الأخلاق، المجتمع، القيود، الضمير. صدقيني كلها كلمات ابتدعها رجل أعطى لنفسه كل الحقوق وحرمها على المرأة.

صمت لحظات يشعل سيجارة زج بها برفق بين شفتيه بعد أن عرض عليها واحدة فاعتذرت، أطلق سحابة دخان

كست ملامحها المحتقنة خجلًا لحظات ثم أخذت تتبدد.

استأنف الكلام فقال:

— وفية، هل تعرفين الفرق بيني وبينكِ؟ أنتِ تريدين الحرية ولكنكِ تقفين بأعتابها عاجزة عن ممارستها، فالحرية ممارسة شأنها شأن العبودية لكن للأسف لقد تمرستِ في العبودية وبقيت الحرية لكِ ممارسة مبهمة لا تجيدين قواعدها فهناك دومًا ما يجذبكِ لسلوك عبودي يسلبكِ حقوقكِ كامرأة.

صمت لحظات واستأنف الكلام، فقال:

— هل فكرتِ من قبل في اكتشاف نفسكِ بمكانٍ آخر؟

رمقته بدهشة دون أن تنبس.

استأنف الكلام فقال:

— أقصد أن تخرجي من نفسكِ لمساحة أخرى بخيالكِ، مساحة لم تطأها قدمكِ من قبل وهناك تعيدين اكتشاف نفسك.. أثق أنكِ لو فعلتِ لعشت حياة مختلفة تمامًا.. هي فكرة مجربة ساعدتني كثيرًا على كسر شتى الحواجز التي طالما حالت بيني وبين نفسي.

أجابته متهكمة:

— وأي مساحة تقصد؟

ابتسم قائلًا:

— أقصد مساحة تطلقين فيها العنان لمشاعركِ فلا يشوبها أي عقلانية أو خوف فتعرفين حدود قدراتكِ كإنسانة، وتعرفين ما يناسبكِ وما هو بعيد كل البعد عنكِ. مشكلتكِ أنكِ تضجين بمشاعر تفوق قدرتكِ الأنثوية لكنكِ تكبلينها بقيد حديدي اسمه الضمير.. تحاسبين نفسكِ على مشاعرها وتحكمين عليها بالحرمان إن أصل الحياة المتعة وليس الحرمان.. آدم لم يُرجم لمخالفته الأمر الإلهي بل مُنح فرصة أخرى.

بقيت مشدوهة لا تستوعب مغزى كلامه فتسيطر عليها فكرة واحدة.. الورقة، حدق بملامحها لحظاتٍ ثم أضاف:

— حاولي الخروج من عباءة العذراء مريم وعباءة الأمومة، اخرجي منها واخلعيها عنكِ واخرجي من نفسكِ لمساحة أخرى تطلقين فيها سراح كل شيء وتعيدين تجميع ذرّاتك وخلاياكِ وترتيبها في جسد آخر وروح أخرى.

صمت لحظات وأضاف:

— علمني المجتمع الغربي أن أفعل هذا من وقتٍ لآخر، كلما شعرت بحاجتي لمواجهة نفسي الحقيقية فلا أجدها وقد أخفت معالمها الحقيقية تأثيرات خارجية كثيرة، عندها أجدني بحاجة للانفصال عن الواقع لبعض

الوقت والذهاب لمساحة أخرى من الوعي أرسمها بخيالي، حيث أترك خلفي كل شيء، كل ثوابتي فما أحتاجه هو غسل نفسي تمامًا من كل التأثيرات والثوابت، فهناك في مساحتي الجديدة أتأمل وأترك لنفسي العنان لتضع ثوابت أكثر موائمة لها خارجة عن السياق القديم.

بدت وفية مشدوهة فتصورت حالتها لا تختلف كثيرًا عن «أليس في بلاد العجائب»، فخالد يجذبها من يديها ليزج بها في عالم آخر كل ما فيه غريب عليها تخاف أن تخطو إليه فتسقط في هوة سحيقة لا تعود منها.. هل يأخذها شعار ثورتها الأنثوية» لا شيء يُقيد أنوثتي» لمساحة أخرى؟ وإن كان هذا فَـ لإي مساحة يأخذها وأي نوع من المساحات؟ لا تروق لها الأمور المبهمة فغالبًا ما تقود لكوارث حتمية.

نهضت وفية من مقعدها فقد لفت انتباهها وجود كرسي هزاز بأحد أركان الغرفة وكانت تعشق الجلوس بهذا النوع من الكراسي فتترك له زمام أمرها ويحركها جيئة وذهابا مُنحية إرادتها جانبًا، باعثًا الخدر بكل قطعة من جسدها.. كانت تعشق هذه الحالة من الاسترخاء التي تسلبها خلاياها العقلية واحدة تلو الأخرى حتى تصير لبضع دقائقٍ، امرأة

بلا عقل أو بالأحرى امرأة بعقلٍ خدرٍ لا يؤرقها بلومٍ أو يوبخها بوخزات ضمير كثير الجلبة.

ابتسم خالد حين ألقت بجسدها فوق الكرسي الهزاز فمثلها يُعده كرسيه المفضّل الذي بات يدرك تمامًا سحره الخاص.

نهض هو الآخر ووقف وراء الكرسي مسندًا بمرفقيه فوق ظهره العالي، فرفعت رأسها إليه مبتسمة ابتسامة هادئة، وقالت بمرحٍ:

— هذه هي جلستي المفضلة.. اعتدت أن أجلس ببيت طفولتي بالكرسي الهزاز فأطلق العنان لخيالي وأتصور كل الأشياء التي أحلم بها وأتصور أنها تحققت وأحاول اختبار مشاعري وقتها.

سألها مبتسمًا:

— وأي الأحلام تحققينها الآن؟

عاودت النظر إليه وأجابت وعيناها معلقتان بملامح وجهه، فقالت:

— حلمي أن أرسم ذكريات بجدراني الخاوية.

ابتسم بعذوبةٍ، وقال:

— نستطيع أن نرسمها الآن فقط إن أردتِ.

كبحت زمام الكرسي بحركة فجائية كمن تجذب لجام

فرس فتشل حركته، وقالت متسائلة:

— ماذا تقصد؟ هل قصدت أن نتزوج الآن؟

خطى للأمام ووقف قبالتها على بعد خطوة واحدة منها، وجذبها لتقف أمامه مباشرة حيث صارت تشعر بأنفاسه ساخنة تلامس قسمات وجهها فتسري بجسدها قشعريرة.. حدق بها بنظرة ثاقبة كأنما يختبر وقع الكلمات قبل أن يتفوه بها، وقال:

— بل أقصد ما عرضته عليكِ من قبل.. أن نبقى معًا، لا يهم كيف، المهم أن نبقى.

هو إذًا يكرر عليها العرض السافر ذاته.. ما زال عند قوله، لم يؤثر فيه البعد، لكنه أثر فيها ونال منها ومن ثوابتها.. صارت أنثاها أكثر ضعفًا وأقل حيلة.. لم يعد شعارها الوحيد «لا شيء يقيد أنوثتي» بل صار لثورتها الأنثوية شعارًا آخرًا، «لن تبقى جدراني خاوية». هما شعاران إن اجتمعا أسقطا أعتى الحصون وأكثرها حصانة وصمودًا، فإن كانت ترسم حدود أنوثتها الحرة فهي لا تعرف حدود خيال جدرانها المتعطش للرسم عليه.. تريده أن يلتقط لها لقطاتٍ نادرةٍ ناطقةٍ صاخبةٍ.. لا تود فرشاة رسم متعقلة، رزينة، فلا تروق لها الذكريات الرتيبة التي يشوبها العقل، تريدها ذكريات يشوبها الجنون فتارة يرسمها عشوائية

حافية القدمين، وأخرى يرسمها بكامل وقارها.

غاب عقلها لحظات وجيزة خاطفة أخذت تنتقي فيها الذكريات كما تنتقي ثيابها وتتخير ألوانها، وتتصور لحظات عشق ونقوش أنثوية تاريخية تحفرها بأظافرها الملونة فوق الجدران.. تخيلت الآف الصور التي عكف حامد على حرمانها منها فعاشت سنوات عجاف ملومة محسورة تنظر بالمرآة فترى جمالًا لا تجد من يُفتن به فيُشبع سقف طموحاتها الأنثوية العالي..

سمعت من يهمس بأذنيها قائلًا:

— أنتِ ضحية لا جناح عليكِ، اسرقي لحظات من الزمن وذوقي ما لم تعرفي مذاقه مع حامد، فهذا هو نوع المعرفة الذي ينقصكِ، وهذا هو فضائك الآخر الذي تكتشفين فيه نفسكِ كما نصحكِ خالد.. دعي هذا الخالد يأخذكِ لسعادة سرمدية لها نصيب من اسمه.

أحس خالد بالصراع الذي احتدم بداخلها، فقال بصوتٍ خافتٍ:

— وفية كفّ عن التفكير، لقد قررنا ألا نفترق وحتمًا سيأتي يوم تكونين فيه زوجتي لكنه ربما لم يحن بعد، لعلنا نفعلها في كندا أو إن أردتي فسنفعلها حين نصير على يقينٍ تامٍ بأننا لن نندم على هذا الاختيار.. فقط

دعينا تخرج عن المألوف فنكون أزواجًا كما كان أجدادنا يفعلون منذ زمنٍ بعيد.. هكذا لا نشعر بالقيد الحديدي الذي يضعه الزواج بأعناقنا.

كان الموج أعلى من أن تقاومه، تكاد تشم رائحة المغامرة تملأ صدرها، وترى كل ما انتقته لتوها من مشاعر يجذبها بقوة وعنفوان مئة رجل.. تكاد تشعر بالمغربية تدفعها إليه هامسة بأذنها.. العمر قصير، سيقتلكِ حامد، تسمع مقولتها الشهيرة لها» تجدين فيه خلاصكِ». هي لا تريد شيئًا غير الخلاص.

بداخلها الآن خلط من المشاعر فوق طاقة نساء الأرض جميعًا فكيف تحتمله وهي أنثى واحدة لا حول لها ولا قوة.. هكذا بقيت وفية لحظات تصفعها موجات الحرمان من جهةٍ وكلمات المغربية لها من جهة أخرى. وأخيرًا سقطت مستسلمة.

كانت لحظات من جحيم تلتها لحظات في الجنة، فقد سقطت وفية وسقط عنها كل شيء وسكن، لم يبق غير مغامرتها اللعينة ونبوءة مغربية حمقاء.. استسلمت لجنونه وخوفه من القيود الحديدية وسقطت أنثاها الحبيسة أسفل قدميه كثوب حُلت أزراره جميعًا فاستجاب وسقط.

التقمت حواسها، التي كثيرًا ما تضورت جوعًا بصدر حامد،

كل ثمرة ألقاها لها خالد بحنكة العاشق وحرفنة المحب.

لكن السقوط لا بد وأن يعقبه الندم.

•••

توترت العلاقة كثيرًا بين وفية وخالد بعد هذا المشهد، فذهبت السكرة وجائت الفكرة، فعادت وفية تنتظر من خالد أن يأتيها بالورقة الشرعية التي تبرئ ساحتها أمام نفسها وأمام الجميع وتعطي شرعية لصورها المرسومة بجدرانها فبدت صورًا بلا ألوان لا روح فيها.

مرت شهور وخالد ما زال ينكر عليها حقها في ورقة وذكريات ملونة، لم تكن تعرف أن الذكريات السوداء لا تُرسم فوق الجدران فالأجدر بها أن تُرسم فوق القبور.. هكذا أخذ ما بينهما يجف ويذبل رغم محاولات خالد المضنية للاحتفاظ بها، حتى سقطت أوراقهما الذابلة كاملة وسقط معها حلمها بورقة، آثر خالد بعدها الابتعاد فسافر عائدًا إلى كندا ربما قرر البقاء هناك لبعض الوقت.

كانت عودة خالد لكندا بمثابة طعنة غائرة بصدر أنوثتها، فلعلها لم تتألم لبعده.. ألمها كان لتحملها الفراق وتحملها هي تبعات نبوؤة المغربية.. اعتادت وفية أن ترى نفسها بمرآتها لا مرآة الآخرين وهذا سبب عذابها فمرآتها تشي بالجمال والكمال معًا وتعدها بالكثير، لكن يبدو أن صورتها

لها انعكاس مختلف بمرآة خالد سمحت له بنبذها والبعد عنها.. لماذا لا يراها بعينيها فيدرك أن الجميلات أمثالها لا يتركن أو ينبذن هكذا؟ لماذا كُتب على الجميلات أن يخترن الرجل الخطأ؟ ليست مصادفة أن كل من تعرفهن من الحسناوات لسن سعداء بالحب، بينما تعيش القبيحات أجمل قصصه، هو قانون من قوانين الطبيعة إذًا، قانون يقتضي أن تدفع الجميلات ثمن جمالهن أما القبيحات فهن فقراء لم يُفرض عليهن دفع الجِزية.. مشكلتها الأزلية أنها تضع جمالها بكفة وتضع نصيبها بالكفة الأخرى فلا يتساوى فتطب كفة الجمال، ويجن جنونها.

قضت وفية أياما وشهورا عقب سفر خالد ترتقب أن تصدق النبوءة الثانية للمغربية فتموت فقد تحولت لأمنية أكثر منها نبوءة، لقد اعتادت أن كل نبوءات المغربية تتحقق لا محالة فأين الموت إذًا؟

•••

كان وليد يعرف بعلاقة وفية بخالد لكنه كان يثق أنها مجرد مغامرة محسومة، محكوم عليها بالفشل، فكما يعرف وفية كذلك يعرف خالد وتطبعه بطباع الغرب الذي جعل منه مسخ رجل لا يصلح ليملأ قلب وفية. لقد زال الآن ما كان يحول بينه وبين وفية، حتى العقم لقد شُفى تمامًا منه

حين أنجب من وفية طفل من ورق وكلماتٍ. لقد صار أبًا لطفل منها فكيف إذًا لا يتزوجها؟ بقي أن يجعله ابنًا شرعيًا يعترف به الجميع.

كان لرحيل خالد عظيم الأثر على أعصاب وفية؛ لعل المغربية أصابت حين قالت لسلوى إن الأحلام لها صلاحية.. أحست وفية بفشل مغامرتها.. ما أشبهها الآن ببطل قصة الخيميائي الذي قطع مسافات طويلة؛ بحثًا عن الكنز غير أنه سافر بلدانا كثيرة ولم يعثر عليه فقط ليعود ويكتشف أن الكنز مدفون أسفل شجرة بمسقط رأسه.

اليوم زارها وليد بشقتها الجديدة خاوية الجدران، زارها وليد الأب وليس وليد الذي أشقاه العقم وأحنى ظهره، اليوم رأته طويل القامة، مفرود القوام، وجهه مفعمٌ بالبشاشة والتفاؤل والحب كما رأته أول مرة.

رحبت به ودعته للدخول قائلة:

— أهلا يا وليد تفضل.

قدم لها بعض الورود فكان يعرف ولعها بها خاصة الفل والقرنفل، دخل ليجلس على أول مقعد يصادفه وقال دون أي مقدمات:

— جئت أعرض عليكِ أمرًا تأخر كثيرًا عن موعده.

أجابته وقد ارتسمت بملامحها علامات دهشة يشوبها

فتور من ينقصه الفضول، فقالت بهدوءٍ:

— تفضل.

أجابها في عجالة:

— هل تتزوجيني؟

شعرت وفية بطلبه يمزق ما بقي منها، لم تكن تتوقع هذا العرض من وليد خاصة وهي تثق تمامًا أنه يعرف بعلاقتها بخالد، كما إنها لم تلحظ من قبل إنه ما زال يحبها ويتمناها.

ابتسم وليد لصمتها كمن يعرف فيما تفكر، وأضاف:

— وفية أعرف ما يدور بذهنكِ كما أعرف ما جمع بينكِ وبين خالد، لكني أعرفكِ أكثر من نفسكِ، أفهم أنكِ ابتعدتِ عني بعد طلاقكِ ليس لأن حبك لي انتهى بل لأني كنت جزءًا من قصتكِ مع حامد، فأنا من تركتيه لتتزوجي حامد.. هذا الارتباط بيني وبين الماضي جعلكِ تنفرين مني لأنني ارتبطت معكِ بفشلكِ. لكني الآن شخص مختلف، أنا وليد تجربتنا الجديدة، المجلة التي طالما حلمنا بها. كل شيء اختلف حتى أنا وأنتِ.

بقيت وفية صامتة تسمعه بذاكرة فوتوغرافية تعرض لها الصور فترى صورة والدها وحامد وترى أمها وخالتها زينب، وترى نفسها فتاة صغيرة تقف مع وليد أمام

المدرسة، وأخيرًا ترى آخر لقاء لها مع خالد.. وليد عنده حق.. لا شيء ولا أحد مما رأت يشبه الحاضر، كلها أشباح وخيالات من الماضي.

تركها وليد ومضى؛ لتفكر بالأمر وتقرر أمر زواجهما.

مر أسبوعان على لقائهما كانت وفية تفكر بالأمر ليلًا ونهارًا.. فكرت بليلة سقوطها وكيف تخلى خالد عنها بعدها، فكرت هل تصارح وليد بسقطتها حين غوتها كلمات خالد الشيطانية ونبوءة المغربية؟ فكرت بكل شيء عدا أن تلجأ للمغربية، لم تفكر لحظة أن تستشيرها بأمر الزواج فقد أدركت أن أسوء شيء قد يحدث لإنسانٍ هو أن يتنبأ له أحدهم بقدره فيتوقع ما تؤل إليه الأشياء مسبقًا.. هكذا تفسد المغامرة، يكمن سحر المغامرة في كونها غير محسوبة أو متوقعة النتائج فكيف إذن تسلب مغامرتها سحرها؟ يكفيها ما قالته المغربية.. لا تريد المزيد من الكلمات التي أبقت جفنيها ساهرين يجرون ألف عملية حسابية تخرج بناتج واحد يقول أن ثمة مكروه سيحدث.. قررت أخيرًا أن تتزوج من وليد وإن عاشا المغامرة يومًا واحدًا. هكذا كثر ترحال وفية بحثًا عن مغامرتها فقط لتعود لوليد، مسقط رأسها وكنزها المنتظر أسفل شجرة، فتكتشف أنه بحق المغامرة التي قضت سنوات تبحث

عنها.

كيف لم تتبين إن حبها له هو المغامرة الوحيدة التي تستحق أن تخوضها فترسم لها جداريات عشق.

انتشر نبأ زواج وفية فتباينت ردود الأفعال واختلفت ما بين مشجع يرى أن من حقها أن تتزوج ومعارض يرى فيها صورة واحدة هي صورة الأم التي ينبغي لها أن تضحي من أجل ابنها.

وقبل الزواج بيومين فاجأتها المغربية بزيارة وجيزة خاطفة بدت فيها مرتبكة شاحبة كمن لم تذق النوم أيامًا متتالية.

قابلتها وفية بفتورٍ ونظرات تحمل الكثير من الاتهامات.. دعتها للجلوس وبقيت تحدق بها منتظرة أن تلقي بوجهها أحد تكهناتها الشيطانية الجديدة بحرمان جفنيها النوم أيامًا وأسابيع.

مرت لحظات من الصمت بعدها تحدثت المغربية بصوت يغلب عليه الحزن فقالت:

— سمعت نبأ زواجكِ بعد غدٍ.

علقت وفية بلا مبالاة، فقالت:

— هذا صحيح، لكن ما المشكلة؟

أجابتها المغربية:

— تعرفين المشكلة دون شكٍّ، فقد سبق أن حذرتكِ.

حدقت وفية بوجه المغربية لحظاتٍ، ثم قالت:

— أي مشكلة؟

قالت المغربية:

— دون الخوض في تفاصيل سبق أن أطلعتكِ على الأمر، لا داعٍ لإتمام هذا الزواج.

عادت وفية تسألها باقتضابٍ وتهكمٍ فقالت:

— هل توضحين كلامكِ؟

أجابتها المغربية:

— أرى ميدوسا كل يوم بأحلامي تموت بثوب الزفاف.

تحكمت وفية بأعصابها وسألت بصوتٍ بدا مرتعشًا بعض الشيء:

— ماذا تقصدين؟

أجابتها متحدية بصوتٍ ثابتٍ، فقالت:

— أقصد أنكِ ستموتين في اليوم السابق لعرسكِ.

تمالكت وفية نفسها، وقالت:

— أنتِ كاذبةٌ لم أعد أصدق حرفًا مما تقولين، حتى وإن صدق ما قلتيه فسأتمّ الزواج.

قالتها وصمتت لحظات ثم أضافت بحدةٍ:

— لماذا أتيتِ اليوم؟ لم أطلب منكِ التنبؤ بشيء.. لماذا تتنبأين للجميع وكأنكِ تمسكين زمام الكون؟ لقد دمرتني نبوءاتكِ الحمقاء وأفقدتني صوابي فسقطت في أحلام غبية لا يمكن أن تتحقق.. زعمتي أن خالد هو الخلاص بالنسبة لي فلم يكن شيء من هذا واليوم تتنبئين بموتي؟ جميعنا سنموت ولكن الأهم من هذا أن نعيش أولا وإن كان ليلة واحدة ولقد نويت أن أعيش هذه الليلة وإن مت بعدها.

غادرت المغربية وهي تُتمتم بكلماتٍ مبهمة بعد أن أدركت أن لا سبيل لإقناع وفية بالعدول عن رأيها، بدت واثقة تمامًا مما تقول كما بدت وفية واثقة تمامًا مما تريد.

•••

سمع حامد بنبأ زواج وفية ووليد، لم يبق على الزواج أكثر من أيام معدودة لعلها لا تتعدى الأسبوع.. نقلت له أم حامد نبأ الزواج فكانت تتتبع أخبار وفية لتضمن ألا تعود غريمتها الوحيدة لتنافسها بقلب رجلها حامد، جنّ جنون حامد لِما سمع فقضى أيامًا بغرفته لا يبارحها وفشلت جميع محاولات أم حامد لإقناعه بالخروج عن عزلته حتى كان يوم الأربعاء أو اليوم السابق لقدوم وفية للمبيت مع يحيى كعادتها، دخلت أم حامد إليه ومرّت ساعتان وهما

يجتمعان بهذه الغرفة الكئيبة التي طالما جمعته بوفية فكان دائمًا الشك ثالثهما.. وأخيرًا خرج حامد من عزلته وغاب عن المنزل ساعتين عاد بعدهما ليعد البيت لزيارة وفية كما اعتاد، فكانت عادته أن يحاول ترتيب البيت بطريقة جذابة يعرف أنها تروق لها وقد يضع بعض الأشياء التي لها ذكرى ما جمعتهما، فربما أثار هذا بداخلها حنينًا له فتعود.. لم يكن يفهم أنه آخر من تسمح له وفية أن يشاركها مغامرتها، كانت أمنيته الوحيدة هي عودة وفية، فرغم البعد لم يفقد الأمل في عودتها طالما لم تصبح لرجل آخر وطالما هناك طفل اسمه يحيى سيبقى الأمل ينبض بقلبه.. لكن اليوم اختلف كل شيء واختلفت استعداداته لزيارة وفية، وتباينت مشاعره فصارت مبهمة غير مفهومة حتى بالنسبة له، فكان شاردًا يتحرك بصورة آلية كالمنوم مغناطيسيًا يكاد لا يعي أفعاله ولا يحسب خطواته، فكان ما يحركه هو شيء واحد.. نبأ زواج وفية، ورغبة جاثمة فوق صدره تخنق أنفاسه وتطالبه بشيء واحد أن يحرق من يقترب من وفية أو أن يحرق وفية نفسها قبل أن يمسسها بشر.

كان يوم الخميس، ليلة قمرية بدت فيها السماء وامضة بوميض أبيض رسم خيالات تشبه طرحة عرس يعلوها تاج

مرصع بالنجوم الوامضة هي الأخرى، هو استقبال يليق بالحسناء إن صدقت نبوءة المغربية وماتت وفية.

يومها عاد يحيى من المدرسة ليجد وفية بانتظاره وقد أعدت له كل أصناف الطعام التي طلبها.. وبعد أن فرغا من تناول الغذاء جلسا معًا يتحدثان كعادتهما، تحدثا لساعات في أمور كثيرة وكان الحوار الذي دار بينهما حوارًا عامًا يتخلله بعض تلميحات عن قرار زواجها، تطور بعدها إلى أن صار إعلان عن زواجها بوليد الليلة التالية. لم يفهم يحيى ما عنته أمه حين قالت:

— غدًا أتزوج أنا وعمك وليد جارنا.

لم يستوعب عقله ما قالت، فسألها:

— ما معنى هذا؟ كيف ولماذا تتزوجي وقد كنتِ زوجة لأبي؟

عقد سؤاله لسانها فارتبكت، وقالت:

— لأن كل امرأة بحاجة لزوج يشاركها الحياة.

عاد يحيى يقول:

— ولكن أبي كان يشاركِك الحياة كما تقولين، فلماذا تركتيه ولماذا تتزوجين غيره؟

كانت لهجته لهجة حادة تحمل كثير من اللوم والغضب، حاولت وفية أن تكسر حدتها لكنها لم تفلح فآثرت أن تنه

الحوار قائلة:

— دعنا من هذا الأمر الآن ولنتحدث في وقتٍ لاحق فقد حان وقت النوم وأشعر أنني مرهقة كثيرًا.

لم يكن يومًا عاديًا بحياة وفية، هو يوم موتها الذي تنبأت لها به المغربية.. كانت مشاعرها مشاعر مضطربة لامرأة تترقب الموت فتتذكر من آنٍ لآخر كلمات المغربية، فإن صدقت نبوءتها ستموت اليوم.. حدثتها المغربية بثقة اليقين لا التكهن.

لم تكن وفية تعلم ما ينتظرها في هذه الليلة القمرية اللعينة، يبدو أن حامد قد قرر اليوم أن يفتح هذا الصندوق الذي عاش يحمله بداخله ويحبس فيه فضائح أمه.. ثمة جثمان جديد ينوي حامد أن يزج به في صندوقه المغلق.. قرر حامد أن وفية ليست أفضل من أمه، وربما أراد أن يخفف من فداحة ذكراه بأن يقل لنفسه هكذا هن النساء جميعًا، كلهن شياطين ليلية ضاحكة.

سمعت وفية أثناء نومها صخبًا خارج الغرفة وليقينها بأنها وحدها هي ويحيى بالشقة صحت مفزوعة من نومها لتجد حامد، نظرت إليه بدهشة وكست ملامحها علامات استفهام كثيرة، وقالت:

— لماذا أتيت بهذا الوقت يا حامد؟ هل حدث مكروه

لخالتي؟

أجابها بصوتٍ حاول أن يكون هادئًا ورزينًا فقال:

— بل أريد التحدث معكِ ببعض الأمور التي تخصّ يحيى.

وقبل أن تلاحقه بأسئلة لا حصر لها، قال:

— قبل أي شيء هل تعدين لنا فنجانين من الشاي فقد تكون هذه هي المرة الأخيرة التي نتحدث فيها وحدنا.

قالها وأضاف بترددٍ:

— أقصد أنكِ ستتزوجين وقد يحول هذا دون لقاؤنا.

علقت بهدوءٍ:

— حامد أنت ابن خالتي قبل أي شيء وسيظل يحيى بيننا فلا يمكن لعلاقتنا أن تنقطع يومًا ما إلا بالموت.

كان لكلمة الموت رنينًا عجيبًا اخترق أذنيه فبقي يصدر طنينا بهما كذبابة حبيسة لا تجد سبيلًا للخروج.

قالتها وفية ومضت تعد الشاي وعادت بعد لحظات لتضع فنجاني الشاي على طاولة صغيرة وتجلس في انتظار ما أتاها به حامد.

لكنه ماطل مرة أخرى في بدء الحديث، فقال:

— معذرة لكني أشعر ببعض الصداع، فهل تأتيني بكوب ماء من فضلك؟

كان يمسك بيديه قرصين من الدواء.
ومرة أخرى عادت وفية بكوب الماء وقدمته له ثم جلست أمامه وتناولت الفنجان، وبدأت تشرب الشاي بهدوءٍ بانتظار أن تهدأ نوبة الصداع التي داهمته ويأتيها بما عنده.

بدأ حامد كلامه فقال:

— غدًا تصبحين زوجة رجل آخر، ستتزوجين وليد، هذا الرجل الذي بقي دائمًا حائلًا بيننا. أعرف أنني لا أملك أي دليل أنكِ كنتِ خائنة لكن هذا لا ينفي خيانتكِ فكثير من النساء تخون وكثيرات تضعن قناع براءة زائف يخفين خلفه صورة شيطان قبيح.

حاولت وفية أن تُعقّب على ما يقول لكنها بدأت تستشعر بخدر يسري بجسدها ويثقل جفونها.. حدث كل شيء بسرعة وأخذ الخدر يزداد شيئًا فشيئًا حتى سقطت جفونها تمامًا وسقطت معها وفية.

ورغم هذا لم يتوقف حامد عن الكلام، فكانت في البداية تسمع كلماته همهمة بعيدة تقول:

— كانت أمي خائنة، فقد قتلت أبي بخيانتها وبعثت بأوصاله سمومها فأردته مشلولًا لا شيء فيه يعرف الحركة عدا جفنين حائرين لا يكادا يرتفعا إلا ويسقطا

كأنما..

أخذت الكلمات تخفت بأذنيها حتى اختفت تمامًا وراحت وفية في عالمٍ آخر، وبقي حامد مسترسلًا في حديثه الطويل.

بعد مرورِ سنواتٍ..

سنوات طوال مرت على وفاة وفية عاشها حامد كالميت بعد أن فقد قطبي حياته أم حامد ويليها وفية.. ماتت وفية وشعر حامد أنه فقد بموتها مملكة طغيانه فتمنى كثيرًا أن ينزل عن عرشه لحفرة صغيرة لا تتعدى بضع أمتار.. ربما تبعها يوما ليؤسس مملكة قوة وقهر جديدة تحت الأرض بها مملوك أوحد يتعبد بسادية في محراب جمال وفية.

خابت نبوءة المغربية فلم يقتل حامد وفية بهذه الليلة المشهودة، فقط أسرى بجسدها الخدر لينفذ خطة شيطانية خبيثة ترفع عن كاهلة بعض الألم.. ألم خيانة أمه ونبأ زواج حبيبته.

لم يشعر حامد ببشاعة ما فعل بوفية حتى ماتت أمه، لعل موتها خفف رغبته في الانتقام من النساء جميعًا في صورة وفية.. لم تكن وفية هي مقصده، لم يكرهها يومًا بل عشقها بجنون وتلك كانت معادلته المستحيلة، معادلة أطرافها أم خائنة وزوجة أحبها فصار حبها يهدده بتكرار مشهدًا لا يجد

بنفسه القدرة على مواجهته من جديد فقد بث به ذكريات طفولته عبارة واحدة تتكرر عليه مع بداية كل يوم جديد «كلهن أم حامد».

عاش يحيى سنوات طوالًا منعزلًا عن عمد، لا بشر من حوله عدا صديقه الوحيد علي.. فقد شعر بالنفور من كل شيء يذكره بطفولة بائسة فترك بيت طفولته بعد أن تخرج من الجامعة ليعيش بصحبة صديقه علي لافظًا حامد وثروته معلنا رغبته في بناء مستقبله بنفسه.

هكذا انقطعت الصلة تمامًا بينه وبين حامد، كما لم يحاول حامد نفسه أن يستبقيه حين رحل كأنما أراد التكفير عن ذنب اقترفه بحق وفية بحرمانها من يحيى كما سبق وفعل بها.

بدت تصرفات يحيى مبهمة للجميع فكان البعض يرميه بالجنون، فكان يشعر بغربة في هذا العالم الشيطاني.. كل ما فيه يدفعه للجنون، ذكرى بعيدة لأب ناقم على كل شيء وجدة تمسك زمام ذكورته بإحكام فتعبث بها ما شاءت، وأم حسناء ما زالت صورتها تُداعب أنفه بعطر أمومتها الأخاذ ودفتر من كلمات شيطانية ما زالت تتلف أعصابه وتزج به لمساحة من اللاعقل واللاجنون.

درس يحيى علم النفس وتخصص به، وعمل محللًا

نفسيًا، عقب تخرجه وحصوله على الماجستير والدكتوراه، بأحد عيادات التحليل النفسي ما أتاح له التعرف على كثير من أصحاب العلل النفسية.. صار اسم يحيى حامد رغم ما يعانيه، أحد الأسماء القليلة اللامعة بهذا المجال، فاقترن ذكره بذكر أشهر الأطباء والمحللين ومراكز التحليل النفسي، فكان دائم التنقل بين العيادات والمراكز المختلفة كمن يبحث عن ضالة لا يعلمها غيره.. ساعده نهمه ودأبه على القراءة فى امتلاك المعرفة وتطويعها لتطويع النفوس.. لم يستهويه من علم النفس قدر ما استهواه الجنون، لا تعنيه سيكولوجية النفس فقط تعنيه سيكولوجية الجنون.

•••

يوميات وفية

قلّب يحيى صفحات دفتر أسود مهترئ مثله تمامًا، يكسوه التراب باحثًا فيه كعادته عن شيء من رائحة الماضي وعبق أُمه وفية.. دفتر يناهز الخمسمائة صفحة، يبلغ من العمر ما قد يبلغ الثلاثون عامًا.

لعلها المرة المئة التي يفعلها فقد اعتاد أن يحتمي بيوميات وفية كلما داهمته نوبات السخط والألم فاحتاج لكلمة قد ترخي أعصاب غضبه وتنظم نبضات جنونه، لكن هيهات أن يجد ما يفعلها.. كم عذبه حُسن أمه ونال من أعصابه.. فاعتصر قلبه وسحق كبرياؤه.

لم يحلم يومًا بأم حسناء، فقط أرادها أم تكمش خصلاتها البيضاء بعشوائية أسفل طرحة سوداء، وتخفي جسدها المترهل بفعل الزمن، في كفن فضفاض أسود أو أي لون آخر يسمونه جلباب، منتظرة أن يحين الأجل، تفوح منها رائحة طعام لا عطر فرنسي ساحر.. يريدها كأمهات رفاقه وأصدقائه، لا يريدها حسناء فالحسناوات كثيرًا ما يُرمين بالخلاعة والميوعة أو ربما ما هو أكثر لم يسامحها يومًا.. لم يغفر لها زرقة عينيها، ونعومة شعرها، ورشاقة قوامها وشفتاها المكتظة.. لما لم تكن بدينة، مترهلة غير متناسقة القوام فترفع عن كاهل كبرياؤه كثير من الأذى.. أحيانا

تكون الدمامة مطلوبة، والقبح لا بد منه. حين يكن للحسن نصل سكين فأهلًا بالدمامة والقبح.

أخذ يحيى يقلب الصفحات حتى استقر على صفحة بعينها فقرأ..

كتبت وفية..

تزوجت حامد حين لم يكن هناك بُد من الزواج، ثمة ضائقة مالية تصيب العائلة وتكاد تطيح برأسها، وليد في قمة ضعفه وضآلته أمام متطلبات الزواج بفتاة مثلي يراها أهلها كنز هو أشبه بسنارة تصيد الرجال الأثرياء.. وهبني الله كل مقومات الجمال لكنه حرمني الاختيار فالاختيار يعني الحرية وأنا لست حرة.. لم يعرف حامد كيف يُبحر بداخل نفسي، لم يجد لقلبي سبيلًا، لم يعرف من أين تؤكل الكتف فالتهمني ونهش لحمي ونخر عظامي لكنه لم يبلغ مبلغه من قلب يحتمي خلف هيكلي العظمى النخر.

حامد يبدو طيب القلب حنون لكنه وقف بأعتاب قلبي فلم تُفتح له الأبواب.. وراء طيبته تختبئ شخصية مهزوزة لكنها غامضة تغذى عليها جبروتي بعبقرية، فعرفت كيف أستأنسه وأحيل مارده لعبد ذليل أمسك بزمامه، أو هكذا تصورت وتصور الجميع في بداية الأمر.

لم ينس حامد لحظة علاقتي بوليد التي سبقت زواجي

به وانتهت فور خطبتنا رغم أنها كانت علاقة لم يشب براءتها شيء، ظل وليد وحش كاسر يعيش بصدر حامد فيلتهم كل بذرة ثقة تلقيها عشرتي الطيبة بأرضه، فطوال سنوات زواجنا لم ير مني ما قد يثير ريبته أو يمس وتر كبرياؤه من قريب أو من بعيد، لكنه دأب على التهام نفسه في نهم وشهية حتى خلته يتلاشى يومًا بعد يوم فما عدت أراه.

لا أنكر أن اللعبة في البداية كانت تروق لي، هكذا كانت أنوثتي تقتات وتتغذى على ألمه وعذابه ربما حملته ذنب حرماني من الرجل الوحيد الذي سقطت لأجله سقوط الإحساس لا الجسد، فعشقت وتعذبت وضحكت وبكيت.. كان وليد طوق نجاتي من حياة جافة رتيبة عشتها ببيت طفولتي بين أب حنون وزوجة أب بقلب حجري صخري صلب.. كرهت أبي رغم عشقي له ولفظته من قلبي كما لفظ أمي من بيتها واستبدلها بعاهرة لا تعرف من الدنيا غير الميوعة والخلاعة.. رحماك ربي.. وفية..

«وحده قلمي يفرغ هواء بالوني السام لكنه يثقبني فتنفذ إلى الآف العيون لترى ما بداخلي».

كانت تختم كل ما كتبت بهذه العبارة.

لم يكن يحيى يدرك حينها ما يحدث، صغيرًا كان آنذاك لا

يكاد يلامس بأصابعه الهزيلة مفتاح النور واقفًا على أطراف أصابعه، كان وقتها لا يزال صغيرًا لا يألف من الحياة ما يزيد عن وجه أمه وفية وصوت أبيه حامد.. فحين نكن صغارًا لا يعلق بأذهاننا شيء قدر الأشياء الأكثر غرابة، وأكثر ما كان يدهشه هو صوت أبيه الذليل الكسير ووجه أمه ذو الملامح التي على حسنها ورقتها أخذت تبدو له كخارطة بلد جبلي واعر، بها أماكن وبلدان يراها في ضوء كلمات أبيه الشيطانية ولمزات جدته أم حامد، أماكن قسوة وبلدان سطوة.. لم ير بصلابة أمه وضعفها، بلينها وشدتها، هي توليفة متناقضات شيطانية لم يبدأ في الإمساك بطرف خيطها حتى خط شاربه شعرات ذكورته بوجهه معلنًا ذكورة غير أنها من النوع الخاوي الذي لا يعكس من ملامح الرجل بمرآة النساء أكثر من صفات جسدية لا طبائع تدعمها.. هو باختصار ذكر لا رجل، وشتان الفرق. ولكم أدرك بنفسه هذه المسلمة ولعلها راقت له.

عاش يحيى يحلم بشيء واحد، أن يمزج الألوان فلا يصير هذا الكسير الأحمق كوالده ولا تلك الوفية الحسناء.. ثمة شيء بداخله ينتفض كلما خطت تلك الأشباح أعتاب خياله مذكرة إياه بماضٍ لم يمضِ بعد.

صار يحيى الآن شاب ثلاثيني لكنه لم يبلغ أي من طبائع

المرحلة.. بقي حبيس مراهقته الحمقاء التي أفلت فيها زمام مشاعره فأحس بأول نبضات العشق، تلك التي تداهمنا للمرة الأولى فنظنها الأخيرة ونفنى فيها بكل ما أوتينا من حس.

ظل وجه ليلى فتاة مراهقته ذات الثامنة عشر يطارده حتى بعد أن مرت الأيام وتزوجت وأنجبت وما عاد يلمح طيفها بأي من الأماكن التي يتردد عليها.. هل تركته ليلى وتزوجت بغيره لأنه مسخ مكرر من أبيه؟ لم تعرف شخصيته أي ملمح أو قالب لتستكين به فيكن كيانًا محددًا لا يلتبث بغيره.. أدرك يحيى سر قبول ليلى الزواج بغيره.. أدرك أنه مسخ، أنه هلامي الملامح، سائل أو غاز لا اطار له، ربما أحس بسخط على أبيه جراء هذا الشعور.

يذكر يحيى حين وقع بصره للمرة الأولى على ليلى، كانت خمرية رشيقة لها عيون سوداء واسعة ربما لا تتناسب كثيرًا مع صغر ونحافة وجهها لكنها عميقة كالبئر، تشعر بأنك تغوص بها فتأخذك بعيدًا.. كانت من هؤلاء الذين يتحكمون بمصيرك عن بعد لا عن قصد، فكان يستحضر بذهنه ردة فعلها تجاه ما يُقدم عليه ومهما كان مؤمنًا به لكنه يعرف عزوفها عنه واستنكارها له فيبدل على الفور مسار فكره وخارطة أحلامه.

هكذا كانت ليلى تحركه بخيوط حريرية هي الخيوط ذاتها التي التفت سنواتًا طوال حول أصابع أمه وفية، فتحرك حامد كيفما شاءت.. لكن الخيط له عمر افتراضي لا بد أن يحين اليوم وينقطع، أو لعله كان خيط وهمي من نسج الخيال لا أساس له من الصحة.

غارقًا بأفكاره في عين ليلى وملامح وفية ونبرات رقتها القاسية وحدتها اللينة، وحبات العرق بجبين والده الكسير، سمع يحيى طرقات بالباب بعدها أقبل عليه علي زميله المقيم معه بالشقة التي استأجرها بالعقار القديم المتهالك رغم عراقته، وطرح أمامه فوق الطاولة الخشبية شبه الكسيحة كتابًا مهترئ الغلاف، وقال:

— أخيرًا حصلت عليه.

لمعت عينا يحيى فبدا كطفل بائس أتاه والده ببعض الحلوى فحل غلافها بخياله بلهفة والتهمها بعينيه قبل أن تلامس شفتيه، وقال بصوتٍ حاول أن يبدو متزنًا:

— كيف حصلت عليه؟

أجابه علي مازحًا:

— لن أكشف مصادري، أو على الأقل ليس قبل أن تخبرني بسر اهتمامك بهذا الكتاب بالتحديد.

لم يجبه بشيء واكتفى بنظرة بلهاء مًرتبكة لا تعني

الكثير. كان كتاب مُترجم لجوزيف كونراد عبارة عن مجموعة قصصية بعنوان «حكايات من زمن القلاقل» فتحه يحيى بلهفة لم تخطئها عينا علي وبقي يقلب الصفحات باللهفة ذاتها إلى أن وجد ضالته، الحكاية الرابعة وكانت تحمل عنوان «العودة»، عندها فقط تنفس الصعداء ورسمت ملامحه ابتسامة رضا شابها الكثير من الغموض.

•••

قرأ يحيى اليوم الكثير بدفتر يوميات وفية كما دأب أن يفعل منذ وقعت يده على هذا الدفتر، أو منذ أن قدّمه له حامد بعد أن حجبه عنه بعض الوقت، بعد وفاتها وقبل سنوات طويلة زاعمًا أنه ذكرى من وفيه تخصه وحده فلا يحق لغيره الاحتفاظ به أو الاطلاع عليه، لم تكن وفية تذكره فيه كثيرًا ربما أشارت له مرة أو مرتين متجاهلة اسمه فإما تقول ابني أو الصغير.. ظل يقرأ ساعات طوال فيصل الليل بالنهار إلى أن توقف فجأة عن العبث بالدفتر العتيق منحيه جانبًا بعصبيةٍ، والتقط رواية جوزيف كونراد، حكايات من زمن القلاقل بدا متوترًا يقلب الصفحات بيد من رهبة وأصابع من جنون كأنما ستطل عليه الحسناء من بين صفحات الرواية تاركة رسالة معلنة رحيلها.. وصفها كونراد ببراعة ودقة لم يترك من خلجاتها

شيئًا. ورسمه هو ببراعة واسماه ألفان هيرفي.. كان حتمًا يفكر بيحيى وهو يخط ملامح هيرفى، لكنه هيرفى شرقي أكثر تعصبًا وجنونًا.. هيرفى الابن وليس الزوج، وفية هي زوجة هيرفي في الرواية، هي من انتوت روحها التسلل من قفص عظمي يحبسها بداخله وقررت أن ترحل تاركة له رسالة.. كل النساء يفعلن أبشع الجرائم فيرحلن تاركين رسالة، فعلتها زوجة ألفان وفعلتها وفية، لكنها لم تترك رسالة بل دفتر يوميات ضخم تتطلب قرائته من وجهة نظره، امتلاك كل معاني التسامح لا ليسامح بل ليسحقها لينتهي به الأمر حارقًا كل من التمس لها عذرًا أو حاول إرخاء أعصاب غضبه ونبضات جنونه.

صفحات كثيرة مرت حتى وصل للحكاية الرابعة «العودة» حكاية ألفان هيرفي وزوجته. قرأ بنهم وأخذ يتوقف ببعض الفقرات التي تمس وترًا ما بقلبه، أو ربما يرى فيها وفية تنبض وتتنفس.. استوقفته عبارة رأى بها صورة حية لحامد ووفية، تقول:

«غير أنهما ما كانا قادرين على المَودّة الحقيقية فما تعديا حيوانين يتغذيان على ذات المعلف، تحت ذات السقف باسطبل فاخر». حقًا ما جمع بينهما لا يتعدى صحن من العلف.. وفقرة أخرى تقول:

«فكر في زوجته من كل الزوايا عدا الزاوية الأساسية، فكر فيها كفتاة مهذبة، كزوجة، كإنسانة مثقفة، كربة منزل، كامرأة، غير أنه أبدا لم يفكر بها لحظة كأنثى».

قرأ المزيد ولم يفهم سوى القليل، فَهِم أن يجتمعا على صحن العلف لكنه لم يفهم معنى الأنثى، هل هناك فرق بين المرأة والأنثى؟ ربما.. غير أنه ما زال لا يفهم كيف يفكر الرجل بزوجته كأنثى! هل كان حامد يفكر بوفية كأنثى؟ كيف له أن يعرف وهو لا يفهم معنى الأنثى، لا يمتلك هذا النوع من المعرفة، ماذا يقصد؟

بات يحفظ كل حرف نقشته يدها في دفترها المتهالك، فتارة يكرر كلماتها في سريرته وأخرى يتلفظ بهمهمات خافتة وكأنما أصابته الحُمى على شاكلة أي منكما أصدق، هل كانت وفية.. وفية؟

ساءت حالة يحيى في الفترة الأخيرة، صار يتغيب عن عمله من دون سبب، ويتهرب من الرد على الهاتف.. أصابته حالة شرسة من نهم القراءة حتى صار يصل الليل بالنهار يلتهم صفحات الكتب حتى يسقط جفنيه على حين غرة ويتسلل الخدر لجسده كلص غير محترف يتقدم بحذر فيعرف أن جسده حصين يصعب السيطرة عليه وإسقاطه في براثنه.

كان أحيانًا يسعد برؤية أشباهه بين صفحات الكتب فتارة يستشعر نفسه هيبوليتس الماقت لكل النساء والعازف عنهن ترفعًا، وأخرى يرى نفسه هامليت بطاقته الانتقامية التي تمسك زمام أموره.

لم يكن يُطلع صديقه علي على شيء من هواجسه، فكيف يكشف له شكه بأن أمه وفية كانت امرأة عابثة؟! هكذا كبت هواجسه وإرهاصاته إلى أن ضربت بجسده النحيل ذات يوم حمى شرسة دفعت بزئبق ترومومیتر قياس الحرارة لأعلى درجاته، فكان كالجمرة الملتهبة حتى كاد من جاوره يستشعر سخونة جسده عن بعد، وصار وجهه بلون شمس الغروب قبل أن تسقط وتتلاشى بعالمها الآخر.. مكث علي بجواره طوال فترة مرضه فلم يكن يتركه إلا لشراء الدواء أو بعض لوازم البيت من طعام وخلافه.. كان علي يسمع همهمات خافتة لكنها رغم ذلك مفهومة، دأب يحيى على تكرارها دون وعي.. ما ردده يحيى كان كافيًا تمامًا لكشف المستور.. سمع علي ما يكفي ليعي ويفهم ما لم يود يحيى إطلاعه عليه.

أشفق علي على صديقه من هذا الحمل الثقيل الذي أثقل ظهره.. كيف لرجل أن يحمل بجوفه وحشًا كهذا يلتهم كل يوم قطعة من جسده ويبث سمومه به كالأفعى.

فكر علي بمواجهة يحيى بما سمع حين تنسحب آثار الحُمى من جسده لكنه مرة أخرى أشفق عليه من مواجهة كهذه قد تودي بكبرياؤه وتسحق رجولته.

لم يتماثل يحيى للشفاء قبل مرور فترة طويلة نحل فيها جسده كثيرًا وفقد كثير من حيويته ووزنه.. أفاق من مرضه ليجد علي وحده بجواره يرعاه ويمرضه فزاد هذا من إحساسه بالوحدة.

فتح يحيى عينيه بجفنين متثاقلين فبدت له الغرفة بحالٍ غير حالها الذي ألفه قبل هجمة الحمى الشرسة، فَـ آخر ما وقعت عليه عينيه فراش تعلوه أغطية كثيرة مبعثرة تكاد لا تغطي جسده بالكامل فقد تدلت الغالبية العظمى منها حتى لامست أرضية الغرفة كثيرة الأتربة، وملآة رثة متسخة باهتة، وصحون خاوية كعهده بها دائمًا، منتشرة بالغرفة فكان بعضها فوق الطاولة والبعض الأخر ربما فوق كرسي خشبي كائن بجوار باب الغرفة، وكرسي آخر تغطيه الثياب حتى كاد يختفي تمامًا.. هكذا اعتاد غرفته واعتادته شخص فوضوي عشوائي في كل شيء حتى في ردود أفعاله.. غير أنه الآن يراها مُرتبة منمقة بها لمسة جمالية لا يعرف مصدرها لكنه تذوقها ونالت استحسانه.. رفع بصره نحو علي بوهن وشحوب ووجه

بدأت حمرته في الانسحاب ببطء وتراخي، وحاول رفع ذراعه مشيرًا لحال الغرفة لكنه سرعان ما سقط ساكنًا بجواره.. فَهم علي ما يدور بذهنه فسارعه بالقول:

— لا تجهد نفسك بالكلام، أعرف ما تريد السؤال عنه، بالطبع حال الغرفة، أليس كذلك؟

قالها ببعض المرح وأردف، قائلًا:

— يبدو أن لك جاذبية تفعل فعلتها بالنساء.

كسى القلق ملامح يحيى الواهنة وقاطعه ببطء، متسائلًا:

— ماذا تعني؟

أجابه بتردد:

— لأنك ابن حلال، طيب القلب لك جيران طيبين بالشقة المجاورة..

قاطعه يحيى بحدة رغم ضعفه، فقال:

— أكره الاختلاط بالجيران.. لا أسمح لهم بالتسلل إليّ، فأنا دائم التحفظ معهم فلا يقتحمون حياتي.

علّق علي:

— لا تعتبره اقتحام، الجيران لبعضهم كما يقولون.. ما المشكلة أن تأتي جارة لطيفة، جميلة لتزورك في مرضك ومعها بعض الطعام أعدته بنفسها لأجلك.. ما المانع في

هذا؟

ثار يحيى قائلًا:

— ما المقابل؟ لا شيء دون مقابل.. ثم إني لا أعرف عن من تتحدث.

أجابه بحذر:

— عن مهجة جارتك بالشقة المجاورة، حتمًا تعرفها.

— ولماذا تجزم أني أعرفها؟

قالها بصوت متقطع ثم أضاف:

— أنا حقًا لا أعرفها ولا أظنني رأيتها من قبل.

حاول الاعتدال في جلسته لكنه فشل فأفلت ذراعه المتكئ عليه وسقط مجددًا على الوسادة.

حاول علي تهدئته، قائلًا:

لا تشغل بالك بها الآن فقط اهتم بصحتك.. هي مجرد زيارات عابرة صحبتها فيها الخادمة للاطمئنان عليك والمساعدة في ترتيب البيت وأحيانًا أعداد الحساء ولا شيء دون ذلك.

قال يحيى في عجالة:

— وكيف تسمح لها بدخول البيت؟ لم يدخل بيتي هذا فتاة على الإطلاق.

قاطعه علي قائلًا:

— ماذا كنت تنتظر مني إذًا؟ أن أطردها وقد أتت للسؤال عنك! أقسم أنك لو رأيتها لغيرت رأيك وتنازلت عن هذه العجرفة المفتعلة الكاذبة.

قالها علي ببعض الانفعال وأردف، قائلًا:

— وبالمناسبة هي ليست فتاة بل زوجة وأم.

وقبل أن يُسجل يحيى مزيدًا من الاعتراض سمع طرقات بالباب ذهب علي على إثرها لاستقبال القادم فكانت امرأة حسناء خمرية نحيفة لكنها على نحافتها تملك من أمارات الأنوثة ما تفتقر إليه الكثيرات. ترتدي ثوبًا ورديًا قصيرًا يكشف عن ركبتيها وتغطي ذراعيها بشال أبيض تكمش طرفيه بين أصابعها التي لا تقل رشاقة عنها.. وتضع قدميها الصغيرتين بما تسميه النساء «سابوه» بدي كاللبلاب المتسلق يلتف حول أسفل ساقيها ببراعة وجاذبية.. حياها علي ودعاها للدخول، قائلًا:

— تفضلي مدام مُهجة.

خطت مُهجة برشاقة ملفتة لعلها بدت مصطنعة بعض الشيء.. رمقها يحيى بنظرة لم تفهمها فهي تجمع متناقضات كثيرة صعب عليها تفسيرها آنذاك.. لم تجد فيها عكس توقعاتها، امتنانًا لما فعلته حيال مرضه.. لم تجد فيها ما اعتادته من أعين الرجال، بل وجدت نظرات رمتها

بأبشع التهم أهونها التطفل.. نظرات لها أذرع غاضبة تكاد تسحقها أو تدفع بها لحيث أتت من دون رجعة.

حيته وألقت بنفسها في خجل فوق أقرب مقعد وقالت بصوت أنثوي ناعم:

— حمدًا لله على سلامتك.. أتمنى أن تكون على ما يُرام.. كانت نوبة حمى شرسة، لكني أراك اليوم على أفضل حالٍ، عمومًا ما زال عليك البقاء بالفراش بضع أيام.. هكذا قال الطبيب.

قاطعها يحيى مستنكرًا:

— أي طبيب؟ هل زارني طبيب دون علمي؟

أجابته بثبات:

— حين علمت بمرضك استدعيت لك طبيب العائلة فلم تكن حالتك تسمح بالانتظار.

قاطعها بعنف واندفاع لم يخل من وهن، قائلًا:

— لم أطلب من أحد أن يستدعي الطبيب من أجلي.. من طلب منك هذا؟

سادت لحظات وجيزة من الصمت والحرج حاول فيها علي عبثًا إذابة الجليد بالتفوه ببعض كلمات الأسف والاعتذار غير أن كل محاولاته ذابت حين رأى مهجة على عكس ما تصور، هادئة، حكيمة، واثقة بنفسها، ترسم

ابتسامة أقل ما يُقال فيها أنها عذبة.

لم تتسرع بالرد، كما لم تستشعر الحرج، واكتفت بأن علقت بأدب كما لو كان يشكرها:

— لم أفعل غير الواجب نحن جيران والجيران لبعضها.

تجاهلت تمامًا ما قال، وأضافت:

— سأرسل الغداء مع نادية الخادمة خلال نصف ساعة.. أرجو ألّا تهمل الطعام في الفترة القادمة لتتماثل للشفاء سريعًا.. لقد التزمت بالأصناف التي سمح بها الطبيب.. قالتها وهي تنهض مستعدة للرحيل وسط حالة ذهول لم تخفيها عيناه شبه المغلقتان.. مضت تتبعها عيناه ومن قبلها الآف الأسئلة تكاد تجذبها للخلف مستوقفة إياها طلبًا للرد.

أي امرأة تلك التي تتنفس ثقة تقف بأعتاب الغرور؟ كيف لم تحرك وقاحته بها ساكنًا؟ هكذا هي الأمواج قد تنحت الصخور وتبقى في مأمن ممن يقذفونها بالأحجار.. لم تكن مياه مهجة راكدة ذات يوم.. فهي دائمًا من تترك ورائها أثر ولا يؤثر فيها شيء حتى طلاقها الأخير تمَّ بسرعة البرق وثبات الجماد ووقار الموتى.

كل شيء تم في عُجالة، الطلاق وكذلك الزواج. تزوجت

مُهجة قبل خمس سنوات من نبيل، رجل من أصل فرنسي لأبّ مصري وأم فرنسية.. كان لقائهما الأول مصادفة حين ذهبت للحصول على فيزا للسفر لتركيا. تعارفا هناك حيث أتى للغرض نفسه وتكررت لقاءاتهما على فترات متقاربة أخذت تتقارب أكثر حتى صارا شبه متلازمين لا يفترقان.. عندها قررا الزواج دام زواجهما قرابة الخمس سنوات أسفرت عنهما ابنتهما سارة تبدلت بعدها الأحوال فحل السأم والملل محل اللهفة والعشق وأخذ موجهما العنيف في الذوبان والانحسار شيئًا فشيء حتى تلاشى تمامًا تاركًا بعض الحصى فوق رمال باردة، شأنهما شأن كثير من الأزواج غير أن البعض يرى بالحصى والرمال ما يصلح لترميم الصدع ورأب الشرخ.. سافر نبيل بعد الانفصال للعمل بباريس تاركًا سلمى مع أمها ولم يحاول الاتصال بهما من قريب أو من بعيد. لم تقف مُهجة كثيرًا عند ما حدث فكانت أذكى من أن تحبس نفسها وراء قضبان رجل وأدهى من أن تتحول عيناها الكحيلتين لسحب تمطر لفراق رجل فكم أمطرت لأسباب أخرى.. هكذا لم ينتقص غياب رجلها من أنوثتها شيئًا بل ربما صارت أنوثتها من بعده أكثر شراسة وجاذبيتها أشد ضراوة.

تماثل يحيى للشفاء بعد فترة ليست بالقصيرة لم تنقطع

فيها مُهجة عن السؤال عنه ورعايته كما لم تخل هذه الرعاية من إعداد الطعام وإرسال الخادمة؛ لترتيب الغرفة ورغم هذا لم يتوقف هو الآخر عن بثها كلماتًا أقل ما توصف به أنها خالية من الذوق واللباقة.. لم تكن كلماته تجد صدى مختلف لديها فبقيت ردودها بكامل أناقتها وألفاظها بكامل رشاقتها وتحلت بالتجاهل ذاته، حتى خالها لا تسمع كلماته الفظة ولا ترى انطباعات وجهه الممتعضة.. تكررت الزيارات وتكررت قذائفه الملتهبة التي ما إن كانت تلامس جليدها تنطفئ وتخر ساجدة تحت قدميها تاركة علامة استفهام مرتسمة بملامحه تطرح سؤالًا واحدًا:

— أي أنثى أنتِ؟ أي نوع من النساء والبشر؟

كانت ترى السؤال ذاته كل مرة بعينيه فتزداد أنثاها ثباتًا وعنادًا إلى أن حدث ذات مرة أن جنَّ جنونه وقصف جموده وفظاظته في مقتل.. حدث هذا حين انقطع ملاك رحمته عن زيارته على حين غرة ودون إبداء الأسباب.. لم تفعلها وقاحته وكلماته المنفرة وصياحه المزعج بوجهها فمن فعلها إذًا؟ ثمة شيء أقوى من غلظته منعها عنه وبدل علامات استفهامه بعلامات تعجب.. لم يتعجب لغيابها قدر ما تعجب لحاله. كيف تجذبه أنثى من قمة القوة لقمة الضعف؟ تنبه أن لفظ أنثى صار من مفرداته اللغوية

الجديدة، لم يفهم اللفظ قبل ما يلتقيها.. علمته مهجة الفرق بين المرأة والأنثى وأن كل أنثى امرأة وليست كل امرأة أنثى، علمته معنى الثبات الانفعالي أمام أشد الطعنات وأكثرها نفاذًا للقلب.

ثار يحيى على نفسه ثورة شعب قهره حاكم جبار فانتفضت كل قطعة بجسده شجبًا.. لماذا بحق الجحيم ينشغل بها؟! ما الجديد، بل ما الفريد بها ليبدل قوانين جنونه وينزل لأرض الأسوياء فيشعر كما يشعرون ويمارس طقوسهم الحمقاء؟!

كان علي هو الآخر قد انقطع عن زيارته منذ تسلم عمله الجديد كمرشد سياحي بالأقصر.. زاد هذا من شعوره بالوحدة والافتقاد في آنٍ واحدٍ، لم يسمح له كبرياء جنونه الجريح بالسؤال عنها لكنه لم يستطع أن يمنع كل قطعة بجسده من ترقب عودتها بشغف.

مر أسبوعين كاملين كانا بمثابة سنوات عجاف ذاق فيهما كل أطياف الحرمان والجفاف، فأقسى أنواع الجوع هو جوع لما ألفنا نكهته فصارت مجرد ذكراه تسيل لعابنا.. ربما هو المبدأ ذاته الذي نسجت من خيوطه فكرة المطلقة العاهرة لمجرد أنها ذاقت نكهة الزواج، فكيف يصدق الجميع أنها لا تحن لمذاقه وأنها لا تتذوقه سرًا!!

لم يطل عذابه أكثر من أسبوعين عادت بعدهما مهجة تطرق بابه كعادتها بابتسامة ثقة كلها عذوبة. استقبلها بعجرفة كسيحة ووقاحة متخاذلة فحاول بث الروح فيهما فما استجابا.. ثمة شيء آخر يحركه، شيء لا يعرفه إلا الأسوياء.

دعاها للدخول بابتسامة لم تعتدها منه، فقال:

— حمدًا لله على سلامتكِ مدام مهجة، تفضلي.

وأمام نبراته المرتعشة أتى صوتها أنثويًا رقيقًا لكنه جادًا حازمًا، فأجابته:

— أسفة لا أستطيع الدخول فقد عدت الآن من الإسكندرية ولم تأت نادية اليوم.. فقط أردت الاطمئنان عليك.

وبمجرد أن أنهت جملتها سألها بلهفةٍ:

— هل نستطيع إذًا أن نشرب القهوة بأي مكان تحدديه؟ أحتاج لتغيير جو، أعتقد سيكون هذا مفيدًا لحالتي كثيرًا، إن لم يكن لديكِ مانعًا.

بقيت ملامحها جادة كعادتها رغم رقتها وهزت رأسها بالإيجاب قائلة:

— لا بأس، ولكن أمهلني بعض الوقت لأستعد.

كان لقاء يحيى ومهجة لقاءً فريدًا من نوعه.. كل ما فيه

ينذر بالغزو، غزو من دون مقاومة واحتلال عن استسلام لا عن مناهضة.

لم يُشهر بوجهها سلاحًا وإن كان لفظي.. كان استسلامه استسلام قرية ضئيلة تكاد لا تظهر لها ملامح على الخريطة أمام دولة عظمى بكل حضارتها وسطوتها، وسرعان ما سقطت لها فظاظة أبجديته وعجرفة نيرانه غير أن لا شيء فيها يسقط، بقيت شامخة عريقة لم تخذلها ورقة شجر بجزعها فتهوى أمام اجتياح الخريف.. هي امرأة لا يهزمها فصل ولا يقهرها خريف ذكوري، فقط سحقتها سادية أنثوية يسمونها مجازًا أم فلم تعرف معنى القهر بحق قدر ما عرفته بطفولتها على يد أمها.

تحدثا وثرثرا كثيرًا، ليس بالضرورة بالكلمات فكان حديثهما أحيانًا بلغة أكثر عالمية، لغة الصمت وأحيانًا العيون وعدد الأنفاس، أحيانًا تشي الأنفاس وتهدج الصدور بالكثير.

لم يغفل لحظة ثباتها الانفعالي صعب الاستثارة والذي بقى شامخًا صلبًا ريثما انهار كل شيء حين ألقى بدلوه بعد أحاديث طويلة ممتعة، فقال:

— لاحظت ربما بحكم خبرتي أنكِ تتحلين برباطة جأش يستعصى استثارتها، تنعمين بسلامٍ نفسي أحسدكِ

عليه.

صمت لحظات قبل أن يسترسل في الكلام محاولًا الزج بها لمساحة لاحظ أنها محرمة لديها، فقال:

— يقولون أن الطفولة عليها العبء الأكبر في تكوين الشخصية.. يبدو أنكِ عشتِ طفولة هادئة سوية خلقت منكِ هذا الكيان المتوازن.

ابتسمت بهدوءٍ، وقالت:

— ليست طفولتي، فهي بريئة تمامًا مما تقول.. لعلها فلسفة القهوة.

بدا مشدوهًا غير مستوعبًا، فأضافت:

— فلسفة جديدة خاصة بي أسميتها فلسفة القهوة.. فقد علمتني الحياة أن تكن لي فلسفتي الخاصة.

صمتت لحظة ضمت فيها فنجان الشاي لشفتيها ثم أعادته.. ورغم ما أثاره من تساؤلات بداخلها من مشاعر هوجاء أخذت تنهش بلحمها بقيت بقمة ثباتها محتفظة بالقناع ذاته وأضافت مفسرة:

— باختصارٍ أنا لم أعتد شرب القهوة، لم يكن مذاقها يروق لي فكانت تبدو لي شديدة المرارة إلى أن خطرت لي ذات مرة خاطرة لعلها بدت مجنونة آنذاك.. فسألت نفسي سؤالًا جوهريًا لماذا لا ندرب أنفسنا على تجرع

المرارة وتحملها، لماذا نهدهد أنفسنا ونددللها حين تستحسن شيئًا وتنعت الآخر بالمرارة، ليس لها الاختيار في الأمور الأكثر مصيرية فلما إذًا لا نجعل مرارة المذاق تدريب نفسيّ نقول فيه لأنفسنا أن لا اختيار لك، عليك فقط تحمل المرارة بل وربما التتوق إليها كما نتوق للعذوبة، هكذا شربت القهوة السادة كما يسمونها، وهكذا صارت فلسفتي المفضلة فكلما رفضت شيئًا وعافته نفسي فرضته عليها حتى استعذبته فصار جزءً منها ومني.

بقي صامتًا لحظات محاولة منه لاستيعاب ما قالت، لكن ما قالته أثار فضوله أكثر فسألها:

— ترى أي نوع من المرارة دفعكِ لفلسفة الأمور على هذا النحو؟

سرحت بعينيها بعيدًا محتفظة بالقناع ذاته وفيما وراء القناع ثمة شيء بداخلها ينطلق، يركض بسرعة البرق، لعله اخترق جدران طفولتها ومراهقتها، وأخيرًا سكن كل شيء حين بلغ غايته فكانت غرفة طفولتها المظلمة حيث ولدت فلسفات أخرى كثيرة غير فلسفة القهوة، ربما كان منها فلسفة الاستغناء.

حدثته بطلاقة وأريحية عن أشهر فلسفاتها، فبعد فلسفة

القهوة كانت فلسفة الاستغناء وهي فلسفة تتطلب مجهودًا ذهنيًا جبارًا وصفاءً جهنميًا ربما شابه هذا مهارات التنويم المغناطيسي فحكت أنها كانت تنفرد بنفسها ساعاتٍ طويلةٍ تغذي لا وعي طفولتها بفكرة واحدة، أن كل ما نُحرم منه لا وجود له على الإطلاق، تكررها عليه قولًا بعبارات والفاظ مختلفة وتصل لحالات من التركيز الذهني تسمح لها بمحو الصور فكانت بهذا تحذف من مفردات الطفلة بداخلها كل متع الطفولة المحرمة عليها وأولها الحنان والدفء والتدليل والهدهدة وكل ما ارتبط بصورة الأم.. وبهذه الفلسفة أسقطت من ذهن طفلتها حوائج اللذة الحسية من حلوى ودُمى وخلافه.. ولم تبذل بحق الكثير لتفعل فكانت تجربتها مع مثل هذه الأشياء لا تتعدى المرات القليلة التي تُعد على الأصابع.. هكذا سهل عليها حذفها من مفردات ذاكرة لم تنقش فيها مثل هذه الأشياء ذكرى ولم تضع قلمًا بصفحتها الخاوية.

ولم تكتفِ بفلسفات طفولتها فروت له أن شأنها شأن طفولتها لم تخل مراهقتها وبلوغها النضج الأنثوي من فلسفات عديدة، حيث طورت فلسفة الاستغناء لتصبح فلسفة الاستبدال فاستبدلت عالمها بعالم موازي بنت فيه من الخيال ما أخفق واقعها في توفيره لها.

كانت بعالمها الموازي تعلن بطلاقة أمر انفصالها عن زوجها الذي طالما أخفته بعالمها الواقعي.. هكذا تتجنب تكالب كثير من الذباب حول صحنها الخاوي عدا من بقايا وفتاتٍ، فهي في غنى تمامًا عن هذا.

أما بأرض واقعها فقد تلقنت درسًا آخرًا، درس الكف عن الضجيج.. الضجيج بأنواعه كافة، ضجيج الأفواه وكذا ضجيج القلوب.

سادت فترة من الصمت كانت كافية لتجتر فيها الكثير من ذكريات طفلة بائسة لكنها صامتة، صماء، فقط تطلق العنان لعينيها فتبكي لكنها دموع لم تذهب سُدى فكانت قطرات المطر التي أنبتت الصبار بالرمال فلقد جعلت له فلسفته الصحراوية، فلسفة الصبر.

طالت جلستها معه بضع ساعات لم تدرك عددها، قصت عليه فيها كيف عاشت طفولة ومراهقة بائسة يشوبهما كثير من الحرمان.. انتهت جلستهما لكنها تركتها بسؤال بلا إجابة، كيف فعلها؟ كيف خار جدارها العالي تحت قدميه فرأها عارية؟ تقص عليه ما لم يجرؤ على اختراقها والخروج من أحد مسامها.. على أية حالٍ هي لحظة ضعف ستنهيها فورًا.

سحبت نفسها بخفة ومضت بخطواتها الثابتة الرزينة

معتذرة إذ يجب عليها أن تغادر لارتباطها بموعد.. لم يحاول أن يستبقيها فكانت المشاعر ذاتها تسيطر عليه هو الآخر، فكان يسأل نفسه كيف فعلتها، لم تقتحم فقط خلوته بل دكت بابها دكًا فتهاوى وما عاد ليغلق مجددًا فحين تدك الأبواب نعتاد متعة التطلع إلى العالم حتى تصير فكرة إعادة إغلاقها غير مُستساغة.

كان طريقها للبيت مفروشًا بالذكريات يتصدرها صورة ثوب طفلة بائسة في العاشرة، كان أحمر قرمزي قصير لم يكن ثوبها بل ثوب أحلامها التي خنقتها أمها بسادية غريبة.. ولد حلمها بالثوب قبل العيد الصغير بأيام معدودة، رأته من الشرفة حين سألتها مُنى ابنة الجيران المدللة:

— هل اشتريتِ ثياب العيد يا مهجة؟

أتاها السؤال كالصفعة، صفعة ذكرتها أن من حقها أن يكون لها ثوبًا كثوب منى تحديدًا، ليس تشبهًا بها لكن لأن خيالها كان عاجزًا عن الخيال، فالخيال يأتينا من مخزون ما رأيناها واختزناه بالعقل الباطن ومثلها كان عقلها الباطن مجرد طفلًا بائسًا محرومًا ليس به ما قد يغذي الخيال أو يجلده بسوط فيرمح لمسافات بعيدة.

لم يكن بعقلها الباطن طاقة ليحرك خيالها قيد أنملة فلم ترى من الأثواب غير أركيتيب الثوب، تذكرت كيف ألحت

على أمها لتشتري لها مثل ثوب منى.. فقالت:

— أريد ثوبًا أحمرًا للعيد مثل ثوب منى.. لم يبق على العيد أكثر من أسبوع.

أجابت الأم بصوتٍ غاضبٍ، به حشرجة تبتلع بعض حروفها فتبدو الكلمات ممتعضة لاذعة رغم خروجها من شفاة أمومة، تبتسم ابتسامة مفتعلة:

— سآتيكِ بثوب أفضل كثيرًا من ثوب منى.. مَن منى هذه ابنة الحلاق التي تقارنين نفسكِ بها! ووالدكِ مدرس الإنجليزية الذي يأتيه الأعيان والأثرياء ليُعلم أبنائهم.. فقط امهليني يومين وسيكون الثوب الأحمر بين يديكِ.

جرت العادة أن يصدق الصغار أمهاتهم غير أنها لم تكن من بين هؤلاء، فكانت تعرف جيدًا تلك النظرات السادية بعينا الأم فإن حدث وقالت نعم برقة وعذوبة مفتعلة أدركت أن «لا» فسمعت من يهمس ساخرًا بأذنها بشيء على شاكلة» حين يلد البغل» أو «فى الجنة ونعيمها إن شاء الله». لكن لا حيلة لصغيرة مثلها غير مبدأ «خليك ورا الكذاب».. لكن عادة باب الدار لا يكن وراءه غير الخذلان.. وكعادتها خذلتها أمها بسادية شرهة لا شيء يسد جوعها لإيذاء أقرب الناس لها، طفلتها البائسة.

هي ليلة العيد ولم يأتِ الثوب الأسطوري الذي حكت عنه

الأم وكيف أنها ابتاعت مترين من الجرسيه الأحمر المستورد وعهدت بهما لأم إبراهيم جارتهم التي على حد قولها تحيك الثياب لكل بنات الحي، وأنها خاطت لفلانة هذا الثوب الأزرق الدانتيل الذي جلب لها العريس، ولعلانة هذا الثوب الساتان المزركش الذي أحرق قلوب زميلاتها غيرة وحسد، ويمر الوقت ولا يأتِ الثوب الأسطوري؛ فأمّ إبراهيم عندها واجب عزاء بشبين الكوم ولن تعد قبل أول أيام العيد وقبل أن ترحل أعطتها الفستان الأحمر قطعًا من القماش فقد تجد من يقوم بجبر أجزاءه غير أن ثمة شيء آخر بحاجة للجبر.. خاطر طفلة ليلة عيد.

تعرف جيدًا أن لا واجب عزاء لديها فهي قصة مختلقة فقط لإشباع سادية أمها وإدخال البهجة على قلبها ليلة العيد، وقد كان.. فهي تذكر جيدًا أنها رأت النشوة بعين أمها وهي تنقل إليها الخبر السيئ كما تذكر أنها رغم فلسفاتها الكثيرة بكت طويلًا، فكانت صورة الثوب الأحمر منقوشة بذهنها لم تكن لتمحوه فلسفة أفلاطون أو سقراط أو غيرهم من أعتى الفلاسفة فكيف بفلسفة طفلة بائسة.

ولم تقف سادية الأم عند هذا الحد، فكان لها في كل عيد جديدًا تقدمه لطفلتها البائسة فتزيدها بؤسا وتزيد نفسها تشفيًا وسعادة سادية لا آخر لها.. ففي العيد التالي عادت

خالة مُهجة من الكويت تحمل لها ثوب العيد الأبيض الذي يشبه كثيرًا ثوب الزفاف الأبيض، يتوسطه حزام من القطيفة البني يزيده بهاءً وروعة.. كادت مهجة تطير فرحًا بالثوب.. ارتدته أول أيام العيد فلم تخلعه عن جسدها حتى منتصف الليل حين تقلت جفونها بالنوم، وقبل أن تنام وضعت الفستان بعناية فوق المقعد بجوارها ليكون أول ما تقع عليه عيناها حين تصحو، لكنها صحت فلم تجد أثر للثوب.. ظلت تبحث عنه بجنون وتسأل أمها التي جلست كالتمثال بتعبيرات باردة وصمت يشوبه التشفي.. ورغم أنها لم تعثر له على أثر فإن الأمل لم ينقطع، فكانت قبل كل عيد تعكف على التفتيش عن الثوب بكل ركن توهمت أنها أغفلت البحث به في العام السابق، لكن هيهات أن تجد له أثرًا فتبكي بشدةٍ وسط فرحة تتراقص بعين أمها وهي تربت على كتفها متظاهرة بالتأثر والتعاطف.

مسحت مهجة دمعة سقطت في غفوة منها، وقررت أن تشرب فنجانًا من القهوة فقد يلهمها بفلسفة جديدة عجزت عن اتباعها، هي فلسفة النسيان.

•••

دلفت مهجة إلى غرفتها وأوصدت الباب بعد أن طلبت من الخادمة فنجانًا من القهوة؛ ربما لتوقظ بداخلها فلسفة

القهوة فتتحمل المزيد من الألم الذي أثارته بها ذكريات طفولتها.. وقبل أن تتناول القهوة أخذت حمامًا دافئًا بهدف إزالة التوتر وإسدال ستارًا وإن كان مؤقتًا على ذكريات خرجت عنوة من صندوقها المغلق على سنواتٍ من القهر فاستحال عليها إلزامها بالعودة.. نزلت بجسدها قطرات المياه الدافئة مستدعية معها ذكرى أخرى مؤلمة.. رأت نفسها طفلة خدعتها أمها حيث استدرجتها لتأخذ حمامًا دافئًا وباغتتها بمقصّ أتى على الأخضر واليابس برأسها فسقطت عنها جديلتها الطويلة لكنها لم تسقط وحدها فسقطت معها صورة مشوشة للأم، فكم مزقتها كثيرًا فعاودت لصقها في بعض لحظات الصفا الخاطفة فكانت كنسمة صيفٍ باغتت صقيع طوبة لحظات ثم تقهقرت.. لكن هيهات أن تعد الصورة لهيئتها الأولى فبسقوط الجديلة سقطت الصورة بلا راجعة.

مرّ بعض الوقت ربما بضع ساعات قضتها مُهجة بغرفتها تعيد وضع قناع القوة، تشحذ همتها وتجبر كسر أنثاها من جديد، أنثى مصطنعة من صنع يداها تتظاهر بالقوة وتتمتع بكم من الثبات الانفعالي غير أنها هشة من الداخل كالقشّ لا تحتمل زفير ماضي قد ينثرها أجزاء.. وبمرور الوقت عاد كل شيء لأصله.. الصلابة ذاتها.. القوة.. الشموخ.

لن تفعلها ثانية، لن تخرج عن السياق مرة أخرى، هو خطأ غير مقصود لن يتكرر.. سمعت صوتها الداخلي يقول لا مانع من إنعاش فلسفة قديمة، فلسفة الاستغناء فَـ فيها قوة وصلابة تقيم عودها حين يميل أو ينحني.

•••

مرة أخرى زاد نهم يحيى لقراءة دفتر وفية فكلما أحس بغربة أوى لكهف وفية فقرأ يومياتها باحثًا عن دليل إدانة لا براءةٍ، فلم يكن يميل للاعتقاد ببرائتها رغم أنه تمناها كثيرًا.. ثمة مشاعر متناقضة تنتابه وهو يقرؤها، يروق له كثيرًا أسلوبها وتعبيراتها كما يروق له ذكراها فيشتاق صوتها ورائحتها، ما زالت رائحة ثيابها التي اعتاد أن يضمها بعد فراقها تملأ أنفه وصدره، ما زال يذكر تعلقه بها كطفلٍ لم يكن وقتها يستوعب إيماءات حامد وأمه بشأن خلاعة وميوعة وفية.

لم يكن يعرف أن حامد اختزن له ميراثًا من الخزى والشك يسمونه دفتر يوميات.. لقد حرمه الاطلاع عليه في البداية ليسمح له فجأة بالاحتفاظ به فظل محتفظًا به كالقنبلة الموقوتة حتى يصير رجلًا فتنفجر بوجهه فلم يكن يفهم ما به وهو صغير.. هكذا كان يحيى كل يوم يدلف لفراشه جاذبًا ذكرى أمه، ذات الخمسمائة صفحة، من فوق

الطاولة ليقرأ..

كتبت وفية..

«الفوضى الخلاقة، أو الأزمة الخلاقة».

تشبه حياتي مع حامد بالفوضى الخلاقة، فقد خلق مني إنسانة مختلفة ربما أكثر جنونًا ورعونة لكنه أكثر قوة.. أحيانًا نجد القوة في الجنون، ليس الجنون بالضرورة فقدان للعقل بل هو الشتات عن المألوف، فحين نخرج عن السياق يرموننا بالجنون وقد عشقت الخروج عن السياق ليس رغبة في الظهور أو لفت الأنظار كما يظن البعض ولكن رغبة في التحرر، رغبة في الجنون، رغبة في الراحة من العقل.

قادني جنوني لأفعالٍ كثيرة، قادني للذهاب بعيدًا وراء ما أسميته أنا مغامرة وأسماه حامد خيانة، الخيانة هي كلمة مطاطية شيطانية، لماذا يسمونها خيانة؟ بعض علماء النفس من أمثال يونج أكدوا وبعنف ضرورة وجود طرف ثالث بالعلاقة لتستقيم، ربما فقط أردت لعلاقتي بحامد أن تستقيم أردت أن تقيم صلبها بطرفٍ ثالث.

وفية.

•••

لم تكن وفية تكتفي بسرد أحداثها اليومية وأمورها

الشخصية بل كانت أحيانًا تشير لكتاب أو رواية قرأتها وتطلق العنان لقلمها، ومن أكثر القصص التي أثرت بها بعد قصة العودة هو ما عُرف بأسطورة وضاح اليمنى وأم البنين.

كتبت وفية..

«صندوق وضاح» قرأت اليوم كتاب عن أسطورة وضاح مع أم البنين، تلك الأسطورة التي أشعلت خيال الشعراء وأشعلت النار بثوب هدوئي وأماني.. كيف نالت مني هذه الأسطورة كما لم تفعل بي أعتى المعارك؟!

تقول الأسطورة: إن وضاح اليمني الشاعر الوسيم عشق زوجة الوليد ابن عبد الملك فوشى بهما خادمها ذات مرة كان فيها وضاح بغرفتها، وأتى الوليد ليتحرى الأمر فأخفته أم البنين بصندوق.. وما كان من الوليد إلا أن طلب منها الصندوق ودون أن يفتحه ليتبين وجود وضاح من عدمه أمر جنوده بحفر حفرة ودفن الصندوق وهكذا اختفى وضاح للأبد.

لم يأخذ الجميع الأسطورة بمحملي الذي لم أرى غيره.. ربما رأوها حكاية خيانة ورأيتها حكاية شرف، هل بقى وضاح بالصندوق حتى دفن حيًا به؟ لماذا لم يصرخ؟! لم يقاوم أدنى مقاومة فلعله نجا وخرج حيًا لكنه إن فعل لوث

شرف امرأة ربما جمعته بها مشاعر.. هذا إن كان حقًا بالصندوق.. أم تراه كان خاويًا.

ورغمًا عني وجدتني أقارن حامد بوضاح الذي مات في شرفٍ وصمتٍ، لم يرق قطرة دم واحدة من شرف امرأة أحبته.. لقد عرف وضاح مغامرته فعاشها ومات لأجلها ولم يحاول الهروب.. لم يكن منطقيًا في استسلامه للموت فمات خارج السياق.

لعل وضاح كان الطرف الثالث الذي رشحه يونج.. لكني لا أتفق معه فإن كان لي أن أعيش مغامرتي فلا أريدها ثلاثية الأطراف بل ثنائية، فليكن أنا والآخر لا ثالث لنا.. فأنا نصف ينقصني نصف آخر.. لم أشعر يومًا أني ثلث أكتمل بثلثين.. معذرة إذًا ليونج الذي كثيرًا ما رفعت له القبعة وانحنيت اجلالًا وتقديرًا.

ليتني أكف عن القراءة وأكف عن هوسي بالجنون!

وفية.

«وحده قلمي يفرغ هواء بالوني السّام، لكنه يثقبني فتنفذ إلى الآف العيون لترى ما بداخلي».

•••

لحظات يترك يحيى فيها الدفتر حين يسقط جفناه عنوة فيذهب فيما يشبه غفوة خاطفة لا تتعدى بضع من الدقائق

ليصحو فزعًا بعدها على حين غرة، يتحسس بيده الدفتر ليتأكد من إنه موجودٌ لم يتبخر قبل أن يستطيع أن يرفع جفنيه. لعل نوع غريب من الهيستيريا قد أصابه يبقيه ساهدًا خشية أن ينام فيفقد أثر وفية.

ظل يحيى يقرأ اليوميات بحثًا عن شيء من الراحة وربما السكينة، فما زال بداخله شيء لا يسكن أو يرتاح، صارت قراءة اليوميات هي نوبات مرضية حادة تصيبه فيعكف على قراءة خواطر وفية التي لم تكن تخطر له على بال، صار كل ما فيها يصيبه بالغثيان لا يجد ثمة علاقة بين ما يقرأ وبين حالة من الفوران تصيب جسده تتبعها حالة من الإعياء الشديد، يسقط بعدها مريضًا أو محمومًا.

كتبت وفية..

«يموت الجسد حين تنبذه الروح كارهة الحياة فتخرج منه دفقة واحدة، أما روح الضمير فتبقى متشبثة بجسدها فتنسلخ منه شيئًا فشيئًا حتى يخور الجسد كاملًا ويسقط جثة هامدة لا حياة فيها. فلا ضمير تصعد عنه روحه بغتة فيموت.

إن ما يعده الضمير، للوهلة الأولى، جُرم يعذبه إتيانه ويقتل جفونه سهرًا وبكاءً، تأتي اللحظة التي تموت فيها قرون استشعاره حيال الجرم ذاته الذي قاومته قبل قليل..

هكذا فالضمير يخضع لعملية انتقاص تنال منه تكرارية الفعل حتى يسقط تمامًا دون حراكٍ.

هكذا يموت ضمير الأنثى بتكرارية الفعل حتى يصبح من نسج الضمير ذاته فلا يحسه جسمًا غريبًا فيقاومه.. أو لأقل هكذا مات جسد ضميري بعد أن نحل وذبل شيئًا فشيء حتى ركلته روحه صاعدة لبارئها.. ولأقل أنه عاش على فراش الموت سنوات يقاوم علاته ومرضه حتى أوشكت الهزيمة فقد سقط لمرض مزمن تآكلت على آثره عظام الجسد إلى أن ذاب كل شيء هو مرض أسميته أنا «الجوع العاطفي» وهو أقسى أنواع الجوع.. مرض تغذى على أعصابي فأتلفها ودمرها وتغذى على نبضات ضميري فعبث بثوابته وتركني فريسة، أنا من كنت ذات يوم أسود غابة من الضمائر بكبرياء وشموخٍ هكذا فعلها وفعلتها أنا أيضًا. فسقطت بعالمٍ موازي هيئه لي خالد فقد وجدت السقوط ذاته إنجازًا كنت مؤهلة لتحقيقه، حينها فقط أدركت أن السقوط موهبة وأني من الموهوبين.

كان حامد سبب حرماني الأوحد وجوعي العاطفي.. فحين كان الجوع يداهمني فلا أجد غير ما تعافه النفس وتزهده فمهما التهمت منه لا أشعر بالشبع ومهما تجرعت من كأسه لا أرتوي، باختصارٍ كان حب حامد لي لا يُسمن

ولا يغني من جوعٍ، هو حب امتلاك لا يسمو لمداعبة المشاعر وهدهدتها كالأطفال.. لم يخاطب يوماً مشاعر الأنثى بداخلي، كان خطابه خطابًا جافا أجوف خرجت على إثره بعاهة مستديمة، عاهة الشعور بالنقصان وعدم الاكتمال.

وجدت أصدق تعبير عن قصتنا في قصة «العودة» لجوزيف كونراد بمجموعته القصصية» حكايات من زمن القلاقل» رأيت حامد في ألفان هيرفي وشممت عطر أنوثتي بزوجته.. أتصور أن كونراد كان يرسمني ببراعة رسّام، ويثبر غورى بحنكة مححل نفسي تتلمذ على يد العظيم فرويد.

خرجت من هذه القصة بعبارة ثورية كان لها عظيم الأثر بحياتي «لا شيء يقيد أنوثتي»..هي أقوى شعاراتي الثورية.. أقوى من الاستقلال التام أو الموت، ومن كل هتافات الثورات المعاصرة التي سقط تحت أقدامها عشرات الشهداء لتحرير وطن.. لا تقلّ قضية تحرير الأنوثة شأنًا عن تحرير الأوطان، يضج التاريخ باسماء كثيرات هتفن لتحرير المرأة، كيف تتحرر المرأة وما زال بها مخلوق أسير اسمه الأنثى؟! ثورتها تختلف كثيرًا ستحرر الجزء ليتحرر الكل، هي ثورة حل أوثاق الأنوثة داخل المرأة،

ستقوم بحملات توعية لإحياء الأنثى بداخل كل امرأة فتصير على قيد الحياة لا الموت.

وفية.

« وحده قلمي يفرغ هواء بالوني السّام، لكنه يثقبني فتنفذ إلى الآف العيون لترى ما بداخلي».

•••

كان يحيى أحيانًا يسأم نوبات القراءة - كما أسماها- فكان يعدها مرضًا مزمنًا يداهمه في صورة نوبات شرسة تتلف أعصابه وتضرب فوضاها بجسده فيرتبك كل ما فيه، فهو حينها يثور على نفسه ويلجأ على استحياء؛ لما ظنه مسكناً يبعث الخدر بجسده بعض الوقت كان هذا المسكن يتلخص في أحاديثه مع مهجة.

تكررت اللقاءات بين يحيى وجارته الحسناء، كان فيها الكثير من وفية لعله الحُسن أو لعلها الفطنة والذكاء، أو لنقل هي القدرة على ضم الأشياء.. قدرة يفتقر إليها الكثيرون.

القدرة على لم الشتات وإن كانت مبعثرة بأماكن متفرقة بعيدة فهي قادرة على أن تدعو أجزاء الطير فيأتيها في الحال.. هكذا فعلت معه هو نفسه فقد أخذت تدعو أجزاءه المتناثرة حتى لمت شتاتها فأعادتها بموضعها الصحيح

لتكمل الصورة شكلًا ومضمونًا.. بات يدرك هذه القوة السحرية التي تمتلكها فسمح لها بالعبث به كما شاءت فكان يثق مقدمًا بنتيجة فعلتها.. ظل يحيى مستمتعًا بعبثها وبهذا الخيط الذي ألقت له طرفه أحد الأيام فالتقطه وأحكم قبضته عليه تاركًا إياها تصنع من الخيط نسيجًا رقيقًا لكنه من القوة والمتانة ليربط بينهما أكثر وأكثر.

وحين طال النسيج واشتد أحست مهجة أنها تستطيع أن تسأله عن سر بحياته آمنت بوجوده إيماننا بوجود الألهة.. ثمة سر يؤرقه ويعوقه عن الحياة، فهي تراه حيًا ولا تحسه كذلك، وشتان الفرق بين الرؤيا والإحساس.

التقيا اليوم بالمكان ذاته الذي طالما جمع بينهما فكان لقاءً غائمًا يتوقع فيه سقوط الأمطار، فهو غاضب ساخط على كل شيء. دار بينهما حوار طويل، فقالت مهجة:

— أعرف أنك مُحلّل نفسي ورغم هذا أثق أن المحلل النفسي بداخلك ما زال إنسان يصيبه ما قد يصيب غيره.

بدا على وجهه بعض القلق والارتباك لكنه ظل صامتًا لا ينبس، فقط رمقها بنظرة تطلب منها الاسترسال، فقالت:

— في كل لقاء لنا أشعر أن ثمة شيء بداخلك يقف بيننا، أحسه يعذبك ويعكر صفو حياتك لكنك تتجاهله

وترفض مواجهته.. أشعر أنك منجذبٌ لي ونافر مني في الوقت نفسه! فإن تحدثت إليَّ حدثتني بكلام أراه نقيضه بعينيك.

أجابها بعصبيةٍ:

— أنا أيضًا أحسكِ تخفين الكثير وراء هدوءكِ وابتسامتكِ الرزينة لكني أحترم صمتكِ، فعليكِ أن تتصرفي بالمثل.

كان جافًا حادًا لكنها كعادتها بدت متزنة ثابتة كمن لم تلحظ حدته المتعمدة وربما المفتعلة، فقالت:

— حسنًا وإن أخبرتك بما أخفيه بداخلي، هل ستفتح لي قلبك وتخرج ما بك؟

لم تنتظر الرد بل استرسلت في سرد الكثير عن حياتها. ربما ذكرت مواقف متفرقة كمن استلقت «بشيزلونج» المحلل النفسي وأطلقت لنفسها العنان.. تحدثت عن علاقتها بأمها، هذه الأم التي لم تنتهج من الأمومة أي من مناهجها.. قصت عليه حرمانها في طفولتها وصباها، روت له الكثير عن سادية أمها وشذوذ فكرها، فذكرت له حكاية الثوب القرمزي الأحمر وحكايات كثيرة على شاكلة قصة الثوب.. كانت ساحرة وهي تتنقل بخفة ورشاقة بين ذكريات بائسة مظلمة ورغم هذا فلم تغب عن شفتيها

الابتسامة الرقيقة التي فقدت شفافيتها وصارت عتمة لا تشيء عما ورائها لكنها رغم كل شيء ما زالت ابتسامة.. هكذا رأى فيها يحيى طفلة، لم يتصور قط أن تحمل هذه الأنثى الرقيقة بداخلها طفلة بائسة بلا جديلة هي عنوان الطفولة، تلهو فوق كتفيها معلنة أنها تنتظر حلول الأجل فتدب فيها نسمات الأنوثة والبكورة فتحلها معلنة بلوغها عهد الإناث.. كان يسمعها بأذنين، أذن العاشق وأذن المحلل النفسي، وكانت تحدثه بلسان واحدٍ لسان الطفلة لا الأنثى حتى كاد يسمع صوتها طفولي برئ ويرى الدموع بعينيها.. وكلما استرسلت أكثر في الكلام غابت الأنثى وطغت عليها الطفلة، طفلة ما زالت تتوق لجديلة وثوب أحمر قرمزي لم يحكه الزمن حتى اللحظة ولم يرتق الثقب الذي أخذ يتسع بنسيجه.. حدثته عن حديث أمها لها وهي على فراش الموت وقد سبق هذا زواجها بعدة سنوات فقد ماتت أمها قبل زواج مهجة بخمس سنواتٍ، وقبل موتها أفضت إليها بسر كثيرًا ما عذبها وأحرق قلب طفولتها وصباها وأخيرًا أنوثتها.. حدثتها أمها بصدرٍ متهدجٍ وأنفاس خافتة تكاد تخلو من الهواء، فقالت بصوتٍ مرتعشٍ واهنٍ:

— أعرف أني ظلمتك كثيرًا منذ كنت صغيرة. لكن سامحيني يا مهجة لم يكن الأمر بيدي، وصدّقيني يا

ابنتي فأنا لا أعرف سببًا لهذا.. ففي كل مرة كنت أراكِ سعيدة كانت النار تشتعل بقلبي ولا تخمد أو تهدأ إلا حين تنزل بها دموعكِ فتنطفئ وأشعر بعدها بسعادة ما بعدها سعادة.. صدقيني كنت أتعجب من شذوذي، لكني أعترف أني كنت أجد متعة ولذة غريبة في إيذائكِ لم أفهم لها يومًا سبب حتى إنني أحيانًا كنت أظنني مجنونة أو لعلني كما قال لي البعض ملبوسة يحركني الجان والعفاريت، فشعوري الشاذ نحوكِ لا يمكن أن يكون إلا رجسًا من عمل الشيطان، ومع هذا كان لإيذاؤكِ مذاقًا خاصًا يفوق مذاق الحلوى بفم طفلٍ شَرِهٍ، فكنت أنا أفوقه جوعًا وشراهة، لكنها شراهة من نوع خاص يسيل لعابها حين تشتم رائحة جرحكِ ينزف فتزيدكِ لتزيديني تشفّي.

صمتت لحظاتٍ وابتسمت ابتسامة خبيثة لا تتناسب مع لحظة الموت وسألت بصوتٍ غلب عليه ألم الاحتضار، تكاد روحها تتسرب من بين شفتيها مع كل حرفٍ، فقالت:

— لعل موتي سيسبب لكِ ألمًا فأثقًا أنك مع كل ما فعلته بك ما زلتِ بلهاء تحبينني، فهل أنا على حق؟

هزت مهجة رأسها أن نعم، وبعينيها فيض من دموع لم تعد تمسك بزمامها.

ابتسمت الأم ابتسامة التشفي ذاتها وأغمضت عينيها للمرة الأخيرة راضية مرضية.

لم تشعر مُهجة بنفسها وهي تفضي إليه بكل ما في نفسها دون أن تفهم السبب.. لعله مُحلل نفسي بارع أو لعله الكوب حين يمتلئ فيشرع رغمًا عنه في إفراغ بعضًا مما فيه. وكعادتها حين تصيبها نوبة إفراغ الكوب تنبهت بغتة لما تفعل، ربما حين أفرغت الزائد عن حجم الكوب ذاته، فهمت بالانصراف من دون سابق إنذار.. لكنه هذه المرة لم يتركها تمضي لحال سبيلها فبجِس المحلل النفسي استشعر أزمتها واقبالها على الدخول بمرحلة أكثر سوء.. جذب يدها حين امتدت لتحييه قبل رحيلها، وقال لها:

— انتظري سأتي معكِ. أود أن أطلعكِ على شيء هام.

حاولت أن تخلص يدها من قبضته فلم يترك لها مجالًا لتفعل، فقد قرر المحلل النفسي أن يستبقيها لا محالة.

بدت معاناتها النفسية غاية في الوضوح.. لم يسمح له أيّ الضميران التخلي عنها.. ضمير المحب وضمير المحلل النفسي.. هو حقًا يحبها، لم يعد ثمة شك بهذا.. لن يتخلى عنها مهما بلغ كرهه للنساء.

علقت دون أن ترفع بصرها عن بؤرة صغيرة فوق الطاولة ربما كانت بقعة من لا شيء لكنها تخجل من لقاء عينيها

بعينيه في هذه اللحظة تحديدًا.. لحظة انسكاب بعض من كوبها الأحمق الذي لا يحفظ لها سرًا، فقالت:

— لن أذهب لأي مكانٍ، بل أنوي العودة إلى المنزل.. دعنا نلتقي في وقت لاحقٍ أما الآن..

قاطعها وهو ما زال محتفظًا بيديها، قائلًا:

— قلتِ أنكِ تريدين معرفة ما أخفيه أو أتجاهله على حد قولك، وقد قررت أن أطلعكِ على ما لم أطلع عليه مخلوقًا، وأظنني لن أفعلها مع غيركِ.. فقط ستأتين معي الآن وأعدكِ ألا نتحدث بشيء يخصكِ فقد انتهت جلستكِ وستبدأ جلسة تخصني أنا فقط، أثق أنكِ قادرة على فهم ما أنوي إطلاعكِ عليه كما أثق في قدرتكِ على مساعدتي.

لعل كلامه كان فيه الكثير من التلقائية والصدق فاستطاع في لحظات معدودةٍ أن يجعلها تنصاع لأوامره وتنفذ ما قال دون جدال.

دخل يحيى شقته وتبعته مهجة شاردة.. لم تعد تنشغل بنظرية الكوب الممتلئ بل شغلها سؤال أكثر أهمية، ماذا سيطلعها عليه يحيى؟

لم تعتد التردد عليه بشقته وحدها دون اصطحاب الخادمة أو ربما ابنتها لكنها لم تفكر هذه المرة، فقط بقيت

ملتصقة في الباب وقفزت عيناها ترافقانه حيث يذهب.. وبعد برهة ربما لم تتعدّى الخمس دقائق عاد وبيده دفتر أسود ضخم لعله يبلغ ما يقرب من خمسمائة صفحة.

سألته:

— ما هذا؟ هل هو كتاب خاص بعلم النفس؟

هز رأسه أن لا، وقال:

— هي يوميات وفية، أقصد والدتي.. فقط اقرئيها وستفهمين الكثير ولنتحدث بعدها إن شئتِ.

تناولت الدفتر بشغفٍ أنساها ما كانت مقبلة عليه من نوبة تأنيب ضمير ربما يصحبها نوبة بكاء حاد كعادتها حين تسمح لبعض من ذكرياتها للتسلل خارج حدود جسدها النحيل. لكنها الآن، ولعلها كانت حيلة من حيل المحلل النفسي البارع، انشغلت بشيء بدا لها غامضًا جذابًا، فقد قدم لها يحيى عالمه الصغير في دفتر.

•••

وفية

كم رق قلبها كثيرًا لهذه الوفية التي وجدت فيها الكثير منها.. لو كانت تؤمن بفكرة تناسخ الأرواح أو بعث أرواح الموتى بأجساد بشر آخرون مرات ومرات؛ لآمنت أن روح وفية قد بُعثت فيها من جديد.

هي دون شك وفية، مثلها تسكنها طفلة ملعونة تعذبها بذكريات طفولة موجعة، وكذلك أنثى تؤمن بالبحث عن مغامرة وعلى استعداد لبذل أي شيء من أجل مغامرتها المرجوة.. أحبت وفية فأدمعت حين بكت وابتسمت حين أحستها سعيدة، وعشقت علاقتها ببدر وسلوى.. كم تمنت لو كان لها صديقة مثل سلوى أو أخت مثل بدر.

تمنت لو التقت المغربية وأخذتها في إحدى رحلاتها الأثيرية أو قصت عليها إحداهم.

أحست مُهجة إحساسًا غريبًا لم تفهمه، شعرت بشعور جيل بأكمله تعلق بالعيش بعصر جيل سبقه فتمتع بمميزات لم يحظى بها جيله، ليتها كانت وفية فهي على ما عانته تنجذب إليها بشدة دون أن تفهم السبب.

هزتها بعمق تلك الأبيات التي وردت عن الموت بالصفحات الأخيرة من يومياتها، فقالت:

سأموت وأترك خلفي سراب

فامرأة مثلي إن ترحل
تُغلق برحيلي الأبواب
لا شيء يبقى من عبقي
لن يبق بعدي غير ضباب
ستعيش بظل أوهامك
فتخال الوهم ثمر رضاب.

وأخيرًا انتهت مُهجة من قراءة اليوميات والتي اختتمتها وفية، قائلة: «ما زلت أملك مثلثًا شيطانيًا.. قلم أهوج.. شيطان شعر همجي وقلب لا أمسك زمامه».

في البداية لم تدرك مهجة سبب عذاب يحيى وكرهه للنساء، فلم تجد في بداية اليوميات ما يلفت نظرها إلى أن قرأت بعض الفقرات التي تُلمّح لخيانة وفية، رغم هذا لم تجد بداخلها ما يميل لتصديق خيانتها.

هي امرأة كما أنها تكاد تشبه وفية في كل شيء، تستطيع أن تفهم ما يختلج بصدرها وهي تخط كل كلمة بالدفتر.. لا يفهم المرأة غير امرأة مثلها.

كانت وفية ثائرة لا خائنة.. فإن كانت قد خانت لما احتاجت للكتابة ولو وجدت سلواها بأحضان رجل آخر.. لكن كل كلمة كتبتها تقول إنها تتألم عاجزة وحيدة.

لم تكتفي مُهجة بقراءة واحدة لليوميات فأعادت قرائتها

أكثر من مرة وكانت في كل مرة تصل لنتائج جديدة أخذت تسجلها وتُعيد قرائتها علها تلحظ شيئًا جديدًا حتى باتت تفهم وفية أكثر مما فهمت نفسها، وهكذا قررت تبني أمر الدفاع عنها.

فقد ربطت الأحداث ولم يكن من الصعب عليها أن تفهم بعدها سر كراهة يحيى للنساء وسر بعده الدائم عنها رغم أن حبه لها بدا جليًا لا يغفله مبصر.

وأخيرًا حسمت أمرها واستقر رأيها على الدفاع عن امرأة تشبهها رحلت عن عالمنا قبل سنوات طوال لكنها تركت أثرًا عميقًا وجرحًا غائرًا بنفس صغيرها فكبر معه هذا الأثر حتى صار هو الآخر رجلًا يعايره ويذكره بعاهة مستديمة وندبة بجبينه اسمها وفية.

ستذهب ليحيى لتتحدث بلسان وفية وتدرأ الشبهات عن نفسها أو بالأحرى عن وفية فهما سواء.

فتح يحيى الباب ليجد مُهجة تنشد الدخول.. لم تحاول اصطحاب الخادمة فلها معه حوار شديد الخصوصية لا يقبل ثالث لهما وإن كان الشيطان فلن يجرؤ الشيطان نفسه على حضور هذه الجلسة.. لم تكن قد التقته منذ المرة الأخيرة، قبل أسبوعين تقريبًا لعل كلاهما تعمد البعد لفترة تسمح لها بقراءة اليوميات.. كانت تحمل الدفتر

المهترئ كالعالم الذي يحمله بداخله، وقد انفصلت عنه بعض الصفحات الصفراء دليلًا على القِدم لا العراقة والزمن لا التاريخ.

دعاها للجلوس ففعلت بعد أن وضعت الدفتر على الطاولة.. بقيا صامتان برهة ليست بالقصيرة حتى أمسكت بطرف الخيط وقالت:

— وجدت تشابه كبير بيني وبين وفية.. فلأسميها وفية لأني أحسها صارت صديقتي، لعلها ليست صديقة من دمٍ ولحمٍ بل صديقة ورقية عرفتها وتحدثت معها بين صفحات الدفتر.

لم يجب بشيء عدا نظرات بلهاء لا تحمل معنى محددًا أو ربما كانت ذات معنى تعذر عليها فهمه.

— تعرف إنني أحسدك عليها، ليت لي أمّ مثلها.

قالتها بابتسامة بدت مرتبكة فهي لا تأمن عاقبة أي كلمة تتفوه بها، فيبدو لها الآن كقنبلة توشك أن تنفجر بأي لحظة.

استفزته عبارتها الأخيرة فما كان منه إلا أن التقط الدفتر وسألها وهو يقذفه بقوة ليسقط فوق الطاولة مجددًا مثيرًا من حوله عاصفة من الغبار:

— ما رأيكِ الآن وقد قرأتِ هذه اليوميات الملعونة؟

هل فهمتِ سر عذابي؟ حتمًا تفهمِ سر نفوري من بني النساء وأدركتِ سبب غرابة علاقتنا فأنا أريدكِ وألفظكِ، أحبكِ وأتظاهر بكرهكِ، آتيكِ خطوة لأبتعد عشرات الخُطى.. ثمة شيء بداخلي يجذبني إليكِ وثمة أشياء كثيرة تدفعني بعيدًا.. عرفتِ إنني ضحية أمّ مستهترة خائنة وأبٍ لا حول له ولا قوة، هو الآخر ضحية لها.

بقيت مُهجة صامتة لا تنبس، فقط ترمقه بنظرة حانية ملؤها ثقة كعادتها رغم ما قد يعتمل بداخلها من مشاعر هكذا هي جامدة صلبة حتى حين يعتصر الحزن قلبها أو تنحر أحاسيسها المرهفة قسوته المفتعلة. تبًا لهذه الصلابة التي لا تتعدى كونها قشرة جوز ما أرهف ما تخفيه بداخلها.. وأخيرًا سمحت قشرة الجوز بمساحة تنفذ منها بعض الكلمات، فقالت مهجة:

— نعم فرغت من قرائتها، لكني لم أقرأها مثلك بخلفية أحملها فوق كتفاي فتكف بصري أحيانًا وتبعث ضبابها أحيانًا أخرى فتتعذر الرؤية وتصبح ضبابية مخادعة.

استمع إليها يحيى كمن يسمع بكل أعضاءه لا بحاسة واحدة.. كل ما فيه يسمعها، ربما تسمعها المسام الدقيقة ببشرته، وشعرات رأسه البنية اللامعة.. كل ملامح وجهه

تختلج وتشرد متأملة ما تقول.

فهمت أن كل ما فيه يدعوها للاسترسال، فقالت:

— لقد لاحظت شيئًا بالغ الأهمية، وأثق أنه لم يلفت انتباهك كما لم يخطر لك ببالٍ.

رمقها بنظرة تحمل معنى واحد، أن هات ما عندك دون مقدمات، فقالت:

— إن يوميات وفية لم تُكتب بخط واحدٍ ولم يكتبها شخص واحد.

قاطعها بحدةٍ:

— لا أفهم قصدكِ حتمًا حين يقرر أحدنا كتابة يومياته، فهو شيء غاية في الخصوصية لا نشرك أحدًا به.

أجابته بهدوءٍ:

— فعلًا عندك حق فيما قلت، لكني لم أقصد ما فهمت.. أقصد أن ثمة أجزاء كُتبت بخط آخر ويدٍ أخرى ولكن بحرفيةٍ خبيثةٍ بحيث يكاد لا يكتشفها إلا من يفهم قراءة الخطوط والتمييز بينها، والمثير للدهشة أكثر أن هذه الأجزاء تلمح لخيانة وفية بطريقة غاية في الدهاء تحاول أن تبدو غير متعمدة فتضعها في سياقٍ جذابٍ قد يتناسب مع عبارات امرأة متحررة تعبر عن مشاعرها

بحرية وطلاقةٍ فلا تعدها خيانة بل حق من حقوقها وبهذا يترك للقارئ الحكم بنفسه.

حاول يحيى مقاطعتها فقالت دون أن تترك له مجالًا للمقاطعة:

— انتظر فلم أنته بعد، لم أفرغ من إبداء رأيي. ليس أدل على ما أقول من العبارة التي اعتادت وفية أن تختم بها كلامها في كل مرة تنتهي من الكتابة: «وحده قلمي يفرغ هواء بالوني السّام، لكنه يثقبني فتنفذ إلى آلاف العيون لترى ما بداخلي».

لاحظت أن الأجزاء المكتوبة بخطٍ مختلفٍ لا تنتهي بهذه العبارة فلم يلحظ من فعلها أن وفية تختم دائمًا ما تكتب بهذه العبارة.. ربما كان هذا الخطأ الذي يتركه كل مجرم وراءه.. ولاحظت أيضًا كثيرًا من الشطب والتصويب بفقرات تنتهي بهذه العبارة.

رمقته بنظرة لتتابع انفعالاته وردود أفعاله أول بأول، فهكذا اعتادت رصد أي تغيير يطرأ بوجه الآخر لتتصرف حياله.. عاودت بعدها الحوار فأضافت:

— لفت انتباهي كذلك تناقضًا صارخًا بين كل ما خُتم بهذه العبارة وما لم يُذيل بها.. باختصارٍ لقد استشعرت أن اليوميات لم يكتبها شخص واحد بل اثنان كما لم

تكتبها امرأة فحسب بل امرأة ورجل.. أجيد التمييز بين أسلوب الرجل والمرأة في الكتابة، فَـ للرجال عادة لغة حادة وألفاظ قوية ومباشرة.

بدا يحيى مشدوهًا يحاول استيعاب ما تقول.

واصلت مهجة الكلام، فقالت:

— لاحظت أيضًا في بعض الأحيان عدم ترتيب الأحداث و..

صمتت لحظات تجمع أفكارها، وأردفت قائلة:

— أحسست أن ثمة صوت ذكوري قوي ببعض الأجزاء المكتوبة بخطٍ مغاير للخط الأصلي يحاول توجيه القارئ لفكرة واحدة هي الخيانة.

جالت ببصرها بالغرفة ثم استقرت عيناها على وجهه، فكان شاحبًا تكسو جبينه حبات عرق كثيرة كمن أصابته الحمى.. تعرف ما يعتمل بداخله الآن لكن لا نية لديها للوقوف عند هذا الحد فأفضل طريقة هي طرق الحديد وهو ساخن.

عادت لتسترسل في الكلام من جديدٍ، فقالت:

— وقفت كثيرًا عند المرأة المغربية.. مرت على هذه الأحداث سنوات طويلة.. ماتت فيها وفية وأم حامد وبقي حامد شبه ميت.. ترى هل فارقت المغربية الحياة

أم أن أجلها قد طال لحكمة لا يعلمها إلا الله؟

أجابها يحيى متسائلًا هو الآخر:

— وما شأن المغربية هنا؟ لا أظنها إن كانت ما زالت على قيد الحياة قادرة على إضافة شيئًا جديدًا.

أجابته بثقةٍ شديدةٍ:

— بل أظنها تفيدنا كثيرًا فهي كما فهمت تتمتع بقدرات ومهارات خاصة، كما أنها كانت قريبة لوفية تعرف عنها كل صغيرة وكبيرة، وعادة تحب النساء أصحاب هذا النوع من المعرفة من أمثال المغربية.

قالتها مهجة بثقة مَن تعرف جيدًا ما ترمي إليه وتدرك عواقبه.

بقى يحيى صامتًا فالتقطت مجددًا خيط الحوار وقالت:

— هل تعرف ما هو الخطأ الفادح الذي دمّر حياتك وأتلف أعصابك؟

لم تنتظر منه رد، بل أضافت:

— أنك كرجل شرقي ثارت ثائرتك لما قرأت ومِلت لتصديق خيانة وفية وساعدك في هذا ما دأب والدك وأمه على بثه فيك من شك فيها وفي سلوكها، منذ أن كنتَ طفلًا فصرت أنت أرضًا خصبة بذر فيها هو بذور شكه وترك لك هذه الأوراق عن عمد لتساعد بذورك في

النمو والترعرع.. ولم تحاول أنت تحري الأمر فكان مخزون حامد بك أكبر من أن ينفذ أو أن يشعرك بالحاجة لمصادر أخرى.

صمتت لحظة، وأردفت قائلة:

— باختصارٍ يا يحيى لقد علمتني الأيام أن لا ألعب شتى الأدوار في آن واحدٍ؛ فثمة دور واحد يناسبني وأثق من براعتي فيه فلأترك غيري ليمارس دوره.. هكذا تدور عجلة الحياة.. وخطأك أنك لعبت كل الأدوار فأنت القاضي والجلاد والضحية في آنٍ واحدٍ. في حين أنك أغفلت أهم دور كان الأحرى بك أن تلعبه.. دور الدفاع.

قاطعها قائلًا:

— قد يرفض الدفاع قضية لثقته بأنها قضية خاسرة محسوم أمرها وهكذا شعرت فلم أفكر في بذل الجهد هباء، فإن لم تكن آثمة فلماذا قبلت إذًا أن تبتعد وتُحرم رؤيتي؟

أجابته بهدوء:

— ليست قضية خاسرة بل قضية مضمونة.. صدقني فيما أقول وعندي الكثير من الأمثلة القاطعة.. فإن لوفية أسلوب بلاغي رقيقٍ يميل للحنين إلى الماضي فهي من قالت:

«الذكريات مخلوقات هلامية تعيش معنا فيشيخ بعضها ويمت، ويبقى البعض الآخر لا يتأثر بزمنٍ أو وقتٍ».

نعم هذه هي وفية، لكن تأمل هذا القول:

«سأفعل ما شئت ولن يعنيني زوجٌ أحمقٌ، وطفلٌ أكثر منه حماقة».

وكذلك هذه العبارة:

«حامد إنسان يستحق من هي أفضل وأكثر وفاء مني، فلم أكن له زوجة وفية بقدر ما كان لي زوجًا كثير العطاء، وكنت دائمًا عند سوء ظنه بي، أحدثه فأكذب، يلاطفني فأنهره، يحنو عليّ فأقسو بشدة فهكذا ينبغي أن يُعامل الرجل فتمسك المرأة زمامه».

ليس هذا بأسلوب وفية، كما أنه منافيًا تمامًا لكل ما قالته وسجلته عن حامد.. كذلك لاحظت أن وفية لم تكن تذكرك كثيرًا رغم رهافة مشاعرها واحساسها الرقيق.. كيف إذًا لا تذكرك بشيء؟ ألا يبدو ذلك غريبًا؟ صدقني ثمة يد عبثت بيوميات وفية وزجت ببعض العبارات والفقرات وربما الصفحات لا لشيء عدا أن تدمر صورة وفية بعينيك فتراها خائنة.

بقي صامتًا يسمعها في ذهولٍ بأعينٍ شاردةٍ ركلت حدقتيها ومضت ترفل بين صفحات اليوميات دون أن تعد

أدراجها فبدت أعين بلا بصر، مجرد إطارين خاويين.

تنبه بعدها كمن تذكر شيئًا بغتة وقال متحديًا:

— وماذا عن الصفحات التي تحدثت فيها، ببراعة المجرب وحنكة الخبير، عن موت ضمير الأنثى بتكرارية الفعل مشيرة للتشابه بينها وبين زوجة الفان هيرفى بروايتها الملعونة، وقد عرفت جيدًا من تكن هذه الزوجة.. هي فقرة غاية في البلاغة ورقي الأسلوب وهو الأسلوب ذاته الذي تكتبه وفية.

أجابته بابتسامةٍ هادئةٍ:

— نعم أذكر هذه الصفحات وقد توقفت كثيرًا عندها، وهي الصفحات التي لفتت نظري لبلاغة وفية وأسلوبها المميز الأقرب للروائي فأخذت أقارن الصفحات والأسلوب وأطوي كل صفحة اختلف أسلوبها وخلى من البلاغة والفصاحة فكانت المفاجأة.

سألها بلهفةٍ:

— أي مفاجأة؟

أجابته بالابتسامة ذاتها:

— المفاجأة أن أتت كل هذه الصفحات تدافع عن حامد وتدين وفية بوضوح وعمد يستحيل إغفالهما.

عاد ليسألها:

— ما تفسيركِ إذًا لما كتبته بنفسها، هذا إن صح اعتقادك بأن ثمة أجزاء أضيفت خلسة ليومياتها؟

أجابته بثقة شديدة:

— حتى هذه الجزئية عندي لها ردّ مقنعٌ.

ابتلعت ريقها كمن تشمر عن ساعديها استعدادًا لمعركة ضارية ثم واصلت الحوار بأريحية الطالب المتفوق الذي أحسن الاستعداد لاختباره النهائي، فأردفت قائلة:

— للخطأ درجات، ولكل ضمير محرماته الخاصة به التي قد تزيد أو تنقص من شخصٍ لآخر.. ولم تُجزم وفية بما قصدته بموت ضميرها، وعلى أية حال فمن يستطيع أن يضيف فقرات للدفتر فقد يُعدل فيما كُتب بالإضافة والحذف وقد لاحظت شطبًا وتصويبًا كثيرًا في هذه الفقرة تحديدًا كأنه تم تعديلها أكثر من مرة.

أما عن ما أظنك تعنيه بالأخص أقصد ما قالته عن التشابه بينها وبين زوجة هيرفى، وأن كونراد كان يصفها فقد رأت وفية أن حكاية الفان مع زوجته هي من نُسج خيالة المريض فلا دليل واحد بالرواية يدعم شكه أو يؤكد خيانتها عدا الرسالة التي تركتها والتي لم يعرف القارئ محتواها نصًا.. لا تكفي الرسالة للاعتقاد بخيانتها فربما تكون قد همت بالفعل فلم تتمه وعادت.. كذلك وفية قررت

أن تسعى وراء مغامرتها لكن لا دليل إدانة هنا يؤكد كونها مغامرة مشينة.. ولعلها أيضًا كانت تلمح لتشابه حامد مع الفان هيرفى في إهماله لمشاعرها وإغفاله لحاجتها العاطفية وشكّه المريض بها.

صمتت لحظات تسترجع شيئًا، ثم قالت:

— هل تذكر عبارة كررتها وفية بيومياتها؟ أقصد «لا شيء يقيد أنوثتي».. ثمة تشابه جديد بين حكايتها وحكاية هيرفى وزوجته، فكان هيرفى لا يفهم معنى أنثى وكذلك حامد.. وفية كانت تشعر بأنوثتها وتسعى لتحريرها من قيد حامد وشتان الفرق بين تحرير الأنوثة والخيانة.. لقد أعجبتني العبارة كثيرًا وأحسستها تتكرر بأذناي كلما اختليت بنفسي، لا شيء يقيد أنوثتي، حقًا لا شيء يحق له تقييد أنوثتي.

شرع يحيى في تغير مسار الحوار، فعاد ليسألها:

— وما رأيك بإشارتها لقصة وضاح اليمني؟ أليس ثمة ما يقلقك أو يثير شكك بهذه الجزئية؟ أراها تشير بوضوح لخيانة الزوجة دون أن تبد أي استنكار للخيانة بل كان تعليقها الوحيد أن أسعدها اختفاء وضاح دون أن يتضح الأمر إن كان خيانة أم لا.

أجابته على الفور نافية ما قال:

— بل لم تُحسن فهم الإشارة لقصة وضاح اليمني.

— اشرحي لي إذًا.

قالها بسخرية لاذعة لم تنل من ثقتها وثباتها، فقالت:

— أشارت وفية للقصة بكلمة «أسطورة» وهي حقًا يُشار إليها بالكلمة ذاتها فلن تجد أبدًا من يستطيع الجزم بأن وضاح كان بالصندوق، وكذلك مقارنتها بين موقف حامد وشكه بها وهي من وجهة نظرها ليست بخائنة وليس ثمة دليل واحد على خيانتها، وموقف الوليد من زوجته رغم وجود الصندوق الذي قد يقطع الشكَّ باليقين إلا أنه آثر أن يبتر الشك فلا يتتبع خيطه الذي قد يقوده لما قد لا يُحمد عقباه.

ظل يحيى صامتًا ربما يسترجع أيًا من نظريات التحليل النفسي التي يعمد إليها في أحلك المواقف وأصعب الحالات، فحدث نفسه أنها قالت أن العلاقات الزوجية لا تستقيم إلا بوجود طرف ثالث هو العشيق أو العشيقة.. نعم قالتها مرة لكنها لم تؤيد الفكرة بعدها بل لفظتها.. إن كانت خائنة إذًا لما فعلت.. لقد قالتها حرفيًا أنها تؤمن بثنائية العلاقة وأنها ليست ثلث لتكتمل بثلثين بل هي نصف يحتاج لآخر.. هكذا ظل يعبث بنظرياته وقراءاته المحفورة بروحه إلى أن آثر الصمت فكف عن الضجيج وماتت

حروفه فوق شفتين مرتجفتين تاركًا لها الفرصة لتلتقط طرف الخيط مجددًا.

قطعت صمته مضيفة:

— دعك من كل هذا الجدل بشأن خيانة وفية من عدمها وأجبني ألم تلفت نظرك هذه العبارة لوفية؟

قرأت العبارة بصوت يكاد يذكره بصوت وفية فقالت:

— «أحسه يجذبني لهوة سحيقة لا أعرف ما بقرارها، هل موت أم موت؟! احتمالين لا ثالث لهما.. لعلها صدقت صديقتي المغربية».

وبعدها بسطرين قالت:

— «أحيانًا نشعر أن الموت وشيكًا ومع هذا لا نُعد له العدة فنحن لا نُصدق حدسنا حين يحدثنا عن موت، فليقل أي شيء آخر غير الموت لنصدقه. فليقل وعكة صحية مثلًا أو ربما ضائقة مالية، أو حتى خيانة زوج.. قل أي شيء أيها الحدس ولكن لا تقل موتًا فلسنا على استعداد للاعتقاد بنظرية الذوبان ثم التلاشي.. أن تتبدد كتلة دمٍ ولحمٍ ومشاعرٍ كل ما بها يتحرك كترس ينقل الحركة لما بعده بحيوية ونشاط فتصير مرتعًا للديدان والطفيليات ثم بضع عظام نخرة، لا نصدق مهما بلغ إيماننا بالموت ومهما رأيناه رؤى العين، أن الصخب

يصير سكونًا وكل شيء يصبح لا شيء.. الموت هو أن يتحول كل شيء لنقيضه ولم تصمم عقولنا لتفهم المتناقضات طواعية ربما لو قلت لنا أيها الموت أن ثمة أجساد أخرى في انتظار أرواحنا لتسكنها بعد صعودها لقلنا لك على الرحب والسعة؛ فنحن بنى البشر نحب التغير ونتطلع كأجدادنا الفراعنة لفكرة الخلود.. حتمًا ستروق لنا مثل هذه الفكرة.

أما إن تنبأ الحدس بموت فهو شيء غير ملموس لا أراه ولا أمسه بأطراف أناملي فأحس دفئه وبرودته.

فماذا إن قالته المغربية؟ إن قال لك دم ولحم وأنفاس أن صار موتك وشيكًا.. قالتها حرفيًا كما قالتها بالإيماء والإشارة، قالتها حتى بلغة الدجل والشعوذة حين جلبت لي قدر كبير وملأته بالماء وظلت تتلو عليه كلمات وتتمتم بتعاويذٍ لم أفهمها ورغم ثقتي بأن القدر لم يكن في قاعه شيء فقد كان ملأه ماء إلا أنها أمرتني بعدها أن أمد يدي بقاع القدر لأخرج ما به فكان قاع القدر مغطى تمامًا بالطمي، كان طميًا لم أعهده من قبل لعله طميًا من جهنم.. لم أفهم بالتأكيد معنى هذا لكني قرأته بغيمة كست ملامحها حتى كادت عيناها تمطران دموعًا.

علقت مهجة على هذه الفقرة من يوميات وفية فقالت:

— ألم تفهمِ ما تعنيه وفية؟ كانت تشعر بدنو أجلها، ليس مجرد شعورًا بل هي كذلك نبوءة المغربية.. لقد سيطرت عليها فكرة الموت ولا أسوء من أن ننتظر الموت ونحن على يقين بحدوثه.

سرحت مهجة بعينيها لحظاتٍ، ثم قالت بلهفةٍ:

— هل تذكر إشارة وفية لشعر دانتي حين قالت: «صحيح أن الحب هو أبو الغيرة ولكن هذا الأب يجب أن يحسن تربية ابنته وإلا قضت عليه، والغيرة شعلة من نار ترتوي من دمائنا، وإذا كان الحب جريمة، فالغيرة هي أقصى العقوبة».

وفقرة أخرى تقول: «إذا كانت للحب عين واحدة، فإن الغيرة لها ألف عين. والموت وحده هو الذي سوف يُطبق هذه العقوبة، الموت وحده هو الذي يفقأ هذه العيون، هو وحده».

استمع إليها يحيى باهتمامٍ ثم علق:

— أذكرها، لكني لم أفهم.

أجابته:

— قريبًا ستفهم ولكن بعد أن أمسك بالخيوط جميعًا.

صمتت لحظةٍ لتفكر، ثم سألته:

— بالمناسبة كيف ماتت وفية ومتى تحديدًا؟

شرد بعينيه لحظة، وقال:

— حدث هذا بعد مرور عامين تقريبًا على تلك الليلة المشئومة التي التقيت فيها وفية للمرة الأخيرة.

سألته بصوت خافت فيه كثير من الألم:

— وكيف شعرت حينها؟ هل حزنت لموتها؟

أجابها بضعفٍ لم تخفيه الابتسامة المرسومة على ملامحه:

— لم أستطع أن أصدق أن يموت مثل هذا الحسن وهذه العذوبة، فرغم أني لم أرها منذ هذا اليوم المشئوم إلا إن صورتها الأخيرة كانت منطبعة بذاكرتي لم تستطع الأيام محوها.. حتى وجدتني أسأل نفسي سؤالًا عجيبًا لا أعرف كيف خطر بعقلي آنذاك، كيف لم يرق قلب ملك الموت لوفية فيتركها تعيش؟ كيف فعلها ولماذا لم يقرر الانتظار بعض الشيء علها تشيخ وتذبل وتستحق السقوط ؟ أعرف إنها فكرة مجنونة لكن فلتشيرين بأصبعك على فكرة واحدة من بين أفكاري لا تُنعت بالجنون.

صمت لحظة، هي لحظة تأملٍ وربما استجماع لقواه ليتذكر موت وفية ثم قال وقد اكتملت ملامح الذكرى بذهنه:

— كما قرأتِ في اليوميات، تمّ الطلاق بين وفية وحامد، بعدها حاول حامد كثيرًا استعادة وفية لكنها كانت عنيدة متشبثة بحريتها غير مستعدة للتنازل عن أي مكاسب حققها لها الطلاق.. هكذا كان حامد من آن لآخر يداعبها بحرمانها مني ومنعها رؤيتي وكثيرًا ما كانت تنهار وتصاب بنوبات اكتئاب حاد تبقيها بالمنزل أيامًا وربما أسابيعًا.

قاطعته مهجة:

— هذا يوضح تعلقها الشديد بك وهو ما يدعم نظريتي، كيف إذًا كانت مقتضبة لهذا الحد في الحديث عنك أو الإشارة لك باليوميات؟ وكيف لم تشر من قريب أو من بعيد لهذه الجزئية؟ جميع من يكتبون يومياتهم تُلح عليهم الرغبة بالكتابة في أحلك اللحظات لا أسعدها، ولا أحلك من حرمان أم من صغيرها فكيف لم تشر مطلقًا لهذا؟

سألها باستخفافٍ:

— وما تفسيركِ لهذا؟

أجابته بثقةٍ:

— تفسير واحد لا ثالث له، أحدهم قد عبث بيوميات وفية فحذف منها قدر المستطاع ما قد يدين حامد

ويبرئ وفية دون الإخلال بسياق اليوميات وترتيب أحداثها.. فلنعد الآن للب الموضوع فلم تجبني بعد كيف ماتت وفية؟

عاد ليسترسل في الكلام، فقال:

— بسبب المشاكل الكثيرة بينها وبين حامد والتي كنت أنا دائمًا محورها، باعتباري الورقة الرابحة التي يحتفظ بها حامد لاستعادة وفية، تدخلت جدتي لأبي وعقدوا اتفاقًا يقتضي أن تأتي وفية في عطلة نهاية كل أسبوع لتبيت معي ومع أم حامد بينما يقضي والدي هذه الأيام ببورسعيد لإنجاز بعض الأعمال الخاصة بتجارته.. وكان هذا هو شرط حامد الوحيد ليسمح لها برؤيتي وأن تضمني بصدرها بفراشٍ واحدٍ كأي أم، فكان يرفض تمامًا أن تصحبني لأقضي ليلة أو ربما اثنتين عند خالتي بدر زاعمًا أنه بيت سيء السمعة.

علقت مهجة:

— حسنًا هذا أمر مألوف حين يحدث طلاق، فكل هذه الأمور متوقعة كثيرة الحدوث.

بدا يحيى كمن لم يسمع ما قالت، فكان يعيش سياق الأحداث كمن يراها تتكرر مجددًا أمام عينيه وعاد ليسترسل في الكلام، قائلًا:

— تكررت زيارات وفية في نهاية كل أسبوع التزامًا بالاتفاق المبرم بعد الطلاق وقبل انقطاع الصلة تمامًا بوفية.كنت أحسها سعيدة لوجودها معي لكنها كانت دائمًا سعادة ناقصة ثمة شيء لا أفهمه ينغصها.

قاطعته متسائلة:

— تُراها كانت تؤمن بدنو الأجل كما قالتها بيومياتها؟

أجابها:

— لعلها كانت حقًا تشعر بشبح الموت يطاردها، فقد أماتتها نبوءة المغربية الآف المرات قبل أن يأتيها الموت بحقٍ.. ليتها كانت تعلم بكذب نبؤتها فتتمتع بالعامين التاليين للنبوءة، غير أنها كانت تنتظر الموت كل ليلة، فكانت تصحو من النوم في منتصف الليل مصدرة صرخة عالية وحين كنت أسألها كانت ترد بكلمةٍ واحدةٍ» كابوس»، وأحيانًا أخرى كانت تقول»المغربية».

أطلق يحيى نفسًا عميقًا من صدره كمن كان يحبس أنفاسه لفترة، وقال:

— تكررت هذه الأشياء إلى أن كان آخر يوم قضته معي ببيت حامد.. كنت عائدًا لتوى من المدرسة وكان يوم الخميس وقد وعدتني قبلها أن تأتي قبيل الظهر قبل عودتي من المدرسة بساعةٍ؛ لتعد لي الطعام فقد سئمت

كل ما تطهوه جدتي، أو ربما كان مجرد الحنين للبيت والطقوس التي آلفتها منذ أن كنت صغيرًا.. اشتقت العودة من المدرسة لأجد أم في ثياب بيت تحمل بطياتها بقعة زيت وتفوح منها رائحة طعام، ولعلها كذلك تحمل لي رائحة أمان فلا أمان لطفل مثلي في ثوبٍ أنيقٍ وحذاءٍ عالٍ بكعبٍ رفيعٍ ترتديه أمي، فأعرف أنه بعد مرور بعض من الوقت ليس بالكثير سيحمل هذا الحذاء اللعين أمي بعيدًا فترحل دون أن تترك لي رائحتها في ثوب أضمه وأنام في كنفه، أو ربما أفترشه وأنام فوق صدره.. هكذا كنت دائمًا أبحث عن طقوسًا اشتقتها وعشقتها فلم أعد أنتظر طعامًا بل أتوق لطقوس إعداده ولا أشتهه نوم لكني أشتهه طقوس طفل اعتاد النوم بحكاية بصوت أمه ورائحة أم بالغرفة.. فَـ للأم رائحة لا تخطئها أنف طفلها وكذلك لها نكهة يذوقها في قبلة تطبعها فوق جبينه قبل النوم، تبًا لطقوسكِ يا وفية فكثيرًا ما عذبني غياب طقوسك فرحلتي عني ولم تصحبيها معكِ فظلت تطاردني في طفولتي كالأشباح.

كانت كلماته وعباراته أكبر من أن تعلق عليها بلغة أبلغ من لغة الدموع فانهمرت من عينيها دموع ربما لم تزرفها عند فقدان عزيز.. لعبت كلمة طقوس على أوتار قلبها فعزفت

مقطوعة ألم وعذاب هي أبعد ما يكون عن مقطوعته، فتذكرت طقوس أمها فكانت جميعها طقوس جوع وحرمان.. لم تكن من طقوسها ثوب البيت الذي يحمل رائحة الطعام بل ثوب تفوح منه رائحة حرمان وجوع، اختزلت لها أمها كل طقوس الأمومة في ثوب أحمر قرمزي وآخر تبخر فما عاد له أثر، وجلباب مهترئ رغم امتلاكها غيره فإنه كان وسيلتها للإمعان في قهر طفلتها بأن تذكرها في كل لحظة أنهم فقراء لا يملكون قوت يومهم رغم أنها لم تكن الحقيقة.

لم تجر دموع مهجة وحدها بل لم تتوقف عيناه هو الآخر عن ذرف الدموع وكأنه عاد طفلًا صغيرًا يعيش سياق الأحداث بكل قسوتها وغرابتها.

سألته وقد حاولت السيطرة على أعصابها وتمالك نفسها، فقالت:

— هل أنت بخير أم تود التوقف عند هذا الحد فنواصل الحديث لاحقًا؟

قالتها وهي تتمنى بقرارة نفسها أن يصر على مواصلة الحديث.

أجابها محاولًا استعادة رباطة جأشه:

— أنا بخير فقط انفعلت من دون قصدٍ. سامحيني إن

كنت تسببت لكِ في ألم.

هزت رأسها أن لا عليك.

قرر يحيى الاسترسال مرة أخرى في الكلام، فقال:

— لنعد ليوم زيارتها الأخيرة. عدت من المدرسة ووجدتها بانتظاري وقد أعدت ما طلبت من طعام.. لم تكن جدتي بالبيت فقد زعمت أنها ستذهب لزيارة قريبة لها مريضة بالمستشفى، وقد أسعدني هذا كثيرًا استكمالًا للطقوس الحميمة.. وانتهينا من وجبة الغذاء وجلسنا نتحدث في أمورٍ مختلفة كان أهمها نبأ زواجها من وليد الليلة التالية وهو الأمر الذي أثار غضبي فلم أفهم ما قالته عن حاجة المرأة لرجل.

كانت ضربات قلبه سريعة كمن ركض مسافة طويلة دون أن يتوقف لحظة.. حاولت مقاطعته للخروج به من هذه الانفعالات لمساحة أخرى من الحديث أكثر هدوء لكنه لم يستجب لها وواصل الحديث بتفاصيله الدقيقة، فقال:

— فرغنا من الطعام وأخذتنا الأحاديث حتى وقت متأخر من الليل، خلدنا بعدها للنوم كما هو الاتفاق لكن الخطة لم تكتمل فلم تف وفية بوعودها لي ولم تتم طقوس أمومتها التي كنت أعشقها.

بقيت مشدوهة تسمعه دون تعليقٍ بعينينٍ شاردتين ربما

لمسافة أبعد من حدود الغرفة بل لمكان وزمان غير المكان والزمان.

مرت لحظات ساد فيها الصمت لفترةٍ، لم يكن صمتًا بالمعنى المألوف، كان صمت يتكلم وأحيانا يصرخ أو يبكي، بقيا هكذا ربما لحين انتهى الصمت من طقوسه فسألته:

— لماذا لم تكتمل الخطة؟

سألته بهدوء مفتعلٍ فأجاب:

— ثمة أحداث غريبة حدثت يومها فلم أستوعب منها شيئًا فآخر ما أذكره بهذا اليوم حين خلدت للنوم بصحبة وفية وصحوت بعدها بفترة لا أستطيع حسابها فلم أجدها بجواري، كان باب غرفتي موصدًا بمفتاح من الخارج حيث لا أستطيع فتحه.. سمعت صوت وفية واهنًا خافتًا وصوت حامد تختلط نبراته بنبراتها فلا أتبين من حديثهما سوى بضع كلمات لم أفهم منها شيئًا، بعدها دخلت وفية الغرفة وارتدت ثيابها في حالة كانت أشبه بالذهول وغادرت دون أن توجه لي كلمة واحدة، فقط ضمتني إليها بقوة ومضت.

عادت لتسأل:

— وماذا حدث لوفية بعدها؟

أجابها شاردًا كمن يسترجع ذكرى استعصت عليه، فقال:

— كل ما فهمته فيما بعد أن حامد حرم عليها رؤيتي أو مجرد محاولة الاتصال بي، وفعل الشيء ذاته معي فقد أتاني بوابلٍ من التهديد والوعيد إن حاولت أن أراها أو حتى أشرت إليها من قريبٍ أو من بعيدٍ، أما عن زواجها بوليد فلم يتم رغم أني لا أعرف السبب.

كل ما أعرفه أن وفية غادرت البيت ولم تعد مجددًا ولم أرها ثانية إلى أن سمعت نبأ وفاتها.

— وكيف ماتت إذًا؟

صمت لحظة وقال:

— بعد تلك الليلة حاولت وفية مرارًا التواصل مع حامد ووسطت كثيرين من أقربائها هي وحامد لإثناءه عن رأيه لكنه كان صلب كالفولاذ لا شيء يزحزحه عن موقفه قيد أنملة، بعدها انقطعت أخبار وفية تمامًا عنا أو ربما عني أنا تحديدًا، فأثق أن حامد لم يكف عن تقصي أخبارها.. ومرت أيام وشهور طويلة عرفت فيها بحق معنى اليتم والحرمان في غياب وفية، لكن ثمة معنى آخر تعلمته، الخذلان! وذات يوم أقبل حامد مهمومًا كما لم أره من قبل، كان يبكي كما لم يبك رجل وحين سألته لم يجب بشيء عدا كلمتين ماتت وفية.

لم أفهم حينها سبب الوفاة لكن ما لم أفهمه أكثر هو سبب

بكاء حامد.. لم أره يبكى بهذا العنف حين ماتت أم حامد التي كنت أظنه لا يتنفس وهي بعيدة عنه.

وبعد بضعة أيام فهمت من حامد أن وفية عادت في الفترة الأخيرة لتعيش ببيت طفولتها وكانت تعاني من حالة نفسية أخذت في التدهور إلى أن أودت بحياتها .

لكن..

تردد لحظات يستجمع الذكرى التي داعبت خياله فجأة فقال:

— لكني أذكر زيارة المغربية لنا والتي سبقت موت وفية بفترة ليست بالهينة.

سألته بشغف:

— وماذا تذكر عن هذه الزيارة؟

أجابها:

— أذكر أن كانت نظراتها لحامد بحدة السيف حتى خلتها ستطيح برأسه أو تحيله جثة نخرة سرعان ما تذوب وتتلاشى، هي نظرات مخيفة مفزعة أبقتني أيامًا وأسابيعًا بلا نوم، فكنت في الحقيقة أخاف المغربية رغم المرات القليلة التي التقيتها حين كنت أصاحب وفية لزيارة خالتي بدر.. كانت لها عبارات وتعليقات لم يكن عقلي الصغير قادرًا على استيعابها.

عادت لتسأله:

— ألم تقل لحامد شيئًا يومها؟

أجاب:

— فقط كانت في أغلب الأحيان تتمتم بكلمات غير مفهومة وتدير حبات المسبحة بين أصابعها لكنها لم تكن تقل شيئًا يشبه التسبيح وقد عرفت بعدها أن أغلب ما تردده هو كلماتًا باللغة السريانية.. لكني لاحظت لدى انصرافها إنها أطالت الوقوف معه ربما مدة خمس دقائقٍ أو نحو ذلك، فكنت أقف مشدوهًا بجواره فكان كل ما يحدث يفوق قدرتي كطفل على الاستيعاب.

سألته:

— ألم تسمع شيئًا من حديثهما؟

فأجاب:

— لم أسمع عدا شيئًا واحدًا كان آخر ما قالت قبل أن تغادر دون أن تحييه، «هي المرة الأخيرة التي أراك وتراني فيها إلا إن عدت لرشدك وقررت قول الحق فكل شيء علينا قد كتب».. سامحك الله وإياي، رُفعت الأقلام وجفت الصحف.

أضاف يحيى:

— والعجيب أنه كان حقًا اللقاء الأخير بينهما.

وفجأة هبّ يحيى من مقعده وقال بحماسةٍ:

— تذكرت شيئًا...

قالها وصمت فجأة فسألته الاسترسال، فقال:

— رغم مرور الوقت لكني أذكر جيدًا اللحظات السابقة لمغادرة وفية لبيت حامد بلا راجعة حين خلدنا للنوم فبقيت جالسة بالفراش تضع على ساقيها دفتر اليوميات هذا، ولم تكن المرة الأولى التي أراه بصحبتها فلم يكن يفارقها تقريبًا.. كانت تصحبه في كل مرة تأتي لتقضي معي يومي الخميس والجمعة من كل أسبوع.

سألته:

— وما الغريب في هذا؟

أجابها:

— كنت دائمًا أداعبها وهي منشغلة بالكتابة وأذكر جيدًا أنني جذبت القلم منها على سبيل المزاح فضحكت محاولة استعادته فلم أمكنها منه حتى وقعّت اسمي في آخر الورقة وأنا أكرره بطيئًا بصوت طفولي فكتبت «يحيى حامد» وسجلت تاريخ اليوم الذي صار فيما بعد ذكرى آخر لقاء بيننا.. وأذكر أيضًا أن القلم الذي اعتادت الكتابة به قد فرغ من الحبر الأزرق، فطلبت مني أن أعيرها قلمًا ففعلت لكنه كان قلمًا أخضر اللون.

فهمت على الفور ما يرمي إليه وقالت بعد أن جالت بيصرها في المكان كمن تبحث عن ردًا مناسبًا، فقالت:

— لم يصادفني شيء كهذا أثناء قراءتي رغم إنني لم أكتف بقراءة واحدة.. ألا يبرهن لك هذا على صحة ما قلت؟ ثمة يد عبثت بيوميات وفية ليشوه صورتها لصالح حامد.

صمتت لحظة كمن تذكرت أمرًا هامًا، متسائلة:

— لما لم تحدثني عن خالتك بدر وعن سلوى؟

أجابها شاردًا:

— لقد كرهتهما منذ أن كنت أسترق السمع لخناقات كثيرة بين وفية وحامد بسبب علاقتها بهما.لم أكن أفهم الكثير آنذاك لكني كنت أكره الأيام التي تتركني فيها وفية لتبيت معهما وأبقى أنا مع حامد وجدتي، ليملأ خيالي الصغير بصور وخيالاتٍ تطاردني ليلًا في أحلامي كالرسوم المتحركة.

سألته مهجة بشفقة:

— هل كنت تشتاقها؟

أجابها دون تفكير:

— كثيرًا.

عادت لتسأله:

— وهل كنت تحب حامد؟

— كنت أشفق عليه.

علقت قائلة:

— لا علاقة للحب بالشفقة.

سرح لحظاتٍ، وقال متجاهلًا لما قالته:

— أحيانًا كنت أغار من علاقته بأمه، فكانت شبه ملازمة له حتى كاد عقلي الصغير يتصوره يتوقف عن التنفس حين تبتعد، فكنت أتابع صدره يعلو ويهبط لأطمئن على بقاءه بقيد الحياة، حتى سألني ذات يوم عن سبب تجهمي وتعلُق عيناي بصدره طويلًا، فأجبته بعفوية شديدة «أخاف أن تموت حين تغادر ماما زينب». أذكر يومها أنه لم يضحك أو يعلق بشيء غير أنه ارتبك وبدل الموضوع على الفور.

صمت يحيى لحظاتٍ، ثم أردف قائلًا:

— لكني لا أعرف لماذا لم أشعر يومًا نحوها بما يحسه طفل نحو جدته؟ كنت أكره حديثها عن وفية، وأكره محاولاتها المستميتة لتشويهها ولتجعل مني حامد آخر يلازمها ويسير طوع إشارتها.

انتهى الحديث بينهما وقد قررا زيارة المغربية، فإن وجداها حية فسيطلبا عونها وإلا أدركا أنه ينبغي لهما أن

يطرقا سبيلًا آخرًا.

•••

بيت المغربية

ما زال يحيى يذكر هذه البناية جيدًا.. صحيح إنه كان صغيرًا للغاية آنذاك وإن وفية لم تكن تصحبه كثيرًا معها هناك، إلا إنه يذكر كل شبر بالمكان ويحفظه عن ظهر قلب، لم يكن المكان ينقصه عدا جدرانه الثلاث، وفية وبدر وسلوى.

صعد يحيى الدرج بصحبة مهجة حتى وصلا لشقة المغربية.. كانا يتمسكان بالقشّة الوحيدة الباقية التي قد تنقذ الغريق وتهبه الحياة من جديد، فعاشا على قيد الأمل بضعة دقائق حتى وجدا نفسهما يقفان قبالة شقة المغربية يدقان الجرس.. فتح الباب بعد لحظات ليجدا أمامهما طفلة صغيرة صاحت حين وقع بصرها عليهما منادية أمها بصوتٍ طفولي يغلب عليه الدهشة.

أقبلت على إثر النداء امرأة بجلبابٍ أسودٍ، ووجه صارم عبوس لعلها الخادمة فهكذا قالت هيئتها.

وقفت الخادمة أمامهما لحظات لم تصدر فيها أية حركة فقط بدت فاغرة فاها كمن تسأل ببلاهة وجدية من تكونا.

وقبل أن تنبس قالت مهجة:

— جئنا للقاء السيدة عزيزة، هل هي بخير؟

ردت عليها بسؤالٍ فقالت:

— من تكونا؟

أجابتها مهجة:

— نحن من أقاربها ولم نزرها منذ فترة طويلة ونود لقاءها لأمر ضروري للغاية.

استطردت الخادمة قائلة:

— حسنًا سأستأذنها في دخولكما، ولكني أريد أن ألفت نظركما أنها تقريبًا فقدت البصر وقد يتعذر عليها التعرف عليكما من خلال البصر.

تبادلا النظرات فيما بينهما متنفسين الصعداء فقد اطمئنا؛ لكونها ما زالت على قيد الحياة.. دعتهما للجلوس على أن ينتظرا المغربية بضع دقائق.. مرت الدقائق عليهما ساعاتٍ تصفّح فيهم يحيى شيء من الماضي أطل عليه من صورة معلقة بجدار أكنز، هي صورة زفاف بدر وعابد، بدت بدر فيها كما عهدها وهو صغير، ورغم أنها لم تكن بطبيعتها جميلة لكن ثمة شيء بالصورة أضفى عليها سحرًا وجاذبية.. شعر يحيى بغصة بحلقه حين رأها إذ عاد الماضي إليه على حين غرةٍ في ثوبٍ زفافٍ أبيضٍ.. وقع بصره بعدها على صور مصطفة فوق طاولة جانبية صغيرة من بينها صورة للمغربية في شبابها، تطلق شعرها فوق كتفيها وعيناها ملأهما غموض، وصورة أخرى لبدر وعابد

بالزيّ المغربي أدرك يحيى حينها إنها ذهبت بصحبة عابد للعيش بالمغرب، هي فكرة أكدتها الصورة التالية التي كانت خلفيتها بعض المباني على الطراز المغربي وجمعت الصورة بين بدر وعابد وطفلتين تراءى ليحيى أنهما بنات خالته في طفولتهما، كانت إحداهما تشبه وفية تمامًا، حتى إنه لو تسنى لها أن تنجب شقيقة ليحيى لكانت لا محالة هذه الطفلة رائعة الجميلة.

كانت بدر قد حاولت مرارًا التواصل مع يحيى غير أنه كان دائم التهرب منها، فثمة نفور بداخله نحوها أخذ يتضاعف على مر السنين إلى أن بلغ مبلغه فصار كفيلًا أن يصير حائلًا بينه وبينها للأبد.

مضت الخادمة لتعود إليهما بعد حفنة دقائق، تدفع أمامها كرسي بعجلات يضم جسد المغربية النحيل الذي لا يفرق كثيرًا عن الهيكل العظمي.

جلسا أمام المغربية القعيدة لا يعرفان مدخلًا للحديث فبقيا صامتان فبادرتهما بالتحية لكنها تحية من نوعٍ آخر حبست أنفاسهما في صدريهما، فقد قالت أول ما قالت:

— رحم الله وفية وأدخلها الجنة من دون حساب، وبارك لها في نجلها ورده ردًا جميلًا للصواب.

قالت ما قالت كمن يستهل حديثه بالدعاء، ثم أضافت

وسط وجوم يحيى ومهجة:

— كيف حالك يا بني؟

هي إذن تعرفه حق المعرفة.. كيف هذا ولم يلقاها قبلها ولم يذكر ما تفطن به إنه يحيى حامد.

أجابها يحيى:

— أحمد الله يا سيدتي.

قاطعته مهجة قائلة:

— أنا جارة يحيى يا أمي وقد جئنا؛ طمعًا في...

وقبل أن تستطيع أن تكمل ما بدأت، قالت المغربية:

— تشبهينها كثيرًا.

سألتها مهجة بدهشةٍ فالمرأة شبه كفيفة، فقالت:

— أشبه مَن؟!

أجابتها بثقة البصير:

— جواهر.

— جواهر؟

كررتها مهجة وهي لا تفهم شيئًا، فقالت:

— من تكون جواهر؟

استطردت المغربية قائلة:

— شقيقتي الصغرى.. كانت جميلة مثلكِ تمامًا.. أطال الله عمركِ، فقد لاقت ربها قبل سنواتٍ طوالٍ.

حاولت مهجة السيطرة على مشاعرها المضطربة، فقالت بهدوءٍ مفتعلٍ:

— جئنا نسألكِ يا أمي عن وفية جارتكِ التي....

وقبل أن تتم حديثها قاطعتها المغربية بصوتٍ أجشٍّ خافتٍ متجاهلةٍ ما قالته مهجة كمن تجزم أنها أكثر بصيرة منها:

— رحمها الله. كانت أمسية ملعونة تطورت الأمور بسرعة عجيبة بعدها وتفرق الجميع.. يبدو أن ثمة أمور مصيرية لا ينبغي معرفتها فالنبش بها لا يفرق كثيرًا عن النبش في القبور.

تدخّل يحيى في الحوار، فقال:

— أية أمسية تقصدين؟ قرأت بمذكرات وفية عن هذه الأمسية التي تحدثتوا فيها عن العالم الأثيري، هل تلك ما تقصدينها؟

هزت رأسها نافية وقالت:

— بل الأمسية التالية لها.

سألتها مهجة متعجبّة:

— لم تذكر وفية شيئًا عن أمسية أخرى بدفتر يومياتها فقط تلك التي حضرها بعض الجيران وأنتِ يا أمي وأسمتها أمسية المغربية.. كانت تسجل كل شيء

في يومياتها، فكيف لم تشر إليها من قريبٍ أو من بعيدٍ؟
ابتسمت المغربية ابتسامة حملت الكثير من الأسى، وقالت بثقةٍ بالغةٍ:

— بل فعلت، وقد حذرتها كثيرًا فلم تهتم بنبوئتي ما ينبغي من اهتمام.

اندفع يحيى متسائلًا:

— وإن كانت قد فعلت، فأين إذًا هذا الجزء الخاص بالأمسية؟

أجابته بحكمةٍ:

— إن الأديان والكتب السماوية تُحرّف يا ولدي فكيف إذًا بكلام الإنسان؟ لا تثق كثيرًا بالكلمات فالحروف خائنة تحمل أكثر من محمل ومعنى وأحيانًا يُكتب البعض منها بغرض التضليل.

صمتت المغربية ثم استطردت متسائلة:

— فيمَ جئت يا ولدي؟

وقبل أن ينبس، قالت:

— جئت تسأل عن مذكرات وفية، أليس كذلك؟ أعرف أنك قرأتها كما أعرف أنك تدينها بلا شكٍّ.

صمتت لحظات وأضافت:

— لم تكن وفية خائنة، بل كانت ضحية طموحات

أنوثة طامعة لا طامحة.. كانت تجذبها من يديها كطفلة تتعلق بيد أم عرجاء شبه كسيحة.

صمتت المغربية لحظات تستحضر قوة عجوز لا حول لها ولا قوة، فأردفت قائلة بصوتٍ أجشٍّ مرتعشٍ ضاعت الكثير من نبراته بين فكين شبه خاويين عدا من بعض الأسنان:

— إن مأساة وفية هي جمالها، فحين ننظر في المرآة يا ولدي فهما أمرين لا ثالث لهما.. إما أن نلعن القدر الذي لم يهبنا حظًا من الجمال، أو نلعن من حولنا وكذلك الظروف التي لم تضع على صدر هذا الحسن وسامًا.. وكانت وفية من النوع الثاني فهي من ذوات الحسن المهدور الحق والكرامة.. تنتظر وسامًا لم تحصده أنثى قبلها.. لم تفهم أنها قبل أن تولد دفعت ثمن هذا الجمال من حظها ونصيبها من السعادة.

قاطعها يحيى متسائلًا باستهزاءٍ:

— قلتِ إن لها طموحًا أنثوية، فما حدود طموحاتها الأنثوية التي تتحدثين عنها؟ أرى الأنوثة كلمة مطاطية تحتمل الكثير.

لم تجبه بشيء لكنها أدارت عجلات كرسيها المتحرك نحو ما يشبه مكتبة صغيرة تضم بعض من الكتب التي بدت

قديمة مترية بفعل الزمن.. مالت بصعوبة قليلًا للأمام وتحسست الأرفف ثم جذبت دفترًا ضخمًا يشبه كثيرًا دفتر يوميات وفية وكتابًا بدا إنه رواية، قدمتهما ليحيى وقالت:

— هذا ما كتبته أمك دون تحريف، فكان من عادتها أن تسجل يومياتها في الدفتر الذي هو الآن بحوزتك والذي سقط بيد حامد ليعبث به ما يشاء، لكن النسخة الخاوية من أي تحريف هي هذه النسخة التي وضعتها لتوى بين يديك.

أشارت للكتاب الآخر وهي تتحسسه بيد كفيف أوشك أن يرى بأصابعه ما عجزت عيناه عن رؤيته، وقالت:

— وهذه رواية حكايات من زمن القلاقل، أظنك تعرفها جيدًا ستجد فيها ما خطته أمك بيدها، وما قرأت عنه في الدفتر.

راحت تتوقف عن الحديث ما بين الجملة والأخرى لتلتقط أنفاسها فكان صدرها يتهدج مع كل كلمة تخرج من بين شفتيها العجوز.

ما عادت تلك المرأة التي تتجول بحرية طير ورشاقة غزال بين عالمين العالم المادي والعالم الأثيري، بل تحولت إلى جسد مادي قعيد ربما هجره نظيره الآثيري سأمًا ومللًا.

التقط يحيى الكتاب والدفتر فأخذ يقلب صفحات الدفتر بشغف كمن يبحث عن شيء، وكانت أول ملاحظة له هو أن الدفتر ما هو إلا نسخة مصورة مما كتبته وفية بخط يدها عندها توقف مستفسرًا:

— هي نسخة مصورة.

ابتسمت المغربية ابتسامة ثقة، وقالت:

— هي حكاية طويلة يا بني، فحين عرفت ما ينويه حامد أدركت أن العبث بدفتر اليوميات هو أول ما سيخطر بباله، عندها اقترحت على وفية دون أن أطلعها على ما يدور بخاطري أن تنشر هذه اليوميات بكتاب بعد تنقيحها وإعادة صياغتها بحيث يطمس كل ما يشير لهوية الشخصيات الحقيقية.. وافقت وفية فكانت تعطيني نسخة من كل جديدٍ تضيفه إلى اليوميات أولًا بأول، فقد كانت رغم كل شيء تعتد برأي كثيرًا، فطلبت مني أن أقرؤها لأعطيها رأيي فيما قد نحذفه أو نبدله؛ لنطمس أي شيء قد يدل على الشخصيات الحقيقية فهي تريده عملًا أدبيًا لا سيرة ذاتية.

عاد يحيى ليسألها:

— ماذا قصدتي بما نواه حامد؟

اكتفت بابتسامة هزيلةٍ، وقالت:

— اقرأ أولًا يا ولدي وستعرف ما أعني.

ظل يفتش بين الصفحات إلى أن توقف عند صفحة لم يكن لها نظير في الدفتر الآخر.

فقرأ، كتبت وفية..

الأمسية الثانية.. أمسية الموت.. بل لعلها أمسية القتل.

وقبل أن يكمل القراءة، سأل:

— كيف تمّ حذف هذا الجزء من اليوميات دون أن ألحظ هذا؟

أجابته المغربية:

— الموضوع أبسط مما تتصور، كما ترى فالدفتر الذي تسجل به وفية يومياتها مقسم لما يشبه ملازم نظرًا لكبر حجمه وضخامته، وقد تعمدت هذا حين شرعت في الكتابة لأنها كانت كثيرًا ما تحتاج لحذف أجزاء كاملة بعد أن تنتهي من كتابتها، وهكذا تم حذف هذا الجزء أو غيره دون أن يترك أدنى أثر، غير أنها لم تحذفه بنفسها بل فعلها حامد.

كتبت وفية..

كانت الأمسية الثانية بعد أن تم الطلاق بيني وبين حامد وبعد رحيل خالد.. كنت وقتها بأسوأ حالاتي النفسية، لم تكن الأمسية كسابقتها ببيت طفولتنا بل آثرت المغربية أن

تدعونا هذه المرة لديها فتعرفنا للمرة الأولى بالهوية الحقيقية لعابد الذي كنا نعرفه اسمًا فقط.

بدأت الأمسية حوالي الساعة الثامنة مساءً..

قدمت لنا فيها عابد بكل تفاصيله وتاريخه، لم تكن هذه هي المفاجأة الوحيدة بهذه الأمسية.. ثمة مفاجأة أخرى أعلنها عابد بنفسه حين طلب بدر للزواج. وفي الوقت الذي حررت فيه أنوثتي من حامد دست بدر أنوثتها بقبضة عابد راضية مرضية، فقبلت الزواج بابتسامة خجولة وأنف ووجنتين تكسوهم الحمرة. بقيت ابتسامتها منطبعة بذاكرتي طويلًا فلم أتصور بدر قبلها قادرة على رسم مثل هذه البسمة فوق شفتين اعتادا أن تكونا بائستين.

توالت المفاجآت بالأمسية فقد سارت على غرار الأمسية الأولى، فأخذت المغربية تتكهن لكل منا بشيء في جملة مبهمة غامضة تصبها بعقله فتنزل إليه كالحمم الملتهبة، هي جمل أشبه بلغز مفتاح حله بكلمة.

لم يحضر الأمسية عدا ثلاثتنا، أنا وبدر وسلوى. يومها قالت عزيزة لبدر:

انتهى عصر جاهليتك فحطمي أصنامك واعتنقي عبادة جديدة فهذا سواء السبيل.

والتفتت لسلوى قائلة:

— حين تنتفخ بطون الإناث تنكث الرؤس وتكمم الأفواه فتفتح أفواه أخرى تبكي وتطلب الطعام فلا يعد سبيل للخلاص وما زال خلاصكِ بقبضة يديكِ.

وأخيرًا قالت لي بوجوم شديد وملامح عتمة كزقاق ضيق ليس ثمة ضوء يعرف له سبيل:

— هذه أنت مجددًا يا وفية..

قالتها وقد تحجرت بعينيها دموع أبت أن تطلق سراحها، وأردفت قائلة:

— ربما يروق لكِ عالم آخر، عالم تحرري فيه أنوثتكِ وتحلين جدائلكِ، وتحققين مغامرتكِ المرجوة. صحيح أنكِ لن تكوني جواهر أخرى ولكنكِ ستصادفينها وستخبركِ بما لم أقل.. ستكون لكِ هناك ما كنته لكِ أنا هنا، فاستمعي إليها ولا تتخلفين عنها، وسأنتظرك لتعودي فتملين عليّ الحقيقة وأكتبها فليس ثمة دين يُحرف بأيدي الكافرين به إلا وله شهوده ودلائله.

وأخيرًا أضافت خاتمة حوارها:

— لو كان حرص يمنع قدر لفعلت، ولكن قدّر الله وما شاء فعل، إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون.

قالتها وقدمت لي ورقة صغيرة بها دعاء طلبت مني أن أكرره وكان الدعاء هو دعاء العودة للمكان ذاته فلا نفارقه

أبدًا وهو «إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد»، وكان هذا الدعاء من طقوس رحلات المغربية الأثيرية فكانت ترِدده عدة مرات قبل أن تبدأ رحلتها.

رأيت معنى الكلام بعين الجميع ورأيت نظرة يأس بأعينهم جميعًا تتشبث بأمل أخير أن «كذب المنجمون ولو صدقوا» لكن أحد لم ينبس. وحدي أنا لم أتشبث بهذه العبارة الواهية فثمة مقولة أخرى كانت تتشبث بي، يشعر الميت بقدوم الموت فيحس رائحته ويراه رؤى العين أربعين يوم قبلها لكنه لا ينطقها بلسانه مهما بلغت ثقته بحدوثه». ترى ما يختلج بنفسي الآن هو مشاعر الأربعين يوم؟ حاولت أن أختبر نفسي فأنطقها فكانت الكلمات قصيرة الأجل تخلق في ذهني لتموت نبرات بحلقي دون أن يرثيها غيري.

كانت أمسية أطلقت عليها أمسية وداع فضمتني سلوى إليها بقوة وكذلك بدر دون كلمة قد تعكس ما يعتمل بنفوسهما.. وحدها المغربية لم تضمني بذراعيها فثمة شيء أقوى كان يضمني إليها لم أفهمه لكنني أحسسته بقوة.. وحين هممت أن أغادر أستبقتني وقالت:

— انتظري يا وفية سأرقيكِ رقية البيض.

لم أفهم ما تعنيه فإذا بها تأتي ببيضة بعد أن غسلتها

جيدًا بماء الورد وكتبت عليها شيئًا، وأخذت تردد أيات قرآنية بعدد معين تارة وتمسح بالبيضة على جسدي أو تطلب مني أن أنفخ بالبيضة تارة أخرى.. سمعتها تردد بعض الأدعية مثل «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه»، وكذلك «بسم الله أرقيكِ من كل شيء يؤذيكِ، من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيكِ، بسم الله أرقيك» و«أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق» و«بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم».

خرجت من الأمسية وقد انتابني شعور غريب لا أفهمه والأغرب أني صرت أستشعر ثمة شيء في نفس حامد يدفعني للخوف، أحسه يدبر لي شيئًا.. أراه بعينيه بل بعيني خالتي أم حامد.. لعلي مخطئة أو ربما كنت على صواب لكني على أية حال لا أشعر بالراحة ولا أشعر أيضًا بالخوف.. حذرتني المغربية من حامد، أتراه يقتلني كما ادعت؟ أتراه يشوهني بعيني صغيري يحيى؟ لا يعنيني أن أبقى على قيد الحياة، لكن يعنيني البقاء على قيد الأمومة.. فلينفذ حامد ما نواه، فليدس لي سمًا بطعام فهو جبان حتى في القتل، لن يستطع النظر في عيني وهو يفعلها وإلا ارتعشت يداه وعدل عن ما عزم على تنفيذه.

هكذا أتصور أن السم أفضل وسيلة تتناسب مع قدرات حامد.

كما يُخيل إليّ إنه سيكون سم من نوع خاص بطيء المفعول ليتناسب مع ساديته فيظل يتلذذ أيامًا برؤيتي أتحرك أمامه وهو يدرك تمامًا أني لا أتعدى كوني جثة متحركة.

وأيًا كانت الوسيلة لا يعنيني الموت من عدمه فقد حققت بعضًا من حلمي.. حررت أنوثتي من قبضة حامد فحللت أغلالي شيئًا فشيئًا وتسللت مبتعدة عنه وعن شذوذه النفسي.. حررت أنوثتي أكثر حين لم أبتعد من أجل رجل آخر، بل من أجل أنثى أخرى اسمها وفية.

لقد أقسمت على أنوثتي التي ذاقت لتوها طعم الحرية أن تعزف عن القيود، عن الرجال جميعًا فقد ذاقت الحرية وراق لها مذاقها فكيف تلفظها وكيف تمكن سجانًا آخر منها وقد عهدتهم جميعًا على شاكلة حامد؟! لن أزج بأنوثتي من جديد بقفص وإن كان قفصًا ذهبيًا، فشأني شأن الطير الأم التي آثرت الموت لصغيرها عن العبودية فأتته بثمرة سامة فمات الصغير لكنه مات حرًا وحلقت هي تزهو بشموخ.. هكذا فإن كان لي أن أحيا فسأحيا حرة فلا شيء، لا شيء يقيد أنوثتي.

قرأ تلك السطور بصوتٍ مرتعشٍ وفاض وجهه بالدموع، دموع لم يفهم لها سر، هل حزن على وفية؟ أم سخط وغضب على حامد؟

علقت المغربية قائلة:

— كتبت وفية هذا قبل أن يزورها وليد ليطلب الزواج منها وتقبل به.

عاد يحيى يقلب مزيدًا من الصفحات فلاحظ غياب الصفحات ذاتها التي تحمل دفاعًا صريحًا عن حامد وإدانة صارخة لوفية.. لا وجود لهذه الصفحات، لا تضارب في الأسلوب أو في الخط واللغة.. كل يسير على نمط ووتيرة واحدة.

عاد يحيى يقلب الصفحات ببطء ويمر بعينيه سريعا على السطور ليتبين إن كان يألفها أم لا.. وفجأة لاحظ وجود بعض الصفحات المكتوبة بخط وفية والمنفصلة تمامًا عن الدفتر المصور الذي قدمته له المغربية. تبيّن له أنها صفحات تنتمي لدفتر مختلف تمامًا، فكان من ذلك النوع من الدفاتر المذيلة أوراقه بحكمة مطبوعة.

بدت له هذه الصفحات ضالته المنشودة فهي تحمل تاريخ اليوم التالي لزيارة وفية الأخيرة له، والتي حُرم عليه رؤيتها بعدها.

كتبت وفية..

هي زيارتي الأخيرة ليحيى، أسجل تفاصيلها بأولى صفحات دفتري الجديد، فكانت المفارقة أن أُحرم من قطعتين من جسدي، يحيى ودفتر يومياتي، في اليوم ذاته ليبقى كليهما بقبضة حامد فيعبث بهما ما شاء.

قضيت ليلة بصحبة قطعة من روحي أسميتها يحيى أنعشت هذه الليلة مشاعر أمومة ذابلة يائسة تنتظر الموت فى كل لحظة، فكنت ما بين لحظة وأخرى أضمه إليَّ فجأة دون مبرر قد يجيب على تساؤلات طفل بمثل عمره.. وأخيرًا ضممته إليّ واختبأت بحضنه الصغير من مخاوفي وتكهنات المغربية اللعينة ويبدو أني للمرة الأولى أستشعر هذا الأمان الذي أخذني من كل شيء، ومن نذير الموت الذي صار يطاردني في الفترة الأخيرة، فكانت كلمات المغربية تحاصرني أسمعها بكل لحظة وتتردد علىّ في أحلامي فرحت في سبات لم أعهده منذ فترة.

بدي كل شيء عادي، أم تحتضن طفلها وتنام بأمان.. غير أني صحوت على صخب وسمعت صوت حامد خارج الغرفة.. لم يعتد حامد العودة للمنزل أثناء زياراتي الأسبوعية ليحيى.. أثار هذا قلقي فخرجت إليه، كان وجهه يحمل مشاعر متباينة لم أستطع تفسيرها.. طلب مني

إعداد فنجانين من الشاي لنتحدث في أمر يخص يحيى، ولكني بمجرد أن انتهيت من فنجاني دب الخدر بأوصالي فسقطت، كان إحساسًا عجيبًا ظننته الموت الذي تنبأت به المغربية لكنه كان شيئًا أعظم من الموت وأكثر منه مهابة.. كان حامد يتمتم بكلمات كنت أتبينها في البداية إلى أن أخذت تتلاشى شيئا فشيء ثم اختفت تمامًا.

هكذا دس لي حامد المخدر لا السم، ورغم تحذيرات المغربية وشذوذ حامد واضطرابه النفسي، الذي كنت أكثر من ذاق مراره وأستوعبه لم يفلح شيء في إقناعي بأنه قد يقتلني أو حتى يمسسني بسوء.. هكذا شربت ما أعده لي حامد ولم أعده أنا، فقد حمل لي هذا الفنجان الهلاك بعينه.

أفقت بعد فترة لم أتبينها لأجد حامد ما زال يجلس أمامي لا يرفع عينه عن ملامحي حتى ظننته بقي يحملق بي طوال فترة نومي.. وحين استعدت وعيي تمامًا اعترف لي بطقس جديد من طقوس شذوذه لم أعهده به من قبل.. أقرّ بداية أنه من دسّ لي المخدر بالشاي لأنام.. لم أفهم وقتها السبب قد أفهم أن يدس السم فأموت لكن لماذا يريدني أن أغيب عن الوعي؟ هذا ما فسره لي بعدها.. كانت لحظات مهيبة لم أر فيها حامد الذي عهدته.. كان الشيطان بعينه من يتحدث إليّ، لكنه شيطان جريح يحمل

بصدره ذكريات أم خائنة وأب مشلول لا حول له ولا قوة.

للمرة الأولى يقص على حامد مقتطفات طفولته البائسة التي ظلت حبيسة بداخلة لم يطلع أحد عليها حتى قرر اليوم أن يطلق سراحها فيكررها ولكن ببطلة جديدة هي أنا.. قرر حامد أن يضعني أنا ويحيى بالسياق ذاته الذي عاشه هو وأمه سنوات طويلة، سياق الأم الخائنة والابن المعذب بخيانتها.. كان يتحدث بهيستريا وابتسامة تشفّي لا تفارق شفتيه.. لم يكن ينتقم مني بل من أمه التي صار يراها في كل النساء.. لن أنسى تصريحه لي بأني لست أفضل من أمه لأظل بعيني يحيى بلا خطيئة، فقال:

— لم تكن أمي وحدها الخائنة، لست أفضل منها لتظلي بنظر ابنك بلا خطيئة.. لقد دبرت كل شيء لأصنع دليل خيانتكِ لكني لن أستخدمه طالما بقيتي بعيدة عن يحيى فلا تحاولي رؤيته مرة أخرى وإلا أطلعته على صور خيانتكِ.

نزلت بي كلماته لتفقدني صوابي فصحت به:

— ماذا تقصد يا حامد؟ ما الذي فعلته؟

أجاب بابتسامة كلها تشفّي، فقال:

— لا شيء فقط التقطت لكِ صورًا وأنتِ نائمة بين ذراعي عشيقك، فإن كنتِ ترغبين برؤيتها أطلعتكِ

عليها.

عندها رفضت بقوة لا لشيء وإنما لأني رغم كل شيء لا أريد أن أصدق إن حامد يفعلها، ففضلت أن أعيش تحت تهديد سلاح لا أراه أو أتصور حدود طاقته التدميرية فلا ترعبني قدرته الخارقة ولا أستهين بضعفه.. ولعلني أيضًا كنت أمنّي نفسي أن يكون سلاحًا وهميًا خاوٍ من الذخيرة الهدف منه بث الرعب بقلبي وقد فعلها بحق.

كنت أسمعه مشدوهة أكاد لا أصدق ما أسمع، ماذا فعل هذا المجنون الأحمق؟ أي عشيق هذا الذي كنت بين ذراعيه؟ فمهما بلغ شذوذ نفسه وانحراف سلوكه الذي بت أحفظه عن ظهر قلب لم أستطع أن أصدق أن يفعلها.. أن يشوه أم ابنه وابنة خالته بهذه الخسة والنذالة.. أن يسمح لرجل أن يلمسني وإن كان ليحقق غرضًا في نفسه، لكن يبدو إنه حين تسقط الأم يسقط معها كل شيء وقد سقطت أم حامد آلاف المرات بعينه فسقط معها النساء جميعًا.

مرة أخرى عاد حامد ليسترسل في الكلام، فقال:

— وأخيرًا قبل أن تختفي تمامًا من حياتي وحياة يحيى لست بحاجة أن أذكرك أنكِ لن تتزوجي غيري فسترفضين زواجكِ من هذا الرجل الذي بقي دائمًا حائلًا

دوننا، وليس معنى هذا أن تتزوجين من غيره. ستعيشين بقية حياتكِ وحيدة، وإن فكرتي الاقتراب من يحيى أو فكّرتي بالزواج سينتهي الأمر فور بدايته وأظنكِ تفهمين ما قصدت.

هكذا انتهى حامد من إملاء شروطه وبقي عليّ أن أنفذ دون أن أنبس بحرف، فكان الموقف أكبر من أن أستوعبه أو حتى أرفضه، فوجدتني بالكاد ألملم أشتاتي وأبدل ثيابي بتصرفات هستيرية لا سلطان لي عليها؛ لأرحل تاركة كل شيء خلفي حتى دفتر يومياتي الذي صاحبني عمرًا بأكمله فصار قطعة من جسدي ظننت أن لا يفصلها عنى سوى الموت، لكن أليس ما حدث هو الموت بعينه؟ هكذا مضيت تاركة كل شيء في فوضى عارمة غير أنها لم تكن لتضاهي فوضايا الداخلية التي أتت على الأخضر واليابس وحلت بي، لكن ثمة بريق أمل قد يظهر لنا في أحلك الليالي، هكذا بدت لي فكرة مباغتة ومضت أمامي فجأة.. هي فكرة الموت، فحدثت نفسي أنه لعل نبوءة المغربية تتحقق فينتهي كل شيء.

وفية.

لم تنه وفية هذا الجزء بعبارتها الشهيرة فقد أحست أن ثمة أشياء أخرى غير القلم تثقبها فتنفذ إليها آلاف العيون.

كذب حامد إذًا، وصدقت وفية.

قلّب يحيى الورق مجددًا ليقرأ:

هو اليوم التالي لما حدث بيني وبين حامد، يوم زواجي بوليد أو لأستعير كلمات سلوى هو يوم تحقيق حلم مراهقتي، وقد كان وليد هو حلم مراهقتي الوحيد، لكنه حلم فقد صلاحيته هو الآخر فوجب على إعدامه أو بتره.. هكذا قررت أن أصارح وليد بأنني لا أستطيع إتمام الزواج.. في البداية ثار وقذف بوجهي عاصفة من الاتهامات فاتهمني تارة بالعبث بمشاعره والاستهانة به وأخرى بحبي لخالد، وأخيرًا قذفني باتهام كان الأكثر بشاعة فقد زعم أني أرفضه لأنه عقيمٌ، ورغم قسوة الاتهام الأخير فأعرف جيدًا إنه الأكثر إيلامًا له، إلا إنني قررت أنه أحيانا نحتاج لإخضاع جزءً منا لجراحة مؤلمة ليشفى تمامًا من علته، وقد كنت علة وليد التي آن له أن يشفى منها.. هكذا اكتفيت بالصمت أمام اتهامه المجحف، فظنه الصمت الذي يعنى الرضا فرحل وقد سقطت بنظره للأبد.

أعرف إنه منتهى القسوة أن أضغط بقوة على جرحه الذي ظنه قد شفي للأبد، لكني كنت أثق أنها الوسيلة الوحيدة التي تبعده عني للأبد.. هكذا أعدمت حلمي منتهى الصلاحية وآمنت أنه ما كان ليتحقق أبدًا.

وفية.

انتهى يحيى من القراءة وظل لحظاتٍ لا ينبس، أحس بمشاعر متضاربة لم تكن بمشاعر كراهية أو سخط على أبيه، بل اختلطت بداخله مشاعر غضب وشفقة، فبحكم عمله يستطيع أن يفهم جيدًا إنها حالة مرضية لا أكثر، وبحكم تجربته الشخصية يستطيع أن يشعر بما عاش حامد يحمله بصدره طوال السنوات الماضية، هو إذًا ضحية أمّ مستهترة، أما وفية فهي ضحيتهما معا.

بقيت مهجة مشدوهة هي الأخرى لا تعرف ما تقول.. هل تحاول التخفيف عنه؟ أي كلمات تلك التي قد تخفّف عنه الألم.. قررت أن تصمت فأحيانًا يكن الصمت افضل مواساة.

توقف يحيى لحظاتٍ، فسأل المغربية:

— لماذا لم تحاولين الوصول إليّ فتطلعيني عليّ الأمر بعد وفاة وفية، فأظن بوفاتها قد زال الخطر؟ لماذا انتظرتي لصدفة قد لا تحدث فلعلني لم أكن لأفكر بزيارتكِ؟

ابتسمت المغربية بألم، وقالت بثباتها المعهود:

— لعدة أسباب أولها هي وصية أمك.

كرر يحيى ما قالت مندهشًا:

— وصية أمي؟ ولماذا توصي وفية بهذا؟

أجابته بهدوءٍ:

— لقد تغيرت أحوال وفية تمامًا بعد ما حدث، فشعرت بانقلاب كل موازينها مائة وثمانين درجة.. لم تعد وفية تفكر بعقل أنوثتها الحمقاء.. صارت لها حسابات أخرى تشبه حسابات الأمهات لا الإناث الحسناوات، فقد أطاح ما حدث برأس أحلام تحرير أنوثتها، واكتشفت إنها لم تتحرر، فثمة قيد جديد يلتف حول عنقها فيشل حركتها.. ما زالت أنوثتها مشلولة رهن حركة واحدة من حامد قد تودي بحياتها.. هكذا عادت وفية لقالب أمومتها لافظة شعاراتها الساذجة الحمقاء ففكرت أنها تخشى إن أطلعتك على الأمر قد لا تصدقها وقد تواجه حامد بالحقيقة فيطلعك على ما يسيء لصورتها بعينيك وإن كان ملفقًا، ومن جهة أخرى كانت لحرصها الشديد عليك لا تريد أن تطلعك على شذوذ أبيك فكانت تريدك شخصًا سويًا لا تريد لك أن تصبح صورة مكررة من حامد فيفسد عليك حياتك، وقد رأت بعينيها ما حدث لحامد بسبب انحراف أمه وشذوذها.. هكذا تبقي سبب آخر ذكرته وفية.

ظل يرقبها بنظراتٍ ثاقبةٍ فلم ينبس بشيء.

استرسلت قائلة:

— كانت أم حامد قد ماتت بعد ما حدث بفترة وجيزة فلم ترد وفية، رغم كل شيء، أن تفضح أمرها فهي تعرف إنها إن خاضت في أمر حامد وما فعل بها لزم عليها أن تقص عليك القصة كاملة بما فيها قصة أم حامد لتقتنع بسادية أبيك فقد تصدق حينها إنها قصة ملفقة ابتدعها خيال مريض لرجل يطارده شبح خيانة أمه.. لكن وفية آثرت ألا تفضح أمر من لاقت وجه كريم، ورأت أنك لو عرفت حقيقة جدتك لضربت لك مثلًا سيئًا للنساء جميعًا بما فيهم وفية نفسها فقد تميل حينها لتصديق قصة حامد.

صمتت لحظات ثم عادت لتستأنف الكلام، فقالت:

— هكذا أقنعتني وفية بالكتمان وأوصتني ألا أطلعك على شيء إلا إن قمت أنت بالبحث عني، عندها فقط أكون في حل من عهد قطعته على أمك بشرط أن تكون وقتها قد صرت شابًا ناضجًا يستطيع أن يستوعب الأمر ويزن الأمور بحكمة.

مرت لحظات طويلة من الصمت عاد يحيى بعدها يقلب الصفحات ويتصفحها بعينين ملؤهما دموع كأنما يبحث عن شي قد يشفي جراح طفل ذاق اليتم وحُرم أمه بلا

سبب.

ظل يتجول بين صفحات الدفتر المصور إلى أن وجد بآخر صفحاته قصيدة طويلة ربما لخصت ما كانت تستشعره وفية، وما دفع بها ذات يوم للبحث عن مغامرتها المأمولة فقالت القصيدة:

هل تتصور..
أن الأنثى بجسدي تحلم
أن يأتي اليوم و تتحرر
أن ترسم وشمًا وعيون
و تغطي الألوان جفون
أن تلقى رجلًا يجذبها
بذراعا عقل وجنون
يتحدث لغة الأحلام
إن ينطق ينثر من حولي
فقاقيع شوق وهيام
أحتاج لحضن أختبئ
فيه لو بضعة أيام
مجنون مثلي وجنونه
يخرجني عن كل شعوري
فأحل لديه أحلام

تنتفض سنين بضلوعي
لا يسأل عن أمس وغد
ليس التوقيت موضوعي
لا يحلو لي أن أبقى
أنثى بإيقاف التنفيذ
لا تعرف رجل يحررها
بقارورة خمر ونبيذ
ترتشف منها الأحلام
حتى ان كانت أوهام
هل يأتي عمر سوى عمري
يشعرني أني إنسان؟
إن يمضي العمر بلا عمر
تتسول فيه الإحساس
كفقير يطلب إحسان
أنثاي المجنونة صارت
كالمارد يلهو بمصباح
ينتظر من يأت فيعبث
بحنايا قلبي وجراح
إما يخرجني من حلمي
او يُطفئ جمري برياح

لا تترك في إحساس
ينخر بعظامي بسكين
لا أعرف أين يأخذني
شيطان أحمق ولعين
هل تتصور إن بصدري
حيات تشبه شرايين
لا فيها دماء بل فيها
شوق ودموع وحنين.

وفية.

فرغ يحيى من القراءة ثم رفع بصره عن الدفتر ليقف حائرًا بملامح وجه العجوز المجعد، والتي قالت بثقة وثبات:

— أريدك أن تعلم يا ولدي أنه لم تنته علاقتي بوفية بعد موتها ولم تقف يومًا معرفتي عند عتبة حياة أو موت، فلي شبل كثيرة للمعرفة تفوق خيالك الصغير المحدود.. كل ما أريده منك أن تثق بأن كتابي هو الأصل، هو القول غير المُحرف.. قالتها ومدت يدها نحو صندوق صغير أودعته لديها وفية لتقدمه ليحيى فقد كانت على يقين بأن يحيى سيبحث عن المغربية ذات يوم ويسعى إليها، فإن كان فلتقدم له ذاك الصندوق

الصغير.

فتح يحيى الصندوق حين قدمته له المغربية فوجد به سلسلة ذهبية لوفية لم تكن تخلعها عن عنقها تحمل آية الكرسي ذهبية صغيرة ومعها قلادة أخرى تشبه بروازًا صغيرًا يحمل صورة وفية والوجه الآخر صورة طفل صغير لم يكن سوى يحيى.

ظل يقلب القلادة بين يديه كأنما يبحث عن سرًا ما أخفته وفية بطياتها.

تابعته المغربية في صمت ثم قالت:

— هكذا أكون قد أطلعتك على آخر ما أودعته وفية لدي، فقد توقفت بعدها عن إمدادي بما تسجله بدفتر يومياتها بل إنها انقطعت عن زيارتي وانقطعت الصلة بيننا تمامًا.. لعلها كانت تفقد الثقة بي مع كل لحظة تعيشها دون أن يحين الأجل فتصدق نبوءتي الحمقاء، أو لعلها توقفت عن الكتابة تمامًا، فحين يعظم الأمر يصمت القول، وقد خفت صوت وفية شيئًا فشيئًا إلى أن صمت تمامًا فلم تقم له قائمة، فماتت الحسناء دون أن تنبس.

سألها يحيى بصوت مرتعش تبينته بصعوبةٍ، فقال:

— كيف تحولت وفية من منتهى القوة لمنتهى

الضعف؟ لماذا لم تُحيي شعاراتها الأنثوية التي هدمت المعبد لأجلها؟ لماذا لم تثر على حامد فتعنفه وتنزل عليه سيلًا من اللعنات؟ هكذا عهدتها بطفولتي فلم تكن أبدًا تلك الخاضعة المستسلمة.

أجابته المغربية بابتسامة تملأها ثقةٍ، فقالت:

— بل لعلها ماتت على عكس ما تقول، بمنتهى القوة والعزة، فقد حاربت معركتها بشرفٍ، فحين صارحها حامد بقصة أمه في هذه الليلة المشئومة غفرت له ما كان منه حين كانت زوجته وتبقي أن تغفر له ما استجد، ولما كان غفرانه شبه مستحيلًا فقد قررت أن تضيف شعارًا جديدًا لشعاراتها الثورية» لا شيء يقيد أمومتي» فتضع مصلحتك أولًا نصب أعينها.

رحل يحيى ومهجة تاركين المغربية متقوقعة بين مسندي كرسيها المتحرك، تعلو ملامحها علامات الرضا المختلطة بالألم، ترسم شفتيها ابتسامة هزيلة فكان آخر عهدها بالابتسام قبل سنوات طويلة سئمت عدها. جذبت من فوق الرف بضعة أوراق صارت صفراء بفعل الزمن.. كانت أوراق مكتوبة بخط وفية تعمدت أن ترسلها للمغربية رغم أنها تتهمها فيها بأنها ضللتها وكانت السبب في سقوطها.

كتبت وفية..

«ستجدين خلاصكِ مع خالد، وستموتين قبل زواجك بيومٍ واحد»

كلمات لعينة قالتها المغربية تنبًا لهذه المغربية فقد زجت بي نبوءاتها بكل قوة للخلاص بين ذراعي خالد، وزينت لي الموت فحين نعرف أن الموت وشيك نسعى لتحقيق كل الرغبات ضاربين بكل شيء عرض الحائط.. كل كلمة تفوهت بها كانت تدفعني إليه بعنفٍ تارة ترغبني بالمغامرة، وأخرى ترهبني بفزاعة الموت التي لم تفزع غير ضميري ففر هاربًا دون أن يلتفت وراءه للحظة.. وجدتني بعدها فراشة توشك أن تحترق فما وجدت ما قد تحتمي بداخله عدا ذراعا خالد.

هكذا تحولت من زوجة ألفان هيرفى، وقد أصبحت أكثرا نضجًا وفهمًا بخبايا نفسي، لمكبث آخر خدعته نبوءات واهية، وتحولت المغربية بعيني لثلاث ساحرات كاذبات!!

وفية...

«صدقت يا وفية» تمتمت المغربية بأسى .

لم يعتبر المشهد الأخير بين حامد ووفية كونه قصة ملفقة من نسج خياله المريض فلم يكن حامد ليفعلها، لم يكن ليسمح لأحدهم بالاقتراب من وفية أو المساس بها

ليصورها بين ذراعيه ويخلق دليل إدانتها، هي منطقة محرمة وملك خاص له منذ أن كانت طفلة صغيرة وهو يعشقها ويخاف عليها بجنون، فكل ما كان يفعله معها من ممارسات شاذة أو سادية كانت أمرًا خارجاً عن إرادته المريضة.

لم تضللها المغربية حين ادعت أن حامد سيقتلها، هكذا رأت في إحدى رحلاتها الأثيرية وهكذا كان مقدرًا له أن يفعل.. تلك كانت نيته حين طلب منها أن تُعد الشاي فكان معه السم الذي نوى أن يدسه لها، تمامًا كما رأت المغربية، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة.. لم يستطع قتلها، لم يستطع أن تختفي وفية من الحياة، لكنه كذلك لا يستطيع أن يحتمل زواجها بغيره.. هكذا حال حبه لها دون قتلها فاكتفى بوضع المخدر بالشاي دون أن يتدبر ما يفعل بعدها، دون أن يخطر بباله أي انتقام سادي سيلجأ له.

لعله في البداية أراد أن يبقيها أمام عينيه فترة لا بأس بها فيمكث قبالتها يتأملها فترة من الزمن فقد حرم هذه اللحظات منذ انفصالهما.. وبالفعل غابت وفية عن الوعي وظل أمامها يتأملها بمشاعر مضطربة، هكذا غاب عقله ورشده بغياب وفية عن الوعي كلما تصور أنها بضعة ساعات تنقضي وتصير ملك رجل آخر.

هكذا خطرت له فكرته الشيطانية في لمح البصر وساعده أن رفضت على الصور وآثرت الابتعاد في صمتٍ وألمٍ دون التحقق من قصته الوهمية.. لعلها كانت ما زالت تصدق في تكهّنات المغربية بموتها فكانت تظن الخلاص قريبًا.

اليوم فقط، عقب زيارة يحيى أنزلت المغربية عن كاهلها حملًا ثقيلًا طالما وقفت في المرآة فخالتها تراه مجسدًا في صورة وفية حتى باتت تخاف الوقوف أمام المرآة، وتطور بها الأمر أن فقدت البصر تدريجيًا. لم يكن فقدانًا مسببًا فلم يخضع لأي من النظريات الطبية ولا لقوانين البصر أو العمى، لكن لنقل أنها قوانين اللعبة، لعبة الإسقاط النجمي الذي يضع حمله الثقيل على كتفي ممارسه، فيحمله أمانة إما يستطيع حملها أو يعلن إذعانه وفشله وعندها فقط يتحمل تبعات اللعبة فهناك من يفقد السمع أو البصر فهما أدوات القائم بالرحلة ومثله يُحملان بالأمانة شأنهما شأن الحواس الأخرى.. وقد خرقت المغربية قوانين رحلاتها الأثيرية فقد تسببت نبوءاتها المضللة في الزج بوفية لمنطقة محرمة لم تكن لتذهب إليها.

لكن اليوم فقط ستجر المغربية عجلات كرسيها لتقف أمام المرآة بنفس مستريحة وضميرٍ يغط في ثبات عميق دون أن يكز على أسنانه ويصحو فزعًا.. ستقف من أي

زاوية فترى الحقيقة كاملة.. فعلتها الآن فجرت عجلات كرسيها لتقف بالمرآة لكن هل من ذلك جدوى؟! فهي اليوم ضريرة لكنها تثق أن جفنيها، المثقلان بالذنب لا بالعمى، مع الوقت ستثبت بهما الروح من جديد فيرتفعان فاكين أسر حدقتين بريئتين لا ذنب لهما.. تراجعت بكرسيها المتحرك، فلعل العمى الآن أرحم من رؤية وجهها العجوز القبيح الذي نال الزمن من جماله وفتنته.

لعل البصر لم يعد إليها ولكن كُشف عنها الحجاب، فهي تميز الآن حفيفًا كحفيف الأشجار وتمتمة غير مفهومة بصوت وفية مختلطة بغناء جواهر.. تكاد ترى بهذه اللحظة وفية تجلس مولية ظهرها لجواهر لتسمح لها بغزل جديلتها الطويلة وتثبيت الورود البيضاء الصغيرة بها.. وترى دوروثي سوثورث وعشيقها المتيم يستظلان بالشجرة الضخمة المجاورة والمسئولة عن صوت الحفيف الهائل الذي تسمعه بقوة.. كما رأت كذلك الفرنسي جان جينيه يحمل مسودة كتابه الأخير أسير عاشق ويقرأ عليهم بعضًا منه. لاحظت المغربية أن جميعهم يتحدث لغة واحدة لم تميز منها حرفًا.. أي لغة تلك التي يتحدثونها؟ لعلها لغة الموت، فهل يجمع الموت رواده بلغة مشتركة فيؤلف بين قلوبهم؟ أترى الموت شيخًا رحيمًا يحنو على

أبناءه؟ لعله كذلك.

رأت المغربية كل هؤلاء فتمنت لو فتحت النافذة وقفزت كما فعلتها جواهر فتلحق بهم لتعيش بعالمها الحقيقي الذي خُلقت لأجله.. ثمة أناس من بين البشر خُلقوا ليعيشوا بحيوات أخرى، ليتكلموا لغات لا بشرية ويخرجون عن قوانيننا الأرضية فيخضعون لقوانين أخرى لا علم لبني الأرض بها.

حقًّا ليس بوسعها القفز من النافذة فهي مشلولة، لكن جسدها الأثيري عفيّ لم يغلبه عُمر يُرهقه ولم تدب برأسه شعرات شيب تأخذ من أيامه الباقية، فليقفز هو كما يحلو له ويتحرر من أي قيود ويحررها معه.

عادت لتدير عجلات كرسيها لتقترب من الفراش وبالكاد تزحف لتزج بجسدها الوهين المهترئ شيئًا فشيئًا فوقه، التقطت بعدها أنفاسًا متقطعة غلب زفيرها على شهيقها، وعناءها على راحتها. وضعت رأسها فوق الوسادة وجذبت الغطاء بعشوائية الكبر ووهن المرض لتخفي قطعًا من جسدها وتترك أخرى عن ضعف لا عن عمدٍ، وقبل أن تسقط جفنيها مدت يدها للفراغ في الفراش بجوارها وجذبت الغطاء لتكسو به كيانًا مبهمًا لا يراه غيرها، وهمست تصبحين على خيرٍ يا جواهر، سقط بعدها جفنيها وعلت

شفتيها ابتسامة رضا لم تألفها شفتاها من قبل.

•••

كم من الوقت مرّ بمهجة وهي متفرغة تمامًا لقراءة يوميات وفية، بدأت وفية اليوميات بهذه الفقرة:

«يقول دفتر يومياتي إنني أنثى حالمة ذات أحاسيس المعية لها بريق الماس وشفافية الزجاج ،ومذاق الأحلام لكنها ما زالت مشاعر ورقية قد أمزقها في لحظة غضب، أو أتركها لتمضي أدراج الريح»

تمت